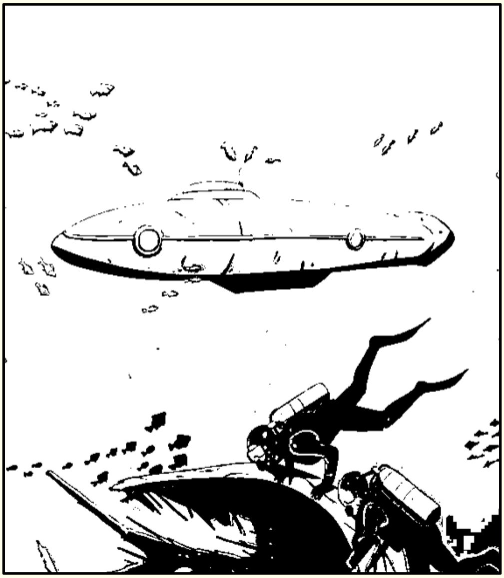

رحلات الغواصة (أنْقَلِيس 1).

رحلات الغواصة (أنْقَلِيس 1)

رواية

بقلم

أحمد القاسمي

عنوان الكتاب: رحلات الغواصة (أنقليس 1).
المؤلف: أحمد القاسمي.
البريد الإلكتروني: elkacimiahmed63@gmail.com
تصميم الغلاف، والإخراج الفني: المؤلف
رسم الغلاف: محمد حيتي
المقاس: 13.2سنتم X 19.5 سنتم.
عدد الصفحات: 334.
رقم الإيداع القانوني (Dépôt Légal): 2025MO5275
الرقم الدولي المعياري للكتب (ISBN): 978-9920-24-805-1
الطابع: مركز النسخ الخوارزمي؛ الدار البيضاء؛
البريد الإلكتروني: edi.algorismi@gmail.com

الطبعة الأولى؛ 1447هـ؛ الموافق لـ2025م.

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف.

يُمنع طبع هذا الكتاب؛ ونشره ورقيا، أو رقميا، أو نسخِه، أو تخزينه؛ أو تصويره؛ بأي جهاز إلكتروني، أو آلة ميكانيكية، أو إتاحة قراءته بأي شكل من الأشكال، أو طريقة من الطرق.

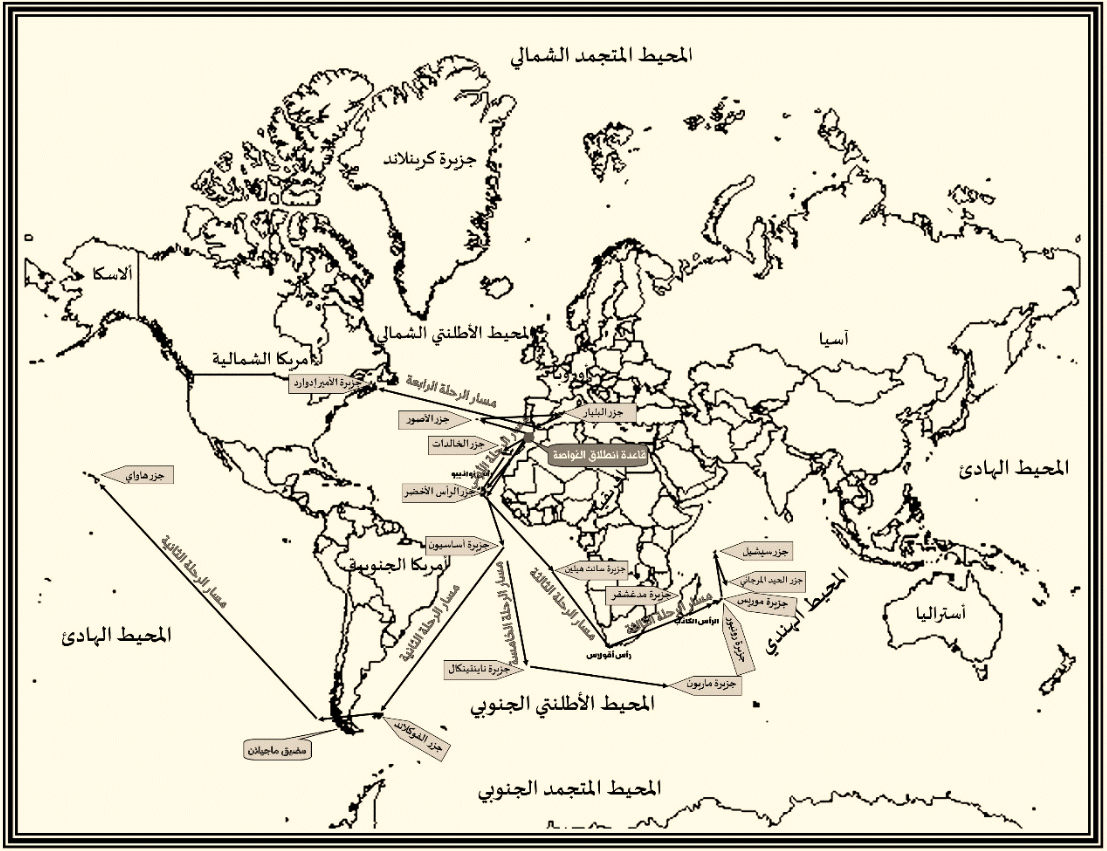

خريطة مسارات رحلات الغواصة (أنقليس 1)
(إنجاز المؤلف)

الفصل الأول

تكنولوجية غواصة (أنْقَلِيس 1)

في شهر أبريل؛ ذو الجو الربيعي؛ شَعْشَع فيه ضوء الشمس، وبعد عصر يوم منه من يومي عطلة الأسبوع، وهو الأحد؛ نزل (أسعد)، و(أمجد) مُنحَدرا صخريا؛ مُتوجِّهيْن إلى مساحة رملية صغيرة محصورة من شاطئ؛ هي ما تبقى من شريط رملي؛ كان ممتدا مئات الأمتار؛ كانت قد مضت ثلاثة عقود على وجوده؛ كان قد رُدم تقريبا بالكامل بما هُدّم من البنايات المحاذية له؛ إقامة لأخرى محلها، أو تغييرا فيها، أو توسعة لها، وما استُأصل مما ينبت في حدائقها من شجر، وأعشاب، فقد كان هناك شاطئ رملي اختفى، لم يبق منه إلا ذكريات. كان يشغل أيديهما مظلة، ومائدة طويلة الأرجل، وكرسيان، وقِراب من ثوب فيه قنينة مملوءة بعصير البرتقال، وكأسان بلاستيكيان؛ نصب (أمجد) المظلة؛ تحتها وضع (أسعد) المائدة، والكرسيين؛ ثم جلسا على هذين الأخيرين؛ مُظلَّلين؛ أمامهما ما ينتشيان بأكله، وهما يتحدثان في موضوع ما؛ ناظرين إلى صخور الشاطئ، وإلى أفق البحر البعيد، وإلى السماء التي شَسَعت فوقهما؛ ملآنة مسامعهما بصوت الموج، وزعيق النوارس.

هما أستاذان محاضران في الجامعة؛ يبحث أسعد في علم البحار والمحيطات؛ وهو ما يسمى بـ(الأوسيانوغرافية)، ويُدرسه لطلبة التحصيل العلمي، وله شهادة تأهيل في

أركيولوجية الأعماق، ويبحث أمجد في تاريخ تكنولوجية الغوص؛ في تطورها عبر العصور، ويُدرسه هو كذلك لأولئك ذوي الفضول المعرفي؛ إذن ما يجمع الأستاذين هو هذا المسطح المائي وعمقه؛ الممتد أمامهما من شمال الكرة الأرضية إلى جنوبها، وهو المحيط الأطلنتي، وغيره من المحيطات الأخرى، والبحار، والبحيرات، والأنهار.

هما غاصا في مياهها المالحة والعذبة؛ مُحيطيْن بعلمهما، ومُفهِميْه لطلبتهما، ومُتسلحين بقنينتي الأكسجين، وباللباسين العازلين للحرارة، وبالقناعين الزجاجيين، وبأنبوبي التنفس، وبالزعنفتين، وبالسكينين اللذين يُشدان على الساقين، وبالبوصلتين، وباللوحتين المبتكرتين للكتابة عليهما في الأعماق، خائضين في واقعها تلك المياه؛ مُتحدّييْن مخاطر الغوص فيها، وكانا قد تدربا على الغطس في ناد معترف به؛ نائلين منه شهادتين بنجاح فائق.

يبلغ أسعد من العمر خمسين سنة، ويصل عمر أمجد إلى ثمانية وأربعين سنة. ذو الخمسة عقود طويل القامة؛ عريض الصدر؛ ضامر البطن، بنحافة معافاة؛ صلب الهيكل؛ واسع العينين؛ بسمرة خفيفة، بأنف مستقيم؛ دائما مرفوع الرأس؛ متأملا طويلا فيما تقع عليه عيناه؛ قليل الكلام؛ شارد في شؤونه طيلة الوقت؛ متزوج؛ وله ابنة اسمها (رهف)؛ عمرها ثمانية عشرة سنة؛ طالبة جامعية في علوم الحياة والأرض. ذو الأربعة عقود بعد ثماني سنوات؛ متوسط القامة؛ ممتلئ الجسم قليلا؛ صلب العضلات؛ تُتوج رأسه صلعة، في عينيه بعض

الضيق؛ كثيف الحاجبين؛ سمين الخدين؛ عريض الرقبة؛ صائب في قراراته؛ عنيد فيها؛ متزوج، وله ابن اسمه (بسام)؛ سنه عشرون عاما؛ طالب جامعي في علم الفيزياء.

(رهف)، و(بسّام)؛ ولدا البَطّين عوامان؛ منذ صغر كل واحد منهما، وهو بأذيال أبيه متشبث؛ سائر طيلة الوقت في ظله؛ يخطو بخطاه على رمال الشواطئ؛ الخشنة منها والناعمة، وعلى نواتئ الصخور، وعائم يطفو؛ مشدودا من عضده بيد الأبوة الراعية، فكانت الانطلاقة إلى السباحة المتوغل بها في البحر؛ لما قوي الساعد، وتقدمٌ إلى الحياة مُستقلا، وإلى عُدة الغوص؛ في كل غطسة بها في عمق الماء؛ تَدرُّب، ومهارة، وتلبية الرغبة في المغامرة؛ واستكشاف العوالم؛ ترسيخا للذات؛ واكتسابا للثقة في النفس؛ وزحفا إلى الأمام بثبات؛ ليس فيه تردد، أو وجل. اقتحام ماء البحار والمحيطات؛ سفرا فيه، وعوما عليه، وغطسا فيه؛ علوٌ في الهمة، وإحاطةٌ بطبيعة الكوكب الأزرق.

كان قد ساد صمت بين الأستاذين؛ ليس لأحد منهما جديد يريد أن يُخبر به الآخر، أو يسأله عن شيء لم يتعمق بعد في طبيعته، أو عن مهمة مبرمجة غير واضحة لديه، أو يشاوره فيما يحار العقل فيه، أو يُضطرب في اتخاذ قرار نهائي فيه، إلا أن ما في طبيعة البشر ما لا يقبل هذا السكوت الطويل، وكان لا بد من أحدهما أن يتكلم؛ بتمهيد لموضوع ما؛ يفتح شهية تحريك اللسانين، فكان هذا (أسعد) يلتفت إلى زميله؛ ناظرا إليه طويلا؛ مُستجمعا عناصر كلام بروية في

ذهنه، ولما اكتمل المضمون، وأُحكمت بلاغته الجارية بينهما بمستوى معين؛ قال:

– لبلدنا مُسطحان مائيان؛ الأول البحر الأبيض المتوسط؛ نشأت على ساحله حضارات في جميع العصور؛ كانت تُبحر فيه سفن وما زالت؛ تحمل البضائع للمتاجرة فيها في مراسي عهود قديمة، وفي موانئه الحالية، والثاني المحيط الأطلنتي، هو امتداد مائي واسع؛ عَبرته سفن السفر والبضائع؛ منذ اكتشاف القارة الأمريكية في أواخر القرن الخامس عشر، وما تزال؛ ذهابا إليها، وإيابا منها إلى العالم القديم، وتطوف على مياههما سفن حربية، وتغطس فيها غواصات...

قاطعه أمجد مُذكرا إياه:

– هذا كله في علمنا الذي فزنا به؛ بالكد في البحث في مواضيعه.

قال أسعد مُستعدا لإطلاع زميله على الذي يُقدِّمه له:

– هذا تمهيد لاقتراح ترقّبْه؛ سأتكلم به إليك بعد قليل.

قال أمجد مُهيِّئا نفسه، ومُنتبِها إلى أسعد باهتمام شديد:

– أذناي صاغيتان؛ تأملان أن لا تُصكّا بصوت طبل قوي، وليس في الطبل إلا خواءً.

قال أسعد مُتعودا على مزاح صديقه:

– لك الحرية فيما سيبدو لك؛ ما سأتفوّه به إليك.

سكت لحظات، ثم تابع كلامه ممهِّدا دائما له:

– هذان المسطحان لنا...

قاطعه أمجد مُحفزا إياه على المضي في الكلام:

– نعم؛ هما امتدادان لجغرافية البلاد؛ كان الغازي الذي يُبحر فيهما؛ يُقربه إلى يابستنا؛ فيُخضعنا إليه بتوفقه علينا في عُدته، ولنا علم بتاريخ الغرب من حوض البحر الأبيض المتوسط؛ وكنا فيه عابرين للزقاق، هاجمين، ومُتوسعين، ثم هم كذلك، فكنا في موقف دفاع؛ يُعوزنا فيه مستوى آلاتهم الحربية؛ فكانوا مُستعمرين لنا في عقود من السنوات.

قال أسعد تبعا لما قاله أمجد:

– هل في صنع غواصة نِدّ للآخر، وأكثر من هذا تفوق عليه؟ يكون فيهما امتحان، ودُربة، وتمرن، فاكتساب لخبرة الغوص في محيطات وبحار العالم، وغيرها من المسطحات المائية الأخرى.

اِنفتحت عينا أمجد عن آخرهما، بشدة وقع اقتراح أسعد عليهما، وأدار وجهه بكامله إليه، وسأله قائلا:

– هذا يتطلب دراسة مستفيضة، ورسما لخطوط مشروع ضخم مُفصِّلة له، فمن سيكون بهذه الكفاءة، وبهذه المؤهلات؟

قال أسعد بنبرة صوت خفيفة، وبتريث في سكب الكلمات في أذن أمجد:

– أنت عالم بتاريخ تكنولوجية الغوص...، وأنا متعمق في علم البحار والمحيطات؛ في طبيعة مياهها، وكائناتها، وصخورها...

صمت قليلا ثم طرح سؤالا اهتز له جسد أمجد:

– ألسنا كُفئين بعلمينا هذا، ومُؤهلين بهما؟

قاطعه أمجد سائلا باستنتاج خلُص إليه بعد سؤال زميله:
- هل هذه الكفاءة، وهذا التأهيل لصُنع غواصة؟
أجاب أسعد بوضوح:
- نبني غواصة.
تفكر أمجد طويلا في إجابة صديقه، وقال:
- تصاميم بناء غواصة أصبحت مُتاحة، وكذلك المادة الخام.
قال أسعد مُستميلا صديقه إلى تجربة مُغرية:
- فيما يبتكره أي أحد؛ إلا وفيه لمسة منه، يكتسب ذلك الذي صنعه خاصيةً، وتفردا...
بعد لحظات صمت أضاف أسعد قائلا:
- إذا كان بناء الغواصة تقليدا لسابقتها من الغواصات، فلا نُجهد أنفسنا في ذلك، ولا نصرف فيه المال، فبقاؤه في الجيوب أفضل من تبديره فيما لا تفرد فيه، فيكون لا طائل منه.
قال أمجد مُساندا زميله في تفكيره البعيد:
- ذلك ما أتهيأ إليه، وأصر عليه، وأنت تعرفني بالصرامة في اتخاذ قرارات تبدو للبعض مغامرة؛ قد يكون فيه رابح، أو خاسر.
قال أسعد ماسكا بلسان أمجد بما نطق به:
- إذن فأنت مُوافق على اقتراحي.
أجاب أمجد بدون تردد، وبثقة المتمكن في العلوم الشاملة:

– نعم، ولنبدأ في إنجاز دراسة متكاملة؛ لوضع تصور عام لأجزاء الغواصة، وللأجهزة، والآلات التي تؤهلها للغوص في الأعماق؛ وبتقنية تتميز بها عن غواصات البلدان الأخرى.

قال أسعد؛ وقد بدأ مشروع صناعة الغواصة يطرح تحديات؛ لم يحس به هو فقط؛ حتى أمجد، لأنهما قررا تنفيذه، ولا مراجعة لنفسيهما فيه، فكان في الحقيقة وعدا منهما:

– لا يمكن أن يظل فريق إنجاز الدراسة، ووضع نهائي لمعالم الغواصة، وتوفير المادة الخام، ومخلوطها الكيماوي، وتشكيل منها الهيكل، والقطع المكونة لعناصر الأنظمة المؤدية أدوارها في نظام الغواصة التقني؛ يتكون منا نحن الاِثنين.

قال أمجد:

– إن من تُكلفه بمهمة في الدراسة، وفي إنجاز المشروع لا بد أن يكون ثقة.

قال أسعد، ولم يتطلب منه تعيين أفراد آخرين للاِنضمام إلى الفريق؛ تفكيرا طويلا:

– (رهف)، و(بسام) واعدان.

لم يستغرب أمجد اختيار أسعد، وقال:

– بذلك نترقب نجاحهما دائما؛ واثقين فيهما، وهما من نتاج تربيتنا وتكويننا.

أمسك قليلا عن الكلام، ثم سأل زميله:

– ومنِ الآخر الذي تراه قادرا من جميع النواحي؛ في مؤازرتنا في هذا المشروع؟

قال له أسعد؛ دافعا إياه إلى مساعدته في اختيار أشخاص آخرين:

– ها أنت ترى أنني كنت ناجحا في اختيار فردين، وأنت ألا تكِدّ في التفكير في أحد ما:

أجاب أمجد شاعرا بدوره هو الآخر في تعيين فرد آخر:

– صديقنا (رائد)... أستاذ التعليم الابتدائي... دراسته الجامعية كانت في الجغرافية العامة؛ أنجز بحثا لنيل شهادة فيها في الجغرافية الطبيعية؛ وبالضبط في علم المناخ.

قال أسعد بغبطة:

– نِعم من اخترته، فهو رجل صامت في جميع المواقف؛ كتوم لكل ما تقع عليه عيناه، وما يُنقل إليه، وما يُتكلّم به في حضوره.

قال أسعد مُتقدما في تكوين فريق متكامل إلى حد ما:

– والأخير لن يكون إلا صديقة (رهف) وهي (ريم)؛ طالبة في آخر سنة من مرحلة التكوين في مجال الطب، سنُلفتُ اهتمامها في البحث إلى طب البحر والغوص، والاطلاع على سبل الوقاية من الإصابات الناتجة عنهما، ومعرفة واسعة بطرق العلاج من أمراضهما، وبأدوية التعافي منها.

دعّم أمجد اختيار أسعد لـ(رهف)؛ قائلا:

– ستكون طبيبة مُؤهلة لرحلاتنا بالغواصة؛ في بحار، ومحيطات، وبحيرات، وأنهار العالم.

قال أسعد ناطقا بنتيجة عدّ الأشخاص المختارين بعناية:

– إذن فقد وصل عدد أفراد فريقنا إلى ستة.

قال أمجد بتعمق في أداء أفراد الفريق المرتقب:

- هؤلاء فيهم كفاية، فكل واحد منهم له من الأفكار ما يحقق لنا النجاح في المشروع.

قال أسعد زاحفا إلى البدء في العمل:

- سنستدعي الجميع للاجتماع غدا؛ في الساعة التاسعة مساء؛ في بيتي.

قال أمجد باطمئنان بتقدم تفكيرهما في المشروع:

- حتما ستكون نتيجة مُرضية كثيرا لاجتماع هؤلاء الأفراد، بمستوياتهم هذه المُشجعة.

كانت فترة دقائق من السكوت منهما معا؛ عادا خلالها من هناك؛ من الحديث عن المشروع، وعن فريق إنجازه؛ إلى الشاطيء الذي يجلسان فيه؛ مُسترجعيْن وجودَهما فيه؛ كان الناطق منهما أسعد؛ حيث قال مُتسائلا:

- هل قصدنا هذا الشاطئ لجلسة استجمام، أم لنغرق في تخطيط نفكر في رسم مراحله بهم كبير؟

أجاب أمجد بابتسامة عريضة، وبنفس تفتحت بعد تفكير مُضن:

- لولا هدوء هذا المكان؛ واسترخاؤنا فيه بسيمفونية صوت الموج، ونعيق النوارس؛ وامتداد تلك المياه الزرقاء أمام عيوننا هناك بعيدا إلى الغرب، لما أُوحي لك بفكرة كانت اقتراحا وافقنا عليه جميعا، ولما تولد عنه تكوين فريق تنفيذ مشروع، لا أقول إلا بأنه سينجح في إتمامه.

لم يقل أسعد أيَّ شيء، وأراد من أمجد أن لا يستمر في الكلام، لأنه شعَر بأنهما قد استوفيا الحديث في غواصة المستقبل؛ التي تتطلب منهما تطويرَها؛ إلى حد أنها ستصير آخر وسيلة للغوص في الأعماق؛ تُبتكر لحد الآن، هل بقي من حديث؛ بعد أن أصبحت الغواصة محط اهتمامهِم في كل وقت من حياتهما؛ وفيها رغبتهما الشديدة في إخراجها جسما إلى الواقع، كرغبتهما في الاستزادة من العلوم؟ لن يجدا سعادتهما إلا في تحقيق ما قد بدا لهم في وقت سابق خيالا، أو مستحيلا، لذلك جمعا عُدة الاستجمام، وعادا كما قدما راكبين السيارة؛ كان سائقها مالكها أمجد؛ هل تعجَّلَهم العملُ الفعلي في المشروع؟ نعم، ففي توصيل أمجد لأسعد إلى باب بيته، ونزول هذا من السيارة؛ تواعد فيما بينهما مرة أخرى؛ على الاجتماع بأفراد الفريق في الساعة، والمكان المُعيّنين.

أخبر (أمجد) ابنه (بسام) باجتماع سينعقد، وأنه سيكون من الحاضرين إليه، وبعث برسالة إلكترونية إلى (رائد)؛ يطلب فيها منه الحضور، وما إن دخل أسعد إلى الحجرة المخصصة لمكتبه، حتى نادى على ابنته (رهف)؛ فقدِمت، وبسرعة؛ سائلة إياه فيما يريدها، أخبرها بالاِجتماع، وبأنها لن تكون حاضرة إلا وزميلتها ريم معها.

كان منزل أسعد (ڤيلا) من بين (ڤيلات) حي لا يبعد عن شاطئ البحر إلا مسافة قصيرة؛ تُقطع في عشرين دقيقة؛ مشيا على الأقدام، ومن إحدى نوافذ غرف الطابق العلوي؛

يبدو المحيط، وكان قد خصص حجرة شاسعة في الأسفل لمكتبه ومكتبته، وطاولة كبيرة مُحاطة بكراس؛ يجلس إليها مع زملائه من الأساتذة الباحثين؛ في تناول موضوع بحث بالنقاش، ومع طلبته؛ في مناقشتهم في فصول بحوثهم الجامعية، ويلوذ بها من ضيق نفسه أحيانا في مكتبه؛ فيضع في اتساعها أوراق الإجابة عن أسئلة الامتحانات؛ لتصحيحها؛ في ذلك الركن منها مكتب خشبي بطراز كلاسيكي، وفي الآخر كرة أرضية كبيرة، مُفصلة بأسماء الدول، والبحار، والمحيطات، والأنهار، والسهول والتلال، والهضاب، والجبال، والجزر المنتشرة في المسطحات المائية؛ عليها خطوط العرض، والطول الجغرافيان، نظرة تصفحية إليها تجعلك تحيط بالعالم؛ قريب منها مقراب؛ موجهة فوهته إلى الكون، يَخْلُد إليها أسعد في الليل مُقرِّبا إلى عينيه؛ الكواكب، والأقمار، والنجوم التي لا تبدو بعدستها المصقولة إلا كذلك، وهذا إعجاز للعلم والعلماء؛ الداخل إلى هذه الحجرة يجد نفسه قد انتقل في رمشة عين من عالم إلى آخر؛ من ذاك الذي فيه صخب السعي اليومي إلى تحقيق ضروريات الحياة، إلى الذي ينعزل عنه بهدوء، يؤدي إلى سكينة في النفس، يُشجع على التأمل في حياة الإنسان، وفيما صنعه بعبقريته؛ البعض منه فيه دمار لمنجزات جماعة بشرية، ولإبادة أفرادها. في المجلدات المحفوظة في رفوف المكتبة؛ بأحجام مختلفة، وما تحتويه من معارف؛ استفاقةٌ من غيبوبة استغراق في هموم يومية عابرة؛ قد يكون منها التافه؛ لا

يستحق تمضية وقت فيه، ولا عناء، ولا بلبلة في البال، فهو مكان يُلهَم فيه الإنسان، وما يضمه من كتب، ووسائل علمية؛ سيساعد في وضع التصور العام، والنهائي لمشروع بناء الغواصة.

كانوا بعددهم الستة؛ يحتل كل واحد منهم كرسيا يُشرف منه على سطح الطاولة؛ أمامه لوحة إلكترونية؛ متصلة بالشبكة العنكبوتية؛ يعود إليها للبحث فيها؛ فيما سمعه من المتكلمين من الحاضرين في الاِجتماع، لم يتطلب من أمجد الكثير من الكلام، وتمهيد طويل، ليُطلعهم على التطلع لبناء غواصة؛ والذي دفعهم إلى اتخاذ قرار في ذلك هو تخصصه وأسعد في مواضيع مجال دراستها، هو أعماق المياه؛ كيفما يكون اتساعها، وكيفما يكون عُمقها، والأدوارُ المنتظر قيامهم بها -هم طلبة العلم في جميع مستويات تلقيهم له- في صنع الغواصة؛ لم تر عيون الأستاذين الجامعين إلا عيونا تبرق؛ منفتحة؛ حية بحماسة شديدة، وتدفق كلمات قوية الوقع على الأجساد؛ باعثة فيها حيوة، منها التي نطق بها رائد؛ حين قال:

- في الإبداع بعث لحياة جديدة.

ومنها ما تفوهت بها ريم؛ حين قالت:

- هي إعادة الثقة في النفس المتذمرة بانهزامات في بعض الأحيان.

ومنها ما تحرك بها لسان رهف؛ عندما قالت:

-هي عُرس نحيا به تطبيق نظريات العلم؛ كانت ثمرة نظريات علماء هذه التكنولوجية التي تتقدم يوما بعد يوم؛ جانيا منها الإنسان حسناتها.

قال أسعد صائغا لمحاور الدراسة الأولية، والتي تُكوّن المنصة النظرية، والتصورية للغواصة:

– أول ما نسعى إليه هو أن تكون الغواصة متفردة في تكنولوجيتها، ومتميزة في أدائها، عن الغواصات التي بُنيت لحد الآن، وهذا ستكون فيه إضافة منا نحن بالذات في تطور وسائل الغوص.

قال أمجد آتيا من عالم الطبيعة:

– هل في عالم الكائنات البحرية ما نستوحي منه في إعطاء لغواصتنا ذلك التميز، وذلك التفرد؟

قال أسعد عارضا في أذهان أفراد الفريق أسماء كائنات بحرية:

– هي الغواصات جميعها بنيت بشكل سمكة؛ يؤهلها للغطس في الماء، والتنقل في عمقه؛ فهذا الدلفين، وهذه الفقمة، وهذا الحوت، وهذا القرش، وهذا أبو سيف، وهذا (السلفيش) السمكة الأسرع؛ قد تبلغ سرعتها 109 كيلومترا في الساعة، وهذا (الراي اللساع)، وهذا (أبو مطرقة)، وهذا (الأنقليس)...

عندما وصل أسعد إلى ذكره الأخير لسمكة الأنقليس؛ قاطعه رائد قائلا:

– إني أشد عجبا بهذا الأخير الذي ذكرته.

قال أمجد مؤكدا ما قاله رائد:

- نعم فهو أعجب المخلوقات البحرية... فإنه ذو صعقة كهربائية؛ قد تقتل تمساحا يهاجمه، أو انسانا، لأنه يتوفر على خلايا كهربائية؛ لذلك سمي بـ(الأنقليس الكهربائي).

زاد أسعد على ما أمدهم أمجد من معلومات عن الأنقليس بأن قال:

- هو نوع من السمك العظمي؛ له زعانف جانبية، يُؤهله طوله في الغوص بين الصخور، والنباتات البحرية.

وزادت ريم على ما سُمع من أسعد وأمجد؛ قائلة:

- له عدة أسماء تُطلق عليه في بعض البلاد العربية؛ يسمى في المغرب بـ(النون)، وفي مصر بـ(ثعبان الماء)، وفي سورية ولبنان بـ(الحنكليس)، وفي العراق بـ(المَرمريج).

قالت رهف، وقد سبق لها أن اطلعت على ما يُكتب عادة على الأنقليس:

- يقال عن هذه السمكة بأن لها فوائد غِذائية، لأنه غني بالبروتين، والأحماضِ الدِّهنية، ويدخل لحمُه بعد طحنه وتحويله إلى مسحوق في صناعة الأعلاف الحيوانية.

قال أسعد رابطا ما توسع أفراد الفريق في كلامهم عن الأنقليس؛ بالغواصة التي أصبحوا جميعا يتطلعون إلى بنائها:

- ألا نستوحي من شكل، وطبيعة هذه السمكة شكلَ وتقنيةَ الغواصة؟

سألوه وعقولهم تتفكر فيما ينطق به:

- ما الذي ينفعنا منها في صناعة الغواصة؟

أجاب أسعد مُستحضرا تلك السمكة؛ التي كثيرا ما صادفها في رحلاته في الغطس:

- مرِنة الجسم؛ بحيث تلتوي لتأوي بين الصخور؛ تعيش في المياه العذبة، والمالحة؛ في البحار، وفي مداخل الأنهار. هذا، وشيء آخر أكثر ملاحظة وقد ذكره أمجد، وهو أن جسمها يُصدر صعقات كهربائية، وهو سلاح لها؛ تفتك به الأسماك التي تحاول أن تفترسها.

قال رائد طابعا كل هذه المميزات في طبيعة الأنقليس على تقنية الغواصة المرتقبة بناؤها:

- فالطول لا بد أن يكون في الغواصة، ومرونة في غوصها؛ كيف سنضع تصورا لذلك؟ ومزودة بجهاز إصدار صعقة كهربائية على كل من يقترب منها من السفن، والطائرات والغواصات المهاجمة؛ المصرة على معاداتنا، وهزمنا، وإحباطنا.

قالت ريم بواقعية:

- هذا يحتاج إلى ابتكار أجهزة إلكترونية حساسة، واستشعارية كثيرة، في إطار نظام معلوماتي لا يطاله خلل على الإطلاق.

قال بسام؛ الذي ظل صامتا، فلم ينطق بأي كلمة:

- ما يُمكِّن الغواصةَ من التواءات جسمها هي مفاصل، تتمفصل بها في المرور بين الصخور، والأعشاب البحرية؛ هذا يتحقق بتثبيت توصيلات على جسمها؛ تُرسل إشارات إلى جانب الأشياء؛ التي يمكن أن تعترض طريقها؛ فتتمفصل

تلقائيا مفاصلها تلك، وهذا لم يُفكر فيه في الغواصات الأخرى إطلاقا.

قال أمجد مُضيفا شأنا آخر:

– إذا ما بُنيت الغواصة بمميزات طبيعة هذا الكائن البحري، فهل فيها مخرجا لنا من حيرة في شأن آخر؟

قال أسعد ناظرا إليه طويلا؛ دون أن يستشف من كلامه ذلك الشأن:

– ما هو؟

أجاب أمجد بابتسامة ظفر خفيفة:

– ما هو الاسم الذي ستُطلقونه على هذه الغواصة؟

صمت قليلا ثم تابع يقول:

– أليس اسم هذا الكائن هو المناسب لها، ما دامت الغواصة إسقاطا تقنيا لطبيعته؟

نطق (بسام) بسعادة:

– نُسميها إذن (الأنقليس)... غواصة (الأنقليس)؛ ونُضيف له عدد (1)، لأنها ستكون بداية لجيل من غواصات متطورة عنها، فننطق باسمها: (الأنقليس1).

قالت (ريم) محيطة بالخاصيات التقنية التي يمكن أن تكتسبها غواصة (أنقليس 1):

– فما يُستشف من التصور العام الذي بدأنا نتدرج في وضعه للغواصة، أنها ستكون إلكترونية بأجهزة حساسة مائة بالمائة؛ إلا مفاصلا تُمفصلها عند كل عائق جامد أو حي؛ فإنها ستكون ميكانيكية لكنها في إطار عتاد، وهو نظام

حركة يتكون من عجلات مُسننة؛ محكمة التنسيق والتلاحم؛ غير معرضة للتفكك؛ السؤال الذي نكون قد وصلنا إلى طرحه، هو: ما هي الطاقة التي ستعمل بها محركات الدفع؟

نظر أسعد إلى (رائد) الواسع الثقافة، وقال:

- أنت يا رائد تطالع كثيرا في وسائل الطاقة؛ كونُك مناخي، فلا تكون معرفتك بها بعيدة.

اِمتد وقت قليل فكر فيه رائد فيما سيقوله؛ حتى تأتي معلوماته علمية صحيحة، ثم قال:

- هناك عدة مصادر للطاقة التي يمكن أن تُستخدم في محركات دفع الغواصة؛ وسأرتبها تبعا لسهولة الحصول عليها؛ الأولى: الطاقة الشمسية؛ الثانية: طاقة بخار الماء؛ الثالثة: الهواء المضغوط، الرابعة: الهيدروجين؛ بالمناسبة هذا الأخير نحصل عن طريقه بالأكسجين الذي سيُبقينا أحياء في الأعماق؛ رابعا: الوقود السائل الذي هو طاقة للمحرك الانفجاري؛ كما هو معتمد عليه في الغواصات الكلاسيكية؛ والخامسة: هي الطاقة النووية، وهذا يستحيل علينا التوفر عليه؛ لأن إجراءات استخدامه دولية صارمة؛ لمخاطره على المحيط البيئي الإنساني والطبيعي؛ وهي طاقة قذِرة؛ غير نظيفة بالكامل؛ ناجحة في الردع العسكري؛ لتَمْريغ أنوف الشعوب المُستضعفة في التراب.

قال أمجد مُرشدا أفراد الفريق إلى التفكير في إحدى الطاقات النظيفة:

- علينا أن نختار من هذه الطاقات تبعا لما يكسب غواصتنا خاصية، ويُؤهلنا إلى الغطس بها بدون مخاطر؛ أرتبها تبعا لسهولة الحصول عليها؛ أولا الطاقة الشمسية، ثم طاقة الهواء المضغوط، وفي هذه عيب ميكانيكي، وهو أنها تحتاج إلى محرك انفجاري يحتاج هو نفسه إلى الوقود السائل؛ يُعبئ قارورات بالهواء المضغوط، وأخيرا طاقة الهيدروجين، وهذا يحتاج إلى معمل مِجهري كيماوي لإنتاج الهيدروجين؛ فما هي الطاقة المناسبة لغواصتنا من هذه الطاقات؟

أجابت ريم بدون تفكير يتطلب منها وقتا طويلا:

- إنها الطاقة الشمسية؛ إضافة إلى طاقة أخرى قد نحتاج إليها؛ وهي توليد طاقة البخار منها.

سأل بسام؛ يريد من الفريق التعمق في هذه الطاقة؛ قائلا:

- كيف؟

أجاب أمجد مُتخيلا تزويد الغواصة بالطاقة الشمسية:

- يُغلف سطح الغواصة بألواح الخلايا الشمسية؛ متماهية في هيكلها الصلب، وعند كل طفو لها على سطح البحر، تستقبل تلك الخلايا أشعة الشمس؛ فتَشحن تلقائيا بطاريات عالية السِّعة الإلكترونية؛ توصَل بمحركات دفع كهربائية.

قالت رهف وقد داهم ذهنَها، وأعضاء الفريق ماضون في خيالهم العلمي الذي مايزال بهذه الصفة لحد الآن:

- هل سيكون رصيف ممتد من اليابسة خاص بالغواصة؟

نظروا إليها جميعا؛ عاتِبين أنفسهم على نسيان هذا العنصر الذي يَعتبر من الرئيسيات في المشروع، وبدأ كل واحد يحرك عقله ليستخرج منه شكل هذا الرصيف.

قال رائد مُتشبثا دائما بما يكون له علاقة بخاصيات الغواصة:

– حتى هذا الرصيف يجب أن يُنجز تبعا لهيكل الغواصة المتمفصِل، ويلعب دورا في صيانتها، وفي سرية انطلاقها منه في الرحلات العلمية، أو لاستكشاف أعماق البحار والمحيطات؛ التي سنُنظِّمها بشكل دوري، والعودة إليه؛ راسية فيه.

قال أسعد مُنطلقا من فكرة رائد العامة حول الرصيف، ودوره الخاص بالغواصة:

– أن يكون داخل الساحل.

سأله أمجد، لأن كلامه لم يتضح بعد:

– هل تعني أن يُشيّد في داخل صخور الساحل؟

أجاب أسعد، وقد بدأ تصورُ ذلك يتبلور في ذهنه:

– رصيف خزان باطني للغواصة؛ لايكون فضائيا؛ أنت تعرف تعريف مصطلح (الساحل)، ويعني منطقة اليابس من الأرض المحادية لماء البحار والمحيطات؛ فيه تُحفر قناة أفقية؛ تمتد من مكان مد وجزر الماء، وتتوغل مئات من الأمتار في اليابسة؛ تحت سطح الأرض؛ إلى حد يُبنى فيه رصيف تطفو على جانبه الغواصة.

قال بسام زائدا على ما تخيله أسعد:

- وستكون في النفق مراحل دخول الغواصة وخروجها؛ كأن يطفو بها الماء فوق مستوى البحر؛ يُقربها قليلا من السطح يُمكِّن أفراد الطاقم من مغادرتها، والصعودِ إلى الأعلى بمصعد غير مُتعمِّق إلى الأسفل كثيرا؛ وفيه استخفاء للغواصة عن أجهزة استخبارات.

قالت ريم مُحتذية بالبعض في خيالاتهم العلمية، وتصورهِم للمشروع:

- وفي المسالك التي تحفرها لها الحشرات تحت الأرض استيحاء؛ فالتواء في ذلك النفق؛ ودخول الغواصة إليه بإمكانية تمفصل هيكلها؛ متوغلة أكثر؛ بتوغل الرصيف الباطني بشكل يستحيل استكشافه من طرف البعض.

عند وصول الجميع إلى تخيل كل ما يمكن أن تكون له علاقة بالغواصة؛ قال أسعد مُنسقا بين كل حديث شارك به جميع أفراد الفريق:

- بعد هذا التصور المتشعب لشكل الغواصة، ومما يُعطيها إمكانيات غير محدودة في أدائها، ولرصيف رسوها الباطني؛ نعيد تحديد ذلك بشكل واضح، وتعيين كل شيء منه عنصرا في نظام المشروع العام.

صمت لحظات ثم تابع مُستنتجا قائلا:

- كان في طبيعة الكائن البحري العجيب (الأنقليس) ما استمديناه في بناء الغواصة؛ لا في شكله، ولا فيما يتميز به عن الكائنات البحرية الأخرى؛ وهي مرونته في الدخول بين الصخور، والأعشاب البحرية، وكهوف الأعماق الضيقة،

وسلاحه الطبيعي الذي هو ذلك الحقل الكهربائي الذي يحيطه به؛ يستحيل أن يقترب منه أي كائن حي؛ وما دُمنا سنصنع الغواصة؛ فيها هذه الخواص؛ فإننا أعطينا لها اسم بما يسمى هو، وهو (الأنقليس)؛ أضاف بسام إليه عدد (1)، لأنه كما قال ستكون هي الأولى في جيل من غواصات مُتطورة عنها؛ وستكون تتلوى في مراوغتها للعوائق والحواجز؛ بمفاصل جانبية؛ تكون مُزودة بمجسات إلكترونية حساسة؛ تخولها التمفصل عند اقترابها من كل جسم؛ حيا كان أو جامدا، واخترنا الطاقة التي ستعمل بها محركات الدفع، وكل الأجهزة والآلات الإلكترونية، وهي الطاقة الشمسية؛ بحيث ستتقوّس على ظهرها الألواح الشمسية؛ فتكون من صفائحها التي هي من الحديد الصَّلب؛ عالية تعبئة البطاريات، وفي وقت قصير جدا، وتزويدها بنظام جهاز يولد تفريغا كهربائيا في أي جسم طبيعي يُهاجمنا؛ أو جسمٍ اصطناعي يُراد به الإجهاز علينا، وفي هيكل الغواصة تصميم لحجرات مخصصة لأعمال معينة، ولإقامة أفراد الطاقم؛ حجرة للطبخ وتناول الوجبات، وأخرى لأسرّة النوم، وأخرى لخزانة الكتب، والحواسيب، وشاشة تلفاز، ولاجتماع أفراد الطاقم، وحجرة من بين هذه للمختبر العلمي، وأخرى لعمليات العلاجات الأولية والتطبيب؛ وأخرى ستكون مُستودعا لعُدة الغوص، والقاطرات ذات المراوح، والبطاريات المشحونة؛ للتنقل الفردي في الأعماق.

سكت أسعد، فلم يكن من أمجد إلا أن قال مُضيفا شيئا جديدا، وهو ضروري لاستكمال دور الغواصة وهي تغطس بهم:

- سيكون لهذه الغواصة رحم كالكائنات الولودة، أو جِراب كالذي لأنثى (الكنغر).

اِتجهت إليه أنظار الجميع مبتسمين، وحيارى في نفس الوقت من كلامه.

فكانت السائلة له هي ريم؛ قالت:

- ما حاجة الغواصة إلى رحم؛ فدور شكل هذا الأخير الطبيعي هو احتضان عملية التخصيب؛ ونمو الجنين، ثم أخيرا وضع المولود؟

أجاب خافضا رأسه، وبهدوء، فقال:

- سنبني غواصة برمائية كهربائية صغيرة تتسع لأكثر من شخصين؛ ستظل في رحم أو جراب الغواصة الأم رهن إشارة أعضاء الطاقم؛ يتنقلون بها في محيط وعر البيئة؛ من ناحية تداخل الصخور، والأعشاب البحرية، أو وجود كهف لضيقه لا يمكن للغواصة الأم أن تدخله، وفي توجهها بهم في البر؛ تفرز هواء نفاثا يرفعها عنه بعشرات من السنتيمترات؛ أو تسير على أربع عجلات، سيُصمم لها حوض -وهو الذي استقيت له اسم رحم الكائنات الولودة، أو جراب (الكنغر) الأسترالي- داخل الغواصة تطفو فيه وتغوص منه، ويُمكِّن بنفس الوظيفة أفراد الطاقم من الغطس؛ خارجين من الغواصة، والعودة إليها بدون مخاطر.

صمت وقتا، ثم تابع كلامه آتيا بجديد آخر:

– إن تلوّي الغواصة بتلك المجسات الجانبية يحتاج إلى محركي دفع يرُكبان في الأمام؛ يُؤديان في نفس الوقت دور دفة الانعراج؛ وهما يُشبهان في وظيفتهما بزعنفتين توجدان في الأنقليس قريبا من خيشومه؛ إضافة إلى محرك المؤخرة؛ وظيفته فقط سياقتها من الخلف.

تحفزت عينا رائد فجأة، وتحرك في وضع جلوسه، وقد انتبه إليه زملاؤه؛ كان المخاطب له هو أسعد شجعه على النطق؛ قائلا:

– إني أعرفك بموسوعيته يا رائد، فتكلم؛ لا نرى أننا سنُقلل من أهمية ودور ما تأتي به من جديد.

قال رائد بتحمس:

– لا بد أن تُزود الغواصة بجهاز كشف المعادن من بعيد.

قال أمجد مبينا الدور الفعال لهذا الجهاز:

– إنه سيكشف عن أي شيء معدني غارق في الأعماق؛ سواء كان ذهبا، أو نحاسا، أو برونزا، أو حديدا.

قال بسام بسرور:

– إنه سسيكشف لنا عن أشياء كثيرة؛ قد تكون بشكل غير متصور، وغريبة، ووراءها حكايات واقعية.

قال أسعد بثقة:

– هو كذلك، إذن فليكون من ضمن ما سيُتناول بالدراسة.

لم يبق لأعضاء الفريق ما يتصورونه، أو يتخيلونه علميا؛ فوجهوا أنظارهم، وأسماعهم إلى أسعد؛ الذي أدرك بأنهم

استنفدوا ما عندهم، وما يطرأ عليهم من أفكار، فتابع كلامه السابق قائلا:

– ماذا يتطلب هذا جميعه؟ إنه دراسة فيها حصر للأشياء، والتعمق في معرفتها؛ وتحويلها إلى عنصر يدخل في تركيب الغواصة؛ لنوزعها في ملفات؛ كل ملف يُعالج تخصصا ويُنفذ ما يتمخض عنه؛ فهناك الملف الخاص برصيف الغواصة؛ هذا يتكلف به رائد، وملف الطاقة الشمسية والأجهزة والآلات الإلكترونية، وجهاز كشف المعادن؛ سيقوم بالنظر فيه بسام، وملف بناء هيكل الغواصة سيتصدى له أمجد، وملف دراسة المفاصل انطلاقا من الطبيعة، وهذه إحدى أصداف الكائنات البحرية؛ التي بمجرد ما تفنى أعضاءه الحية، فإن في بقايا قشور أجزاء تظل تتمفصل آليا وهو السرطان؛ وهذا لا يدخل إلا في اختصاص رهف، وتصميم حجرات الغواصة، وتحديد الأغراض منها، فهذا سيكون من اهتمام ريم؛ وأمر آخر مُطالب بها، وإني سأتوجه به إليها؛ وهو اطلاعها على طب الغوص والأعماق، وستُنظم لها فترة تكوين في هذا المجال؛ في إحدى مراكز التكوين بإحدى البلدان التي قطعت مراحل في هذا الطب، وتقدمت فيه، واكتسبت تجارب في ذلك؛ لأنها هي التي ستكون طبيبة رحلاتنا المؤهلة؛ سواء في البر، أو على سطح الماء، أو في الأعماق، وأنا سأتفرغ لملف محركات الدفع، وسيُدوِّن كل واحد منكم ما استنتجه من دراسته، وما تصوره عنصرا يدخل في صناعة الغواصة؛

سنحدد مدة إغناء تلك الملفات ستة أشهر؛ نجتمع بعدها لعرضها على بعضنا البعض؛ ثم نُدمجها في ملف تقاني واحد.

بعد تلك المدة انعقد ذلك الاجتماع، وقاموا فيه بتنقيح كل ما صاغه أفراد الفريق من كتابة، وما خطوه من رسومات وتصاميم للأجهزة والآلات، وتصميم رصيف النفق؛ فنجحوا في الأخير في إنجاز لوحة هيكل الغواصة العامة، ولوحة نفق الرسو؛ بأبعاد تفصيلية دقيقة، وعَدّوا أوراق التوثيق فكانت بعشرات منها؛ كَون مجموعها ملف تقانة غواصة (أنقليس 1)؛ وعُرض على أنظار لجنة من المصلحة العمومية المفوض لها البث في مثل هذه المشاريع؛ تتكون من ثلاثة أعضاء خبراء، ومؤدين اليمين على عدم الكشف عن المعلومات، فبثت فيه في اجتماع سري للغاية؛ بالموافقة عليه، وعُين مكان من شاطئ صخري من شطآن المحيط الأطلنتي، لحفر نفق رصيف رسو الغواصة.

تعاقد أفراد الفريق مع شركة مختصة في حفر القنوات، وأخرى مختصة في بوابات أحواض الطفو الفولاذية، وأخرى في تركيب مصاعد إلكترونية؛ لتُنجز كل واحدة بما يمهد الرصيف لجمع أجزاء الغواصة فيه، ولغطسها بعد اكتمالها في أول خروج لها إلى أعماق المحيط، فكانت أن شُكلت صفائح الغواصة متفردة، وصُنعت أجزاء لوحات الطاقة الشمسية، ومحركات الدفع، في معامل متفرقة، متباعدة فيما بينها في المسافة، ولم يدر الذين عملوا فيها بأيد مُكونة، وماهرة، لأي غرض هي.

وفي صباح باكر من أحد أيام فصل الصيف؛ غاص بها أفراد طاقمها الستة؛ مُختبرين كل ما أهلوها بها من محركات، وأجهزة اتصال، وتوليد الأكسجين، وآلات، وأداة استكشاف المعادن، وتروس التمفصل، والغواصة الإلكترونية البرمائية الصغيرة، ومضوا بها في طول مياه المحيط الأطلنتي، وطول مياه البحر الأبيض المتوسط، فأثبتت نجاحَهم في بنائها تحت خطي المدارين.

الفصل الثاني
المسالك البحرية

كان في موافقة رائد -تحمس- على تهيء عرض في جغرافية اليابسة، والمسطحات المائية، وفي تاريخ نشاط الإنسان في هذه الأخيرة، وإلقائه على زملائه؛ بهدف سيعرفه أفراد طاقم غواصة (أنقليس 1)؛ من خلال معلومات الفقرات المبحوث فيها، ويزيد أسعد على ذلك فيُبيّنه لهم، وكان المكان دائما هو الحجرة المخصصة لمثل ذلك من بيت أسعد، فهذا هو المكان، وهذا موعد قد حُدد، وهو دائما بعد التاسعة ليلا؛ وكان من إحدى المساءات العاصفة، ورائد سيرحل بهم في أمواج البحار والمحيطات الجلِبة، والتيارات المندلقة؛ المبتعدة بكل ما يطفو على مائها إلى مئات من الأميال البحرية.

جلس الجميع إلى الطاولة الطويلة؛ فكان المتكلم هو أسعد؛ قال:

- سيُلقي رائد علينا عرضا يتناول موضوعُه جغرافية القارات والجزر، والأنهار، والبحيرات، والمضايق، والخلجان، والبحار، والمحيطات، والتيارات المائية، وتاريخ الطرق البحرية، والمعارك البحرية، فليقُم إليه؛ دعواتنا له بالتوفيق فيه، وتشكراتنا له على ما اجتهد فيه، وسنرى فيما بعد ما الغرض مما يُسمِعه لنا.

اِتجه رائد إلى سبورة كبيرة مثبتة على الحائط؛ علق عليها خريطة للعالم ورقية؛ تُظهِر ما فُصِّل عليها من معلومات

للعيون بوضوح؛ مُمسكة يداه بعصا ذات مؤشر، وشرع في تبيان ما يتكلم عنه على الخريطة؛ جاذبا انتباه المتابعين إليه برأس العصا المعدنية؛ قائلا:

– ما ترون هو أن ما يوزع على الورق ينقسم إلى شيئين؛ يابسة، ومسطح مائي، فهي خريطة لهذين؛ اليابسة هي قارات، وجزر، وأشباه الجزر؛ عدد الأولى خمسة، وهي القارة الإفريقية، والقارة الأوروبية، والقارة الآسيوية، والقارة الأمريكية، وقارة أستراليا، والجزر يابسة يحيط بها الماء من كل جانب؛ كجزر (الكناري)، وجزيرة (مدغشقر)، وجزيرة (ماديرا)، وجزر (الرأس الأخضر)، وجزيرة (هيلين)، وجزيرة (سردينيا)، وجزيرة (شيسيل)، وغيرها، وأشباه الجزر هي يابسة يحيط بها الماء من جانبين، أو من ثلاثة جوانب؛ تتصل بإحدى القارات الخمس، كشبه الجزيرة الهندية، وشبه الجزيرة الأيبيرية، وشبه الجزيرة العربية، وغيرها من هذه. والمسطح المائي هو بحار محيطة بالقارات؛ نسميها بالمحيطات وهي خمسة: المحيط الأطلنتي، والمحيط الهادئ، والمحيط الهندي، والمحيط المتجمد الشمالي، والمحيط المتجمد الجنوبي، والبحار قد تكون مفتوحة، أو داخلية مغلقة؛ من المفتوحة على المحيطات: البحر الأبيض المتوسط، والبحر (الأدرياتيكي)، وبحر (إيجة)، وبحر (البليار)، وبحر(كريت)، ولها أمثلة أخرى، والبحار الداخلية تكون داخل القارات؛ كالبحر (الميت)، والبحر (الأسود)، وبحر (قزوين)، وما يزال القليل منها، والبحيرات أيضا تكون في داخل اليابسة؛ كبحيرة (فيكتوريا)،

وبحيرة (تيتيكاكا)، وبحيرة (ألبرت)، وبحيرة (ميتشيگان)، وبحيرة (الدب العظيم)، وهي غير محصورة في هذه، والأنهار مجاري مائية لها منابع، ومصبات؛ تكون منابعها من داخل القارة، ومصباتها في البحار أو المحيطات، وهناك منها ما تكون مصاباتها في داخل القارة، والذي يهمنا منه هو تلك التي تكون مواتية للملاحة فيها، نذكر منها نهر (الأمازون)، ونهر (سبو)، ونهر (النيل)، ونهر (السين)، ونهري (دجلة و(الفرات)، والخلجان هي مياه متوغلة في اليابسة، كالخليج العربي، وخليج (عدن)، وخليج (ألاسكا)، وخليج (العقبة)، وخليج (جنوة)، وخليج (الأسد)، وكثير من الخلجان موجود، والمضايق مجاري مائية بين يابستين؛ أغلبها يفصل بين بعض القارات الخمس، كمضيق (جبل طارق)، ومضيق (ماجلان)، ومضيق (بيرينغ)، وباب (المندب)، ومضيق (صقلية)، ومضيق (الدردنيل)، وغيرها، وهناك قنوات اصطناعية، أي من حَفْر الإنسان؛ وهي ممرات مائية تصل بين محيطين أو بين بحرين؛ كقناة (السويس)، التي تصل بين البحر الأبيض المتوسط، والبحر الأحمر، وقناة (باناما)؛ التي تصل ما بين المحيط الأطلنتي والمحيط الهادئ، وقناة (كيل) التي تربط بين بحر البلطيق وبحر الشمال. نصل إلى التيارات المائية؛ وهي حركة الماء على سطوح المحيطات؛ تحدث بفعل قوة الرياح؛ تنقل المياه الباردة إلى المناطق الدافئة، أو المياه الدافئة إلى المناطق الباردة، ويكون لها تأثير على طقوس تلك المناطق؛ هي لها اتجاهان حسب دوران عقارب الساعة؛ في النصف

الشمالي من الأرض؛ تندفع التيارات المائية حسب عقارب الساعة؛ فهي مثلا في شرق المحيط الأطلنتي تتجه من الشمال إلى الجنوب، وفي غربه من الجنوب إلى الشمال، وفي النصف الجنوبي من الكرة الأرضية؛ تكون ضد عقارب الساعة، ففي الشرق من الأطلنتي تتجه من الجنوب إلى الشمال، وفي الغرب منه تتجه من الشمال إلى الجنوب؛ تُغير اتجاهاتها عند خط الاستواء؛ أُعتُمد عليها في رسم الطرق البحرية؛ تكون فيها سلامة الملاحة، وتقليل في مدة رحلات السفن. نعرض على الخط الزمني -بعد هذا التوزيع الجغرافي لليابسات، وللمسطحات المائية- نشاط الإنسان التجاري والعسكري؛ وسفر الأفراد والجماعات البشرية؛ على تلك المسطحات أو في أعماقها؛ بواسطة القوارب، والمراكب، والسفن؛ والغواصات؛ سواء بالطاقة البشرية؛ باستعمال المجاذيف، أو بالطاقة الريحية؛ باستخدام الأشرعة؛ المثلثة، والمربعة الشكل، أو بالطاقة البخارية، أو بطاقة الوقود السائل، أو بالطاقة الشمسية؛ أو بالطاقة الذرية؛ مع تحديد طرق، ومجالات تحرك الإنسان البحرية؛ على مر تاريخ حياة البشرية على الأرض؛ تَنقَّل الإنسان على الماء بأشكال تطفو، من الخشب، والحديد، والألمنيوم، وقد ساد إبحار بعض الأقوام في أنهار، وبحيرات، وبحار، ومحيطات؛ في عصر من العصور؛ كالفنيقيين، والقرطاجيين بمراكب كانوا يُساحلون بها في حوض البحر الأبيض المتوسط، والإغريق والرومان؛ في العصر القديم، وكالمسلمين بمراكبهم (الدّاو) في المحيط الهندي، وفي

البحر المتوسط في العصر الوسط، وكالأيبيريين في المحيط الأطلنتي، والمحيط الهندي، والمحيط الهادئ في العصر الحديث، ومن جاء من بعدهم كالهولانديين، والفرنسيين، والإنجليز؛ في المحيطات الثلاثة التي ذكرتها من قبل؛ في القرن السادس عشر، والسابع عشر، والثامن عشر، والتاسع عشر، وفي المحيطين المتجمدين الشمالي والجنوبي؛ ابتداء من القرن العشرين، والكثير من هذه الرحلات البحرية دُوِّن؛ سواء من طرف شعوب العصر القديم، أو من طرف الربابنة المسلمين في العصر الوسيط، أو من طرف ربابنة مسيحيي غرب أوروبا في العصر الحديث، أو من طرف قباطنة السفن في العصر المعاصر، وبهذا النشاط البحري الكثيف تطورت وسائل الملاحة البحرية لا في شكل بناء السفن، ولا في أدوات الإبحار كالبوصلة، وآلة الربع، وآلة السدس، ولا في رسم خرائط المسالك البحرية، ولا مِسبار قياس عمق الماء، ولا في الساعة البحرية لحساب خط الطول، ولا في الأجهزة الحديثة كجهاز تحديد المواقع العالمي، ونظام التوجيه الآلي، ونظام المعلومات البحرية، وجهاز قياس العمق بالموجات الفوق الصوتية، وإذا أردنا الحديث في المعارك البحرية؛ فهي كذلك مُدونة أحداثها، والأماكن البحرية التي وقعت فيها، وأعطيت لها أسماء، أقدم ما أُرخ منها يعود إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد. نذكر على سبيل المثال المعارك البحرية الطاحنة التي كانت تجري بين الإمبراطوريات البحرية الاستعمارية، في العصرين الحديث والمعاصر؛ كإسبانيا، والبرتغال، وهولاندا،

وفرنسا، وبريطانيا، وغيرها، ونورد هنا مثلا أسماء البعض منها؛ التي تطاحنت فيها سفن فرنسا وبريطانيا الحربية، كمعركة خليج (بانتري)، ومعركة (سانتا مارتا)، ومعركة (مالاكا)، ومعركة (سانت هيلين)، ومعركة (كاب ليزارد)، ومعركة (أبو قير)؛ سنستزيد من معلومات حول المعارك البحرية التي وقعت خلال عصور الإنسان في حينه، عندما نكون في حاجة ماسة إلى ذلك. السؤال الذي نطرحه في الأخير هو: فيما ستنفعنا نحن أعضاء طاقم غواصة (أنلقليس 1) جغرافية القارة، والمساحات المائية، وهيمنة الإنسان على هذه الأخيرة للسفر، وللتجارة، وللحرب فيما بين جماعاته؛ بسفن مبنية بشكل يؤهلها للنصر على بعضها البعض؟

يكون رائد قد انتهى من عرضه، فعاد إلى مكانه من الطاولة، وكان المتكلم بعد ذلك هو أسعد طبعا؛ قال:

– قد بادر زميلكم رائد إلى طرح السؤال الوجيه بعد عرضه، فيكون قد ناب عني؛ فما هي أجوبتكم عليه، والتي ستكون تحدد في نفس الوقت؛ النتيجة التي سنجنيها من توظيف هذه المعلومات؛ في أهداف الرحلات التي سنقوم بها في المساحات المائية.

قال بسام، وكان مُتتبعا للعرض بانتباه شديد:

– كوّن لنا العرضُ صورة شاملة لجغرافية المسطحات المائية؛ وعَرّفنا بأشكالها الطبغرافية، فهي أنهار وبحيرات وخُلجان، وبحار ومحيطات؛ فإذا غُصنا في إحدى رحلاتنا في أعماق

إحداها؛ لا بد أن نكون على معرفة في أي منها، وفي هذا نجاح نرجوه.

قالت ريم، وهي تُعيد إلى ذهنها صورة التيارات البحرية:

– التيارات البحرية هي حركة للمياه لا بد من معرفة مواقعها على الخريطة، لنعرف هل غواصتنا تطفو مع التيار، أو تجاهد عومها ضده.

نطق أمجد بفكرة؛ في تطبيقها تحد؛ قال:

– لقد أمدّنا رائد ضِمنا بلائحة بأسماء هذه المسطحات، ولم تُبنى غواصة (أنقليس 1)؛ إلا لتذهب في مهمتها إلى النهاية، وهي العوم أو الغطس في جميعها؛ في أعماق الأنهار، والخلجان، والبحار، والمحيطات، لاستكشاف أشياء كثيرة ربما لأول مرة في تاريخ الاستكشافات العلمية؛ إذن لنُهيء هذه اللائحة بالأسماء، والمواقع، والأنشطة التجارية والعسكرية؛ التي مُورست في كل مسطح مائي على حدة؛ عبر التاريخ، واللقايا التي يمكن أن نعثر عليها، التي بقيت وراءها، أو بصياغة أخرى ترسبت عنها في القيعان.

قالت رهف واعية بمسؤوليتها المنبثقة عن دراستها لعلوم الحياة والأرض:

– هذه المساحات المائية لها ضفاف في الأنهار، وشواطئ في الخلجان، والبحار، والمحيطات؛ تُقربنا إليها الغواصة في أي يوم، أو وقت أردنا، وتمكننا الغواصة الجنين البرمائية؛ من النزول إليها، ونتوغل في سواحلها بأقدامنا، لتوثيق الكائنات

البرية؛ التي تتكيف في حياتها مع بيئاتها، من نباتات، وحشرات، وطيور، وحيوانات.

قال رائد المتحمس دائما إلى العمل:

- نُنشئ قاعدة معطيات بالمراكب والسفن التجارية، والحربية؛ التي غرقت، وبالمواقع التي ترسبت فيها؛ بتحديد هذه حسب خطوط الطول والعرض، ودراسة ما المحتمل من العثور عليه فيها؛ انطلاقا من العصر الذي كانت تُبحر فيه؛ بهدف التجارة، أو السفر، أو الحرب.

قال بسام، وهو ما يزال يتعمق تفكيرا؛ فيما سمعه في العرض:

- ونستخلص أيضا في غوصنا أسباب سلوك هذه السفينة، أو هذه الغواصة هذا الطريق، أو هذا الاتجاه؛ دون آخر، ونرى ما إذا أقام الإنسان في الأعماق؛ مُؤهلا لذلك بتوليد الأكسين لفترة طويلة؛ تُبقي الكائن البري حيا، وذلك لتحد من الإنسان، أو لأفعال سرية، أو للاستخبار، أو أكثر من هذا؛ هل في بطن غواصة مثلا كمية من أجسام آلية؛ تُلفظ منه؛ تنتشر كجيش جرار؛ غائصة تلك الأجسام، وعائمة على السطح؛ هاجمة على البر لتصوير ما عُمِّرت به البلدان؛ وتسجيلِ ما يدور بين أفرادها من حديث.

قالت رهف انطلاق مما تفوه به بسام:

- هل هذا لا يتعدى خيالك العلمي، أم هو محتمل أن يوجد في الواقع:

قال أسعد، وهو المطلع على ما تُخبئه قيعان البحار والمحيطات:

– هناك منه في الواقع، سننتظر ما ستكشفه لنا الأيام.

قالت ريم راسمة خطة دراسة:

– إن رحلاتنا في جميع المسطحات المائية؛ كذلك تجارب ميدانية؛ نستخلص منها أثر بيئة أعماقها علينا؛ فنكون في ذلك عينةً بشرية تُضيء لنا جوانب كثيرة من حياة الإنسان بعامة؛ في علاقته مع البحر.

قال رائد مُكونا صورة عامة:

– إن ما ستقدمه لنا رحلتُنا سواء على سطح الماء أو في عمقه، وفي جميع تلك الجهات من الكرة الأرضية المملوءة بالماء، هو غنى في المعلومات؛ ومستوى فكري عال، وهو نظرية عامة نُصيغها للقاعدة الكونية، بعد طرح أسئلة مثل: هل في اتساع هذه المسطحات العنصر الوحيد في بقاء الإنسان على وجه البسيطة؟ فالرياح هواء متحرك؛ تكتسب خواص السطوح التي تمر فوقها؛ فتزداد حرارتها أو تنخفض، وتنشأ كتلٌ هوائية؛ تجلب في تحركها الماءَ والخصبَ إلى مناطق، أو الجذبَ والقحطَ إلى مناطق أخرى.

قال أمجد غارسا المزيد من الفضول العلمي في قلوب زملائه:

– لقد وجدنا أنفسنا في خضم طبيعة الكرة الأرضية؛ لا نخرج منها إلا وأذهاننا مليئة بأسئلة كثيرة؛ الإجابة عنها بناء النظرية العامة.

طاف صمت على الجميع؛ مُكمما الأفواه، وقد امتد بهم وقت طويل من الليل؛ فتسرب الإرهاق إلى العقول، وزحف التعب على الأجساد؛ لاحظ ذلك فيهم جميعا -بدون استثناء- أسعد، فقال مُستنتجا في الأخير:

- كل ما غرق في قيعان الأنهار، والبحيرات، والخُلجان، والبحار، والمحيطات؛ يظل مخفيا عن الأنظار؛ بعيدا عن أغلب الأيدي؛ تُواريه الرمال، أو يُخبئه الطمي، أو تُغشّيه العوالق؛ كالطحالب والقشريات، أو تستره أجمات من الأعشاب البحرية؛ فذلك مما بناه الإنسان، وما صنعه، فكم هي حكايات واقعية منه، وكم هم رجال ونساء كانت نهايتهم في ظلمات الأعماق؟ فقد كان للرجال نقد معدني ذو قيمة مالية يُعتنى بها، أو سلاح من نصل مشحوذ، أو من مسدس مُلقم، أو من بندقية مملوءة بارودا، وقد كان للنساء عقد من لؤلؤ، أو ذهب، أو ماس، أو خاتم بفص من زمرد أخضر أو أحمر؛ ولا يستحيل العثور عليه، فقد تسنح الفرصة لغواص هاو، أو لفريق من الغطاسين مُنظِّم لرحلة غوص مُتسلح لها بالعُدة؛ في أن تنبش أيديهم رمال، وأعشاب، وعوالق القيعان؛ عن البعض من ذلك؛ هل ستسنح لنا وبغوصتنا المتطورة مثل هذه الفرصة؟ الجواب هو أن التنظيم المحكم لكل رحلة في الأعماق، وانطلاقا من تحديد الأماكن منها؛ محتمل غرق شيء ما فيها؛ يقطعان بأنه قد يُتاح لنا.

وانفض الجميع؛ بعد الاتفاق على اجتماع آخر؛ ستُحدد فيه وجهة أول رحلة بالغواصة، ويُعينون لهم اليوم، والوقت اللذين سينطلقون فيهما.

الفصل الثالث

الكائن البحري المنقرض

نزلوا بالمصعد إلى الرصيف حيث الغواصة راسية؛ دخلوا إلى هيكلها، ثم تفرقوا في أرجائه؛ كل واحد منهم قصد إلى الجهاز، أو الأداة، أو الآلة؛ الموكول الإشراف عليها، لم يتطلب من أمجد غير تحديد الإحداثيات بلمسات على شاشة حاسوب؛ المطلوب من الغواصة التوجه إلى نقطتها؛ فغاصت في ماء النفق؛ مغادرة الرصيف؛ تعمل المجسات الجانبية؛ فيتمفصل الهيكل بنعومة ميكانيكية؛ تتلوى ك(الأنقليس) الطبيعي، وبانسيابية غير مُتلكأ فيها؛ حتى احتضنها ماء المحيط؛ وارتسم على الشاشة المحيط الأطلنتي بأبعاده الثلاثية؛ برصيفه القاري، وبشواطئه الرملية والصخرية، وبصخور قيعانه، وبنباتاته البحرية؛ لدور العدسات الخاصة العاكسة للصورة بغير عيب، وهم جميعا في اطمئنان تام بأن غواصتهم تُراوغ ذاتيا ما يَعترض سيرها، فكأنهم محمولون على ظهر طائر عملاق؛ يُرفرف في الفضاء؛ دافعا بجسمه فيه؛ بلُيونة، ولا جسم يُزعزعه في تقدمه.

كان رائد يعود من حين لآخر إلى شاشة تُظهر خريطة بأحوال الطقس تنبُّئية؛ مُعالِجة معلوماتيا معطيات رقمية؛ تُسجلها برصدها لعناصر الطقس، كالحرارة، والرطوبة، وسرعة الرياح، واقتناص الكتل الهوائية المتحركة، ودرجة التشميس، والندى؛ ليُشعر أفراد الطاقم بما ستكون عليه تغيرات الطقس خلال أربعة وعشرين ساعة، وأكثر، كما تمدهم تلك الخريطة

الإلكترونية العامة بالطقوس التي تكون في سواحل عدة، كان لا يُسمع ما يشبه هدير أو ضجيج، صادرا مثلا من محركات الدفع، أو من تروس المفاصل، كان كل هذا متناغمة عناصره إلى أبعد الحدود؛ لمكونات المادة المعدنية، أو غيرها؛ التي صُنعت منها، ولتقنية دمج قطع الغيار في نظام حركة لا يُصاب بخلل، أو يحدثُ تلف في أجزائه، كانت في آذانهم حاسة؛ تتآلف مع سكون حضن الغواصة، وفيها وحدها استشعار لما هو غير اعتيادي في محيطهم المائي، كانوا يقظين في جميع الأحوال، وإن أكسبتهم أجهزة الاستكشاف الذاتية كامل الثقة، وقد صَوّتَ جهاز اكتشاف المعادن؛ في أحد الأوقات؛ واستمر رنينُه يطنّ في آذانهم؛ فهُرِعوا إلى الشاشة المركزية، ليروا ما نقله إليها الجهاز الناقل للأجسام ببعدها الثلاثي، ولتُصوّره الكاميرات الجانبية، وتطبعه على الشاشة بحجمه الحقيقي، فكان ما شاهدته عيونهم كائن بحري طويل، له زعانف كثيرة في جانبيه؛ ماض في تحريكهما بسرعة في الماء، فقال أسعد لباسم؛ مُنبثة عيناه في الشاشة:

– كبِّر السلم الإلكتروني حتى يظهر لنا هذا الكائن بحجم كبير.

لم يتطلب من بسام إلا نقرات بجلد أُصْبُعِه، ليهجم جسد الكائن على أبعاد الشاشة فيملأها، عندئذ نطق أسعد قائلا:

– إنه الكائن البحري المنقرض (التريلوبيت)، هل هذا من فصيلته؛ أو شبيه به؛ كان في الأعماق غير مكتشف.

قالت ريم تسأل بحيرة بالغة:

- هل نرى (تريلوبيتا) يظهر في عصرنا الجيولوجي الحالي؟ هل تكوَّن من خلية حية نائمة منذ مئات الملايين من السنين، أو هو نتيجة تمازج في مادتين حيتين موجودتين في الطبيعة؟

قالت رهف مُتذكرة الصوت الذي رن في آذانهم مُعلنا وجوده:

- إنه معادن، وأسلاك موصلة للطاقة، وحقل مغناطيسي؛ يخول له نظام حركة.

قال أمجد حتى لا يختفي عنهم التريلوبيت المتحرك.

- شغِّل يا رائد جهاز الغواصة التعقبي؛ حتى يبقى هذا الجسم المنقرضة هيئته في دائرة غوصنا.

كان التريلوبيت الغائص ينطلق بسرعة بزعانفه الكثيرة العدد؛ يتتالى تحركها في جزء من الثانية، بحيث كل زعنفة تنوب عن أخرى في أقل من ذلك الوقت، ولا تظهر حوافها إلا عند انعطافه إلى الشمال أو إلى اليمين؛ بحيث تتعطل التي ينعطف في اتجاهها، في تغليب لحركات الزعاف التي في الجانب الآخر، وكادت عيونهم أن تفقده، وكان من الصعوبة من أن تسير الغواصة وراءه، فرأى أمجد ما يُبطئه، فصاح قائلا؛ مُتكلما بأمر إلى رهف:

- التفريغ الكهربائي ضعيف الجهد، حتى لا يُدمّر الكائن بالكامل، فقط لشل حقوله المغناطيسية.

كانت رهف مستجيبة لأمجد، فعبأت بسرعة نظام التفريغ الكهربائي بوحدات من (القولت) ضعيفة القوة، فشاهدوا ما

اندهشوا له، فقد اضطرب الكائن المنقرض في خط سيره، ثم سريعا ما عاد إلى حركته الاعتيادية، حينئذ أمر أسعد بساما قائلا:

- تحرك بالقاطرة الكهربائية في اتجاه هذا الجسم، حاملا معك الدافعة الإلكترونية، وحاول الاقتراب منه؛ تاركا إياها تنطبق به، فنوجه اتجاهه بها إلينا عن بعد؛ مع تقليل سرعة اندفاعه.

ما إن دنا بسام بمتر تقريبا من التريلوبيت المسافر في العمق، حتى نفث سحابة سوداء تمددت في وحدات من الأمتار؛ اختفى بها إلى حد لم تره عيون أفراد الطاقم؛ ولا إلى أي جهة تابع سيره، وشاهدوا ما انفعلت له نفوسهم وهو أن بسام تعرض إلى إغماء؛ فارتخى رأسه، وتدلت من جسده أطرافه، لم تعد له قدرة التحكم في غوصه، فبدأ جسده ينزل؛ فصاح أمجد مُستحثا رائد وريم في نجدة بسام، فغاصا في اتجاهه، وسحباه من الماء إلى غرفة العلاجات والتطبيب، مدداه على سرير الفحص، وشرعت ريم في الكشف عن السبب، فرأت أن مادة كيماوية تُفقِد الوعي؛ تسربت إلى دماغه، فأُغمي عليه، فتصدت لها بمحاليل مضادة؛ نشّقت بعضها لبسام، وأخرى جرعتها له، فتعافى؛ قالت:

- إنه سلاح كيماوي مُزوَّد به التريلوبيت، لإبعاد أي كائن حي عنه بالإغماء.

أمر أسعد رهف قائلا:

- زِيدي في درجة التفريغ الكهربائي لشل حركة التريلوبيت بشكل تام.

وقد قامت رهف بما أُمرت به، فرأوا كيف توقف الكائن البحري المنقرض عن الحركة، وبدأ يصعد كالميت ليطفو على السطح، فخرج إليه رائد، وساقه بدفعات قوية من يديه؛ إلى حجرة الدخول المرحلي إلى الغواصة، فتعاون معه أمجد في وضعه على طاولة الفحص، ثم تحلق الجميع حوله.

قال أمجد بنبرة عتابية حادة:

- لم تأخذوا في حسبانهم شيء خطر... خطر جدا... كان سيكون فيه محوُنا من الوجود.

وهم في قمة اهتمامهم -الذي فيه فزع- بما هو أمامهم يتطلب منهم العمل الكثير؛ زاد توتر أجسامهم، واتجهت جميع عيونهم خائفة إلى أمجد، وإن لم يسألوه عما هو ذلك الشيء؛ فسارع إلى القول:

- ألا يكون في جسم هذا المتحرك آليا قنبلة بعداد تنازلي؟

سكت لحظة وتدارك انهيارهم النفسي؛ فقال:

- أبشروا فإن من أدوار التفريغ الكهربائي؛ قطع مُوصلات الطاقة في أي جسم بحركات ذاتية، وشل الجهاز العصبي لكائن حي، وإحداث انقباض في عَصَبه، استمروا في فحص هذا التريلوبيت.

ما لاحظوه هو أن التريلوبيت يستعيد نبضات طاقته، ولكن بشكل بطيء، فأمر أسعد رائد وبسام في تفكيك نظام تزوده بالطاقة، فقاما بتنفيذ ذلك، فسكن كل جزء منه، وسارعوا

إلى الكشف عن عقله الإلكتروني؛ قال بسام متوصلا إلى ما هو أساسي في جسم التريلوبيت، وما يهمهم منه:

– إن فيه قطعة بتسجيل رحلة غوصه، فإذا استطاعت أجهزتنا قراءتها، فسنعرف نقطة انطلاقه، والنقطة التي كان يتجه إليها.

فك رائد القطعة من الجسم، وعرّضها إلى القارئ الإلكتروني؛ ما بين لهم هذا الأخير هو صورة ببُعدين، فيها نقطة الانطلاق وهي غواصة رابضة بعمق قليل الأمتار؛ غير بعيد عن إحدى جزر أرخبيل (الرأس الأخضر)؛ المتوغلة إلى حد ما في المحيط الأطلنتي؛ إلى الغرب من ساحل إفريقا الغربي؛ بمسافة ألف كيلومتر، وبالضبط في خط عرض مصب نهر (السينغال) تقريبا؛ اسم هذه الجزيرة (سال)، ونقطة الوصول مكان ما من ساحل (المغرب)؛ إلا أن في خط رحلة التريلوبيت المتحرك مسافة قصيرة مبهمة؛ لتَشوُّش تعرض له، فلم يسجل فيها أي شيء؛ بعدها تسجيل واضح.

سأل أمجد بسام، وقد فكر في سبب ذلك؛ ولم يقطع في صحته بعد؛ قائلا:

– إلى كم يساوي طول سنتميتراتها على الشاشة في الواقع؟

أجاب بسام حاسبا سنتيمترات الشاشة بالأمتار:

– إنه طول الغواصة زائد مساحة محيطها بوحدات من الأمتار.

قال أمجد مُستخلصا السبب:

- لم يُصور التريلوبيت لا الغواصة، ولا محيطها من المياه، فقد أحبطه ما تخلقه الغواصة من تقوقع إلكتروني لها؛ لقد نجحت في ذلك.

قال رائد لاحظا شيئا ما في سير التريلوبيت:

- إن خط رحلته مُتكسر؛ يتخذ شكل مثلث بدون قاعدة.

سأله أسعد وقد فهم سر الخط المتكسر:

- أنت جغرافي، فما هي الأماكن التي تكسَّر فيها خط رحلته؟

أجاب رائد موضحا ذلك على خريطة العالم:

- انطلق من مياه جزيرة (سال) واتجه إلى جزيرة (بوا فيستا)، ومنها تنقل في جزر تحت سطح البحر؛ ذوات انحدارات حادة، وقمم؛ متوزعة من الجنوب إلى الشمال، ومن آخر هذه قصد جزيرة (لانزروت) إحدى جزر (الكناري)، ومنها إلى جزية (ماديرا)، ومن هذه -التي تحرك إليها إلا ليصرف عنه أجهزة قد ترصده- عرَّج على غواصتنا، وربما إذا لم نكتشفه فإنه سيتابع تحركه أبعد من الغواصة؛ إلى الشمال الغربي منها، حتى يُعاد، وقد وصل إلى نهاية قيامه بالمهمة.

ومضى بسام ورائد في فحص أجزاء التريلوبيت، ليستكشفا جهاز إرسال؛ قال رائد:

- لقد نقل هذا الجسم كل ما سجله في غطسه إلى الغواصة الأم.

سأل أسعد وبسام مهموما بأمر آخر خطر:

- هل ما تزال فيه بقية طاقة قد يُرسل بها انكفاءنا عليه، وما نتبادله من الحديث عنه؟

قال بسام، وقد عرف نظام تشغيل التريلوبيت جيدا:

- إنه يسترجع طاقته، وتُصبح له القدرة على إسال أي مما تلتقطه أجهزته، وما إن يعاد إلى الماء حتى ينطلق من جديد.

قال أمجد طالبا من الفاحصيْن؛ بسام، ورائد:

- استكشفا نظام رجوعه؛ سنتركه يرجع إلى أصحابه؛ دامِجين فيه جهازين، واحد يُرسل إشارات إلينا؛ نتعقبه بها في طريق عودته، وآخر فائدته بالنسبة لنا؛ هي ما إن تتلقفه أيدي أصحابه؛ حتى نُبطل أجهزته بالكامل، فلا يغدو إلا هيكلا مُفرغا من أي وظيفة، وهذا فيه بلورة وعي بمعركة الأجهزة والأجهزة المضادة؛ هي تجربة نخوضها في رحلتنا الأولى هذه.

أرجع رائد وبسام الأجهزة إلى التريلوبيت الإلكتروني، كان هو يسترجه أنفاس طاقته؛ إلى حد شَحْنٍ أُشبِع به، فما إن لمس جسمه الماء؛ حتى انخرطت زعانفه الكثيرة العدد في تجذيف في جزء من الثانية؛ فاختفى في غياهب المحيط، ولم تُظهِره إلا الشاشة، ثم بعد ذلك، لم يعد ما يُحدد موقعه؛ هو نقطة متحركة في دائرة تعقب؛ تكاد تشمل كامل المحيط الأطلنتي، وجزر جهته الشرقية؛ كانت الغواصة تتعقبه في سير مُلتو؛ فيه انعطافات سلسة، ومراوغات عجيبة بخفتها، وعلى مسافات جد قصيرة؛ للجماد والحي؛ إلى أن وصل إلى الغواصة التي أُرسِل منها؛ انجذب جسمه بجزء فيه ممغنط؛ إلى

دائرة ظاهرة على هيكلها؛ دارت على نفسها؛ مُخفية التريلوبيت إلى الداخل. انطبعت على الشاشة المركزية صورتان تقسِمانها؛ الأولى للغواصة بأبعادها الثلاثية؛ يتنقل في حجراتها عشرون فردا؛ والثانية للأيدي والأجساد الآدمية وهي تتحرك حاملة التريلوبيت إلى طاولة واسعة؛ وفي أقل من لحظة انفجرت أجهزته، وتشققت أجزاؤها، وتفتت، ولم يعد منه إلا هيكلا متداع كهيكل السرطان عندما تموت أعضاؤه الحية؛ يُعبر عن الفناء؛ كان أسعد قد رَقَم على حاسوبٍ عمليةً رياضية؛ كانت أعدادها، وحروفها قد نخرت في أجهزة التريلوبيت؛ خارجُها النهائي هو تلك النهاية الأخيرة التي لا لَمْلَمة للأشياء الفانية، فنظر أفراد فريق غواصة (أنقليس 1) إلى بعضهم البعض؛ بشعور نجاح في تحصين غواصتهم؛ من أي اقتحام لسرية نظامها، ومضوا في تحليل صورة الأبعاد الثلاثية المتحركة لغواصة التريلوبيت؛ فلاحظوا من خلال تجهيزاتها الميكانيكية والإلكترونية على أنها غواصة عسكرية، لا يريد طاقمها المبعوث به في مهمة تجسسية في الغالب؛ أن يفوتهم ما يجري في أعماق المحيط الأطلنتي، وبالخصوص في الشمال الغربي من القارة الإفريقية التي لا يفصلها عن القارة الأوروبية إلا مضيق (جبل طارق) بمسافة خمسة عشر كيلومترا.

قال أمجد، وقد توصل بتحليله لموقع رسو الغواصة في تلك الجزيرة، وللوقوف على مهمتها التجسسية:

- لقد التقطتنا أقمارهم التجسسية، ونحن نغطس بالغواصة في أول خروج اختباري لها في موازاة مع ساحل البحر الأبيض المتوسط الجنوبي، وفي موازاة مع ساحل إفريقيا الشمالي الغربي، وفي توغلنا إلى الجنوب من رأس (نواذيبو)؛ اِهتموا بالتجسس علينا للتعرف على الغواصة وهوية طاقهما؛ فبعثوا بالتريلوبيت جاسوسا علينا؛ دون أن يتكبدوا مشقة الاقتراب بغواصتهم من سواحل الشمال الغربي من إفريقيا، والذي يمكن أن تكون فيه تبعات عليهم، وكان في حقيقة الأمر انجازا باهرا في تكنولوجية الغوص في الأعماق، وهذا الذي رأيته في هذا التريلوبيت إضافة إلى معلوماتي في هذا المجال.

ولم يكد أن ينتهي من كلامه هذا؛ حتى رأو ما نقلته إليهم الشاشة، هو زحف مخيف لجيش من التريلوبيتات؛ كان بعيدا؛ يبدو كسحابة متحركة، ثم تبددت؛ لتبدو أجساما برؤوس مُتقدمة، صاح أسعد في أفراد الطاقم قائلا:

- إننا نُهاجَم بسرب من التريلوبيتات الإلكترونية؛ لا شك في أنها برؤوس متفجرة، التفريغ الكهربائي بڤولت عال.

وقد دمر التفريغ الكهربائي بتلك القوة جميع التريلوبيتات، ولم تمض عشر دقائق حتى شاهدوا أسرابا منها؛ تتالى في طريقها إلى الهجوم على هيكل الغواصة، فصاح مرة ثانية أسعد قائلا:

- التفريغ الكهربائي السريع التردد؛ اِضبط يا بسام مدة الترددات ما بين تفريغ وآخر في جزء من الثانية.

فكان التدمير النهائي لجيش التريلوبيتات، فرأوا الغواصة المُنجِبة لهذا العدد من شكل الكائن البحري المنقرض؛

تنسحب بعيدا عن مياه الجزيرة؛ إلى أين؟ لا يعلم أفراد جماعة الأستاذ أسعد، وظلت الأجهزة تُظهرها لهم على الشاشة في تنقلها في المحيط.

قال رائد مُنتظرا هجوما آخر من غواصة التريلوبيت:

– تراجعوا فقط ليُفكروا في وسائل هجومية أخرى؛ فإذا استنفدوا التريلوبيتات، أو تبين لهم بأنها ليست سلاحا ناجعا، فلا أداة حربية مُتاحة لهم إلا الصواريخ المدمرة.

قالت رهف بثقة يشعر بها الجميع:

– ليهجموا بأي سلاح؛ فقد أثبتت الغواصة قدرتَها على التصدي لأي نوع منه.

لم يتحركوا من مكان وقوفهم أمام الشاشة؛ مُشغِّلين جميع الأجهزة الملتقطة للأصوات، والأجسام؛ سواء كانت هذه الأخيرة جامدة أو حية، ومنتظرين من الغواصة دفع الخطر عنهم، وقد اختطفت عيونهم مجموعة من الصواريخ؛ تهجم مُغيِّرة من اتجاهاتها؛ إلى هيكل الغواصة، إلا أن التفريغ الكهربائي دمرها بكاملها، وظهر لهم بعد ذلك بوقت قليل؛ السلاحُ الفتاك الذي كان كل من أسعد وأمجد يخشون الهجوم عليهم به، وهو طوربيد ضخم، فالسؤال الذي كان مُهيمِنا عليهما منذ قليل هو: هل تستطيع الغواصة التغلب عليه؟ رأوه جميعا يتجه باندفاع مخيف، وبحجم؛ لو اصطدم به بالغواصة لن يُبقي منها صفيحة مُشكَّلة، وبرأس لو لم يردعه سلاح مضاد من الغواصة لنفذ منها، إلا أن هذا لم يقع، فقد اضطرب اختراقُه للماء، وترنح في أفقيته، ولُوِّح به بعيدا عن

الغواصة، فقد مس التفريغ الكهربائي الجزء الأضعف فيه، وهي مؤخرته المجنحة، فقد بَدّد الأجنحةَ الأربعة، واختل توازن غوصه في الماء.

شاهدوا الغواصة المهاجمة تنسحب بعيدا؛ غير مُهيمنة عليهم بأي سلاح؛ إلى الجهة الأخرى من مياه الجزيرة؛ صاعدة إلى سطح الماء، ومُتجهة إلى ميناء صغير؛ لترسو على رصيفها الوحيد، ويخرج منها قائدها بزيه العسكري، وبكتفياته، وبنياشينه؛ المنسوجة، والمطرزة بالحرير، ويُمسك بمنظار ذي العدستين المُكبرتين؛ يُقرب إلى عينيه مياه السطح؛ يرى ما إذا ستطفو عليها غواصة التفريغ الكهربائي، وهذا لم يحدث؛ فتساءل بينه وبين نفسه: «بأي طاقة تعمل هذه الغواصة التي تُفرِغ الكهرباء في محيطها بذاك الڤولت العالي المُبيد؟».

يعرف هو أن الثورة في الأشياء تُميز لحظة فارقة، وتُحدث تمفصلا في كرونولوجية التكنولوجيا، وللّذي حققها تفردٌ، وتفوقٌ، وتطورٌ بمنطلق، وفي اتجاه آخرين، فلم يقرر وهو في خضم حرب الأعماق كان البادي فيها هو؛ غير أن نادى على نائبه؛ آمرا إياه إلى الذهاب إلى بناية سرية فيما يُصنع فيها، هامسا في أذنه كلاما. عاد ذلك القبطان النائب برفقة بحار يدفع عربة بأربع عجلات؛ حُمِّلت بشيء مُغطى بغشاء بنسيج اصطناعي؛ وضعوه في زورق حربي يُرفرف عليه علم، ركباه هم الثلاثة مُتوغلين به في ماء المحيط، وما يزال الأفق وراءهم؛ وتحرك قائد الغواصة، مُمسكا بذلك الشيء؛ رافعا إياه

من قعر القارب، ووضعه على الماء؛ فتحرك ذلك المحمول غاطسا في الماء.

كان أفراد طاقم الغواصة المنتصرة؛ يُتابعون ما يقوم به القائد؛ المتقدم في رُتبه العسكرية، والحالم بالأميرالية، وذو أوسمة في جهة صدره الأيسر؛ المُقدر بها، فتتبعت عيونهم ذلك الشيء القادم إليهم، لم يكن غير تريلوبيت متحرك آخر، لكن ما يميز هذا هو لونه الأبيض، ولم يُكتب عليه رقم تسلسل تصنيعه، ولا الحروف المختزلة للبلد المُصنِّع، كانت عليه كلمة واحدة باللون الأزرق؛ باللغة الإنجليزية هي (Peace).

دار التريلوبيت على نفسه، وعاد إلى الباعثين به مندوبا للسلام.

لم يُبرمِج أعضاء جماعة الأستاذ أسعد أي كلمة إلكترونية مماثلة مفردة؛ يُبادلون بها هؤلاء، وإنما جملة هي: «علِّموا بنيكم المعنى الحقيقي لكلمة (السلام)».

ورُقنت إحداثيات في الشمال؛ حركت إليها الغواصة؛ صاعدة بظهرها إلى سطح الماء؛ المُتمازج لونه مع لون المحيط؛ مستقبلا لأشعة الشمس؛ مُعبئا البطاريات بالكهرباء.

الفصل الرابع
الخزف المسموم

أ الغواصة (أنقليس 1) نظام عام؛ يضم مجموعة من العناصر، وكل عنصر يؤدي مهمته، لتنتُج عن جميع المهمات حصيلة واحدة نهائية مَرجوة، وكان جهاز توثيق رحلاتها يتنوع بين تسجيل الصوت، والصورة؛ ويتحول ببرنامج معلوماتي إلى نصوص مكتوبة؛ لكنها آلية جامدة، تُعطي فقط معلومات تقريرية، لذلك وعى أسعد بمهمة أخرى عليه أن يقوم بها؛ كيف؟ لأنه قائد الغواصة، والمُوجِّه لأعضاء الرحلات؛ بناء على تجاربه السابقة، ورئيسَ الفريق العلمي، فما عليه أن يفعله؛ ما دام بتلك الصفة في إدارة العمل في الغواصة؟ إنه تدوين الرحلات، وهي مُوثقة آليا كما سبق ذكر هذا؛ فما ينقصها في ذلك؛ إنه وصف مشاعر الإنسان، الذي يُعطي للنص المكتوب الحياة، فهل تستطيع أن تنوب البرمجيات الإلكترونية عن الإنسان في إبداع ذلك؟ لهذا رغب هو أولا في التحرير بيَراعتِه، فكان في كل يوم يرقم العشرات من الصفحات بأحداث؛ بزمنها، وبمكانها، وبشخوصها، وبأسبابها، وبدوافعها النفسانية، وبما تركته من شعور، ومن تحول عاطفي، وعقلي، في الفاعل لها، والمفعول به فيها.

كانت إحدى الرحلات قد اجتمع عليها أفراد الطاقم لدافع رئيس، وهو الغوص إلى إحدى جزر المحيط الهندي؛ النائية عن القارتين؛ الآسيوية والأمريكية؛ فتكون بحسبهم أطول

مسافة ستقطعها غواصتُهم، وسيختبرون فيها تحملهم لها؛ لا من ناحية الصبر على الاستخدام اليومي لأجهزة الغواصة، ولا من ناحية قدرتهم الجسدية، ولا من ناحية عواطفهم، ولا من ناحية استعدادهم النفسي، ولا من ناحية ابتكار نظام غِذائي يوافقهم، ويدركون إلى أي حد سيكونون جماعة متحدة؛ متغلبة على أنانية الإنسان، أو يكونون مُتنافرين؛ تغلب على البعض منه المصلحة الشخصية، وحبُّ الذات؛ فلا تكون هناك تضحية من أجل بعضهم البعض، فالغواصة مجتمع يعيش أفراده حياتهم اليومية الروتيني؛ كأنهم في جزيرة منعزلة، إما أن يصلدوا بضم أيديهم وسواعدهم إلى بعضها البعض، أو تتلوى على جذوعهم؛ لحب النفس في قلوب هذه، فيطويهم مد البحر الهائل، فهم قوم من البائدة؛ مَنسية أوُ مُتناسية حتى من المغطين لأنبائها، ومن المؤرخين، وهل سينفرد قائدهم بقرارات دكتاتورية، أم سيُشاركهم بآرائهم فيها، وتُبسط أمامهم جميعا، ليتوصلوا إلى مدى الصواب، أو الخطأ فيها؟ قال لهم أمجد ذات يوم، بأن ما يُثبِّط العزائم ، ويُلكِّأ الانطلاق إلى الأمام لتحقيق غرض عام فيه مصلحة الجميع، هو فرد يكبح المضي الجماعي لعلة نفسية فيه، فيصير لبنة هشة في ذلك البنيان؛ تُهدد تماسك اللبنات الأخرى ببعضها البعض، فالانهيار الكامل؛ كذلك حال البعض في نظام البلاد التنفيذي العام، فيُصبح بذلك الفرد أحيانا مُهلِكا، والنسبة منهم تتعدى النصف، فلا تتحمل الجماعة مسؤوليةَ الفشل الذريع، فالفرد مُفرَمِل بارع.

هذه خريطة العالم الورقية مبسوطة أمامهم؛ بقاراتها الخمس، وبمحيطاتها الخمسة، وبالمضايق التي تُمكن من الانتقال من هذا المحيط إلى الآخر، أو من هذا المحيط إلى هذا البحر، وبالقنوات التي من حفر الانسان؛ تُتيح مغادرة هذا البحر إلى الآخر، ومن هذا المحيط إلى الآخر، وهذان اتجاهان؛ أحدهما إلى الشرق من الخريطة، والآخر إلى الغرب منها؛ كلاهما يوصلان إلى المحيط الهادئ، لأن الأرض كروية الشكل، وهم في مكان ما على ساحل إفريقيا الشمالي الغربي؛ في قاعدة انطلاقهم منها، والعودة إليها، ولابد أن تظل سرية، وهي كذلك دائما؛ إلا من امتلك اكتشافها بأقمار التجسس الاصطناعية؛ وتكون فوق مثيلاتها إذا كانت سابرة في التقاطها العَدَسي لأعماق الأرض؛ وهذه هي الجزيرة المحدد موقعها بإحداثيي الطول والعرض؛ بالدرجات، والدقائق والثواني، فأي اتجاه سيأخذونه إلى جزيرة المحيط الهادئ؟

قال رائد الدارس لخريطة البحار والمحيطات بعمق، والقارئ لتجارب إنسان العصر الحديث، والمعاصر؛ في الخوض في المسطحات المائية الشاسعة؛ في كتب الرحلات البحرية، وفي يوميات ربابنة السفن الشراعية، وذات محركات الأسطوانات:

- في اتجاهنا إلى الشرق؛ يابسة موزعة في أرخبيلات من جزر كثيرة، ورؤوس قارية متوغلة في المحيط الهندي؛ الذي نغوص فيه لننتقل إلى المحيط الهادئ، وفي هذا خط رحلة مُتكسر يأخذ منا وقتا طويلا؛ لرسم سلوكنا له الحذِر، والآمن، وفي اتجاهنا إلى الغرب؛ ليس أمامنا للغوص بغواصتنا

إلا في المحيط الأطلنتي، وعبور مضيق (ماجلان)، فنجد غواصتَنا قد تابعت غطسها في المحيط الهادئ؛ مُتجِهين بها إلى الجزيرة.

قال أسعد مُستخلصا اختيارا مناسبا من تحليل رائد لخريطة المحيطات والبحار:

– إذن، فاتجاهنا إلى الغرب سيكون مُيسّرا، ولا يتطلب منا زمنا طويلا للوصول إلى الجزيرة.

بعد أن صمت لحظات؛ قال آمرا بسام:

– أُرسُم خط الرِّحلة؛ كما سيُملي نقطَه عليك أمجد، ورائد.

قال أمجد مُدققا نظره في الخريطة:

– نقطة بداية الغوص طبعا هي رصيف القاعدة، بعدها جزر الرأس الأخضر.

تابع رائد راسما في أذهان زملائه النقط التالية:

– ما نُعيُّنه بعد ذلك في خط الغوص جزيرة (الأساسيون؛ Ascension)، ومن هذه إلى جزر (الفوكلاند).

قال أمجد ولم يعد يرى في مسار الغوص إلا مضيقا:

– ما وراء تلك الجزر إلا ممرا مائيا وعرا، وهو مضيق (ماجلان)، سيُفضي بنا مباشرة إلى المحيط الهادئ.

كان قد سبقه رائد في التحديق في الخريطة، فقال:

– الجزيرة التي سنُصادفها في اتجاهنا شمال غرب هي (هانگا روا؛ Hanga Roa).

وما ينطق به رائد هو الجزيرة المعينة في نهاية رحلة الفريق؛ قال:

– ونكون نغوص في اتجاه الجزيرة التي نقصدها؛ وتقع في وسط المحيط الهادئ الواسع بعشرات الملايين من الأميال المربعة، وهي (تيراينا[1]؛ Teraina).

قال أسعد مُشجِّعا أعضاء الغواصة:

– هذا هو خط الرحلة، يتطلب منكم الآن تحديدَ مسافته بالأميال البحرية، وبإجراء عمليات حسابية اعتمادا عليه، وعلى سرعة الغواصة، تستخرجون منها عدد الأيام، وهذه كم تتطلب منكم من الماء والزاد، والأدوية، وتقوم ريم انطلاقا من دراسةِ بيئات جهات المحيطين، والجزر، وفصولٍ من السنة، التي يمكن أن تكون خلالها الرحلة؛ بمساعدة رائد؛ لتضع لائحة توقعية لأمراض قد تصيب أحدنا؛ إلى غير ذلك من الأشياء، والأمور التي نكون محتاجين إليها؛ يضطرنا إليها خوضُنا في الأعماق بتلك المسافة.

هل من الأجهزة التي رَكِّبت في الغواصة ما يؤهلها لسلوك خط الرحلة بدون توجيه آلي؟ نعم، وقد كُلف بسام ببرمجة الخط، بتعبئة نقطة بدايته، ونقطة نهايته؛ ونقطِ تكسُّره في الجزر، أما في مضيق (ماجلان) الملتوي؛ فإن الغواصة ستكون ناجحة في عبوره، وما إن غادرت نفق الرصيف، واستقبلها ماء المحيط بحفاوة؛ حتى سارت بسرعة فائقة؛ ممتثلة لما يُملي عليها البرنامج الذي يستمد إملاءاته مما عُبِّئ به جهاز التوجيه.

[1] تقع هذه الجزيرة وسط المحيط الهادئ؛ شمال خط الاستواء بأربع درجات، وشرق خط كرينيتش بمائة وستين درجة، تابعة لجمهورية (كيريباتي).

يقوم فريق الغواصة بهذه الرحلة وكما ذُكر سابقا؛ إلا لاختبار أنفسهم في الغطس بها؛ بمسافة هي الأطول على الإطلاق؛ من بين مسافات الرحلات السابقة؛ وليس لشأن آخر، فلم يطفوا بها على سطح الماء؛ إلا لغرضين؛ واحد منهما هو تعبئة بطاريات محركات الدفع بأشعة الشمس؛ من حين لآخر، وبعد مسافة قارة، والآخر هو أنهم عند وصولهم إلى إحدى تلك الجزر التي يتكسر عندها خط رحلتهم؛ يتوقفون بعيدا عنها يوما واحدا؛ ينزلون في أحد شواطئها بالغواصة البرمائية، وبالقاطرات الكهربائية، لإلقاء نظرة سياحية سريعة على الجزيرة، ثم يُتابعون الرحلة، وقد عبَروا مضيق (ماجلان)؛ تارة طافية بهم الغواصة على مائه، مُغتنمين الفرصة بالنظر إلى تضرس جانبيه القارّيين، وتارة أخرى غاطسة بهم؛ ليُشاهدوا طبيعة عمقه؛ حتى اتسع أمامهم المحيط الهادئ؛ فهمزوا دابة الأعماق الكهربائية بسرعة؛ أوصلتهم في مدة قصيرة إلى جزيرة (تيراينا)؛ وطئت أقدامهم أرضها؛ استمتعوا في وقت قصير بما يُؤهلها للسياحة، وهو بنسبة تكاد أن تكون شاملة، وهي طبيعتها الجزرية؛ تغطيها نباتات برية، وتحيط بها غابة من نخيل؛ هو نبات محاد لشطآن رملية، ولمياه المحيط.

لما رجعوا إلى الغواصة قال لهم أسعد ببال غير مثقل، وبملامح مطمئنة؛ مُستبشرة:

– لقد وصلنا إلى آخر وجهة حددناها منذ البداية؛ ونستمد من هذه الرحلة أمران، الأول أن الغواصة قطعت هذه المسافة

الطويلة دون أن يصيبها عطب؛ لا في مصدر طاقتها، وهي هذه الخلايا الشمسية، ولا في محركاتها، ولا في أجهزتها الآلية أو الإلكترونية، والثاني هو أننا نجحنا في خلق فريق متماسك العناصر؛ متفاهمين مع بعضهم البعض، مُتَّحدين إلى آخر الرحلة، مُستأنسين ببعضهم البعض؛ مُتحابين فيما بينهم؛ وكما يقال: «التَّحابُب بين أفراد الأمة ضروري لبقائها»، وها نحن سنعود كما أتينا، مسرورين برحلتنا؛ مشتاقين إلى وطننا؛ محققين ما نجحنا فيه.

قال أمجد يكبح استعجال الرجوع:

- كنا مُتفوقين في رحلتنا، وسنعود في نفس المياه؛ فنكون تعودنا على الغوص فيها، ففي غطسة في المياه المحيطة بالجزيرة قد نكشف عن شيء ما.

قال رائد مُتحمسا:

- نعم؛ فلا نرجع بدون أن نكون على علم بشيء ما في الأعماق.

وافق الجميع، فتركوا غواصتهم تدور حول الجزيرة بحرية؛ في دائرة مائية تبعد عن شاطئها بمئات الأمتار، وكانت دهشتهم كبيرة حين بدأ رنين في جهاز اكتشاف المعادن، فتوجهوا إلى الشاشة؛ بدا لهم عليها جسم طويل؛ فكُبِّرت أبعاده؛ ما رأوه كان غواصة غارقة في الأعماق؛ استكشفوا مكانها؛ لم تكن في الماء المحيط بالجزيرة؛ كانت في إحداثيتين ما بين جزيرة (تيراينا)، وجزيرة مرجانية تقع إلى الشمال الغربي من هذه اسمها (بالميرا أتول؛ Palmera Attol)؛ قال أسعد بعد تفكير:

- هبطت هذه الغواصة إلى قاع المحيط، وقد ظهر لنا مصيرُها هذا من الوضع الذي هي عليها الآن؛ مائلة على جنبها الأيسر، وهل نترك المحيط الهادئ دون أن نعرف ما الأسباب التي أدت إلى غرقها؟

سكت لحظات؛ ناظرا بعينين جادتين؛ آمرتين؛ في وجوه أفراد فريقه، وقال:

- لن نبرح هذه الناحية من المحيط؛ حتى نعرف كل ما له علاقة بهذه الغواصة؛ هل أنتم موافقون؟

أجاب جميع أعضاء الغواصة بدون تردد:

- مُوافقون.

قال أسعد مُستنهِضَهم على الاستعداد للمهمة:

- فوجهوا إذن (الأنقليس 1) إلى الغواصة الغارقة.

لم يمض وقت من وحدات من الساعات؛ حتى كانت غواصة فريق أسعد تتوقف محركاتها عن تحريكها؛ على بعد عشرات من الأمتار من الغواصة؛ لماذا؟

قال أمجد كاشفا لأصدقائه عن أمر خطر:

- شغلوا جهاز استكشاف الاشعاعات النووية؛ فقد تكون طاقة الغواصة نوويةً.

شغلوا ذلك الجهاز، ثم فحصوه، وجدوه لم يسجل أي إشعاعات صادرة من جسم الغواصة؛ أمرهم حينئذ أسعد قائلا:

- نستكشف ما بداخل الغواصة على مرحلتين؛ في الأولى يتوجه بسام إليها ليترك جهاز سبر الغواصة الممغنط ينطبق

بفولاذها، لينقل لنا داخلها بالبعد الثلاثي، لنرى ما يوجد بها من بشر، ومعدن، وفي المرحلة الثانية نجعلها تطفو على السطح بالأكياس الهوائية؛ ثم يدخلها ثلاثة منا؛ ليبحثوا فيها عما يُطلعنا على حكاية غرقها الحقيقية، ثم نخلي سبيلها لتعود إلى مكان غرقها.

اِرتدى بسام عُدّة الغوص، ودخل إلى الحوض المائي المرحلي؛ الذي يُمكّنه من الخروج من (أنقليس 1)، وكان يتقدم من الغواصة الغارقة بتحريك الزعنفتين، وأعضاء الفريق يُتابعونه بالشاشة؛ جتى رأوه يدع الجهاز الممغنط ينجذب بمعدن الغواصة؛ فيلتصق بها، ثم أقفل بسام راجعا؛ ما نُقِل إليهم كان مُكبّرا على الشاشة؛ كان في داخل الغواصة أجساد آدمية ميتة، لا حركة في أحد منها، وهي موزعة في جميع الحجرات؛ عدَّتها ريم، وقالت:

- عدد الأجساد عشرة.

سألت رهف؛ قائلة بجزع:

- هل اختنقوا بغاز تسرب إليهم من أداة تخزينه؟

وسأل رائد بتصلب في جسده:

- هل هوجموا بسلاح كيماوي قاتل؟

قال أسعد عائدا بهم إلى مراحل معرفة الأسباب:

- لنقوم بما هو مبرمج للمرحلة الثانية؛ فليغطس رائد وبسام إلى الغواصة؛ رابطين بجانبيها الأكياس الهوائية، وليملأها أمجد بالهواء المضغوط، فتنتفخ، وتصعد بالغواصة إلى السطح، لينفرج الماء عن مدخلها السطحي، فيدخل إليها عبره رائد،

وبسام، وريم، ليعثروا على ما هو ملموس؛ يُساعدنا في معرفة قصة غرقها.

وقد استطاع رائد وبسام من ربط الأكياس بجسم الغواصة، ثم رفعتها -وقد امتلأت بالهواء- إلى الأعلى طافية على سطح الماء، فدخلها الثلاثة المختارون؛ كانت ريم هي الوحيدة من بينهم تَشغلُ يديها حقيبة صغيرة، فماذا كانت تحمل فيها؟ كان في تلك الحقيبة سائل كيماوي اختباري، وكان هذا ما أجابت به قبل ذلك على سؤال طرحه عليها أمجد؛ حين سألها قائلا:

- هل في تلك الحقيبة ما تبين لك أنه لا بد منه في دخولكم إلى الغواصة.

أجابت بكامل الثقة في العلم الذي تلقته:

- حسب ملاحظتي لذلك الوضع التي هي عليه أجساد الغواصة الغارقة.

قال لها أسعد ناظرا إليها بإعجاب، وبافتخار، وبتقدير:

- إنك يا ريم متضلعة في علومك، فلا ننطق بتكهناتنا، فقد لا نكون صائبين فيها إلا بنسبة ضئيلة، فلنتركها مفاجأة لنا جميعا.

ما إن هبطوا سلم باب الغواصة العمودي، حتى وجدوا أنفسهم بين أجساد ملقاة في ممر الغواصة الرئيس، وفي بعض الحجرات، وفي تلك المخصصة لتناول الوجبات، صادفوا رؤوسا وجذوعا منكفئة على صحون الطعام؛ خزفية؛ كان أصحابها ما يزالون يتناولون إحدى الوجبات؛ استخرجت ريم

من الحقيبة مِكشطا معدنيا، والسائل الكيماوي الاختباري، وكشطت طبقة من رسوم، وتزويقات أحد الصحون، وصبت عليها السائل الاختباري، فتغير لونه؛ عندئذ قالت ريم لرائد وبسام بيقين، ولم تجزع من ذلك الذي كشف عنه، لأنها كانت تعرف أنه هو كذلك:

– لقد مات أفراد طاقم الغواصة بطعام مسموم؛ بمادة رُسمت بها الصحون، وزوِّقت به؛ سآخذ شظية من صحن عينةً للبحث فيها أكثر.

وكان صحن قد تهشم إلى قطع؛ تحت وطأة سقوط أحد القائمين من طاولة الطعام عليه، وكان يترنح على الأرجح بتأثير السم عليه، ثم يقتله بعد ذلك؛ فأخذت ريم كِسرة منه، وخزنتها في كيس خاص، والتقطت صورة فوتوغرافية لآخر سليم من أي تشقق أو خدوش، والذي ظهر لهم أن للغواصة جهاز يُسجل كل ما كان يحدث داخل الغواصة؛ بالصورة والصوت، والذي يهمهم من هذين هو الصوت، فماذا كان يتكلم فيه أفراد طاقم الغواصة الغارقة؟ ذلك ما سيعرفونه عندما يُحللون ما نُطق به، وسُجل طيلة مدة غطس الغواصة وغرقها، ثم غادروها، وأفرغ رائد وبسام الأكياس التي طفت بها الغواصة من الهواء بالتدريج؛ فكان أن بدأ الهيكل يغطس ويستقر في الأعماق؛ ورجع الثلاثة وبحوزتهم ما به يطلعون عليه؛ من أسرار نشاط الإنسان في أعماق البحار والمحيطات.

كانوا في تجاربهم في الغوص قد اكتسبوا منطلقات ثابتة، ومنصات انطلاق صبلة، فكانت تأتي لأعمالهم نتائج

مدهشة، وكان من تلك أن يجتمعوا حول مائدة، ويضعوا أمامهم موادهم، ووسائلهم، ويشرعوا في الملاحظات، وفي التحاليل، وفي الاستنتاجات، وفي التخطيط المحكم؛ الذي يتطلبه هذا المشروع، أو هذا التنفيذ، وقد تحلقوا حول القطعة المكسورة من الصحن الخزفي، وعلى الشاشة المُكبرة للصورة؛ وتُتيح زاوية كل واحد منهم النظر إليها بدون عائق، عُرِضت عليها صورة لصحن؛ ما رُسم عليه، وزُوق به يحتاج إلى عدة ملاحظات، كما تحتاج إليها موازاة معه القطعة المكسرة؛ وهي شيء ملموس لا شك فيه، وبها يستطيعون إرجاع ما زُيِّن به الصحن إلى مُبدعه، وكيف كان من مواعين الغواصة؟ ولماذا هذا الصحن بصنعة معينة، وربما كان من حرفة أحد لا يكتسبها أحد آخر؛ لموهبة أصيلة، ولتركيبة في مادة خزفه سرية، حُفِظ عليها آلاف السنين، وهذا يدخل فيما يسمى بـ(أسرار المهنة)، وهي قد تكون مقننة، ومن أخلاقيات المهنة؟

صُوِّرت الشظية، واتخذت نصف الشاشة، وبقي الصحن يحتل النصف الآخر؛ كان المبتدئ في الكلام هو أسعد؛ قال:

- لنبدأ مما توصلت إليه ريم من نتيجة مختبرية، وهي أن الرسوم والتزاويق رُسمت بمداد متنوع الألوان؛ دخلت في تركيبته مادة سامة، أودت بحياة جميع أفراط طاقم الغواصة، وهم متهالكون على الأكل في صحون مسمومة.

قالت رهف وقد دَققت نظرها في الكسرة المتشظية:

– إن الذي عَجَن خزف الصحن، وشكَّله، وخطَّ عليه رسوما وتزاويقا، هو من سمم أولئك حتى الموت، لماذا؟ هذا ما سنتوصل إليه فيما بعد.

قال رائد، وقد فكر في التدرج في ملاحظاتهم واستنتاجاتهم:

– من المادة الخزفية، ومن أسلوب الرسوم، وأشكال التزاويق؛ نتوصل إلى صانع الحصون المسمومة.

قال أمجد عائدا إلى شيء آخر:

– ما هي هذه الرسوم أولا، وهذه الرشوم المُبدعة؟

أمر أسعد رهف بقراءة وجه الصحن، قائلا:

– إليك الصحن يا رهف بوجهيه، فاقرئيه علينا.

دققت رهف نظرها طويلا في وجهي الصحن، وقالت:

– في وسط الصحن رُسمت غواصة؛ وهي مماثلة مائة بالمئة بالغواصة الغارقة؛ فتلك المرسومة هي تلك الغابرة في الأعماق.

اِستنتج بسام من ملاحظة رهف؛ قائلا:

– فصناعة الصحون إذن؛ كانت من طَلَب الذين أشرفوا على إطلاق الغواصة إلى المسطحات المائية.

وتابعت رهف قراءتها قائلة:

– وحول الغواصة المرسومة شعاب من المرجان، وعلى دائرة حافة الصحن نخيلٌ؛ يتتالى رسمُ كل واحدة منه؛ يُحادي الماء. ويتوزع عدد من زهرة (الكركديه[2]؛ L'hibiscus) حول الغواصة؛ التي تدخل في نسج إكليل (لي؛ Lie)؛ الذي تُتوج

2

به حسان جزر (هاواي) رؤوسهن، وهن يؤدين رقصة (الهولا)؛ ترحيبا بالزوار؛ ودائرة أخرى من إكليل مجدول من نبات (السرخس؛ Fougère) البري؛ ورسوم مَراسٍ منظمة بعدد معين في خط دائري، وراقصات في صف مغلق يدور بدائرة الصحن.

قال رائد الدارس لحضارات شعوب البحر:

– هذه كلها رموز تُفسَّر؛ فإليكم البعض مما تعبر عنه؛ هذه غواصة قوم تصول وتجول في المحيط الهادئ؛ مُرحَّبة بأكاليل من الزهور والنباتات البرية؛ برقصة من جميلات، ومليحات شعوب الجزر الأصلية، والمراسي هي تعبير على أنها تُلقي بمرساتها في أي ساحل من سواحل المحيط الهادئ؛ سواء الشرقية منها، أو الغربية، وفي شواطئ أي جزيرة من أرخبيلات المحيط؛ بدون أي إعراض من الأهالي، والأكاليل في تاريخ الشعوب؛ يُوضع مشكلا من نبات الغار؛ على رأس القائد المظفر؛ فأصحاب الغواصة يُمجدون أنفسهم دوما في أي رحلة غطس زاحفة.

اِبتسم أمجد، وصورة خيالية تنطبع في ذهنه، وقال:

– فُعِل بهم؛ وهم مستسلمين لنخوتهم بوضع أكاليل زهور جزر المحيط الهادئ على رؤوسهم المتسلطة، ومأخوذين برقصة حسانها ومليحاتها المثيرة؛ فما أضعف الإنسان وهو في أوج النِّزال!

قالت ريم باستنتاج:

– إذن فما رُشم ورُسم على الصحون هو استيقاء من بيئة أرخبيلات جزر المحيط الهادئ؛ وأحدهما للغواصة فهي متربعة على عرش مُزين من نباتاتها وزهورها البرية؛ وحولها جميلاتها؛ ما تزال تسري فيهن حياة نظرة فاتنة؛ منحدرة من أصول الجزر البرية، لم تُهجِّنها مدنية الغرب بالمرة.

قال أسعد حاثا أعضاء فريقه على التقدم في استجلاء ما يرتبط بالصحون المسمومة:

– فأي مسحوق صُنع منه خزف الصحون؟

قالت رهف متكلمة بطريقة مخبرية:

– يُطحن جزء من الشظية إلى ذرات؛ تُفحص بالميكروسكوب.

ما دققوا فيه النظر كان طينا أبيض اللون؛ مَشويا بدرجة حرارة فرن عالية؛ مُركزة في بؤرة بحزمة أشعة الشمس، فكان ما استنتجه رائد هو ما نطق به قائلا:

– إن الذين استخرجوا من الصخر أطيانا عديدة، بألوان كثيرة، وعجنوا منها خزفا؛ برعوا في صناعته صحونا، وقد توارثوه صنعة، وكتموا أسرارها؛ مئات من السنين، هم الآسيويون؛ فكانوا المتفردين فيها، وللجميع فخر في الأكل في صحون من صناعتهم، وأصبحت تُحفا لها قيمة مالية عالية، بأشكالها الفريدة، والعجيبة، وبرسوماتها، وتزاويقها؛ المختلفة المُبهِرة.

قالت رهف، وقد أُغرمت بقراءة الصحن، فكانت ما تزال تنهب وجهيه بنظراتها الحادة:

- إن بعض خطوط الرسوم والتزاويق بماء الذهب.

قال بسام مُتخيلا اختيال أفراد طاقم الغواصة الغارقة في حركاتهم:

- كان تناولهم للطعام في صحون من صُنع آسيوي افتخارا، وأبهة، واعتدادا بالنفس، ورفاهية، وحياة مترفة، ورغيدة، وستظل معروضة داخل الغواصة، عندما تُعفى من خدمتها في البحرية، وترُكن في جانب من ميناء متحفا بحريا عائما؛ تُذكِّر الزائرين بعظمة القوم الذي كانت في خدمتهم.

قال أمجد؛ مُوافقا على ما قال بسام:

- لم تكن مُبالِغا فيما تخيلته، فهذه الصحون مصنوعة تقليدا؛ وغالية الثمن، والذي يُعزز هذا؛ هو أن صناعتها كانت مطلوبة من القائمين على الغواصة؛ خِصيصا لطواقمها، وهم الذين تصوروا الرسوم والتزاويق؛ المستمدة - كما توصلنا إلى هذا بعد قليل- من بيئات جزر أرخبيلات المحيط؛ التي تقع في نطاق خط الاستواء.

قال أسعد جارًّا أصدقاءه إلى المضي أبعد؛ في التفكر في حكاية مصير الغواصة:

- إذن فالصحون من صناعة آسيوية، ولكن هذا لا يدفعنا إلى القول بأن من سممها من إحدى بلدان شرق آسيا؛ فإذا كان هذا صحيحا لا بد لنا من بيِّنة مُفحمة، وهذا لا نحصل عليه إلا بمعرفة القصة الكاملة؛ كيف؟ لنتصنت إلى التسجيل الكامل لما كان يُتفوه به، وما يحدث داخل الغواصة، فما هي

الطريقة التي نستعملها للرجوع إلى الكلام الذي يمس مباشرة الصحون، وقتلَ أفراد الطاقة؟

قال أمجد، وقد أتته فكرة الطريقة:

- نُنصت إلى التسجيل بكامله، ونُسجل وقت ذبذبة الصوت بالثواني والدقائق، التي نرى ما سُجِّل فيها عنصرا في معرفة حقيقة الغواصة.

قال أسعد لبسام آمرا إياه:

- أطلق التسجيل يا بسام، وسجل إلكترونيا ذبذبة العنصر؛ الذي يهمنا في حكاية غرق الغواصة بطاقمها.

سمعوا من التسجيل أن القائد يُخبر أعضاء طاقمه في أول اجتماع بالمهمة التي ستغطس الغواصة من أجلها؛ قال: «حَتم عليكم، أن لا تنسوا ما اختُرتم عُصبة بكفاءة عالية من أجله، وهو أنكم تشتغلون في غواصة؛ هي آخر ما بُني في تطوير غواصات التجسس، ومجال عملها هو سواحل آسيا الشرقية؛ في المساحات المائية التالية؛ من الشمال إلى الجنوب: بحر (تشوكتشيز)، وبحر (بيرينغ)، وبحر (أوخوتسك)، وبحر (اليابان)، والبحر (الأصفر)، وبحر (الصين الشرقي)، وبحر (الصين) الجنوبي، وبحر (الفليبينيين)، وبحر (الفليبينيين) الغربي، وبحر (سيليبر)، وبحر (باندا)، وبحر (أرافورا)، وبحر (تيمور)، وبحر (كورايل)، وبحر (تاسمان)، لا يبقى بعد هذا الأخير إلا القارة الجنوبية المتجمدة؛ فالذي أنتم مطالبون به - في تقاعسكم فيه، أو تهاون فيه منكم؛ عقوبة تُطبق بنصوص قانونية ثابتة- وهو يتلخص في ثلاث عمليات؛ أُولاها:

التصنت لما تبُثه الأجهزة اللاقطة؛ عن كل ما يُتحدّث به في وسائل اللاسلكي، والمشاهدة بعين يقظة تحليلية سريعة الملاحظة؛ لما يُصور ثابتا أو متحركا؛ ثانيها: تصنيفها حسب خطورتها، وترتيبها حسب مستواها في ذلك؛ ثالثها: توقُّع انطلاقا من كل ذلك ما يمكن أن يُبرمج ويُنفذ لتهديدنا، أو يُؤخرنا في وسائلنا، وتكنولوجيتنا، ويَردعنا في هيمنتنا».

قالت ريم مُستخلصة مما سمعوا من التسجيل:

– إذن فهذه غواصة تتجسس على من يقطن في دول شرق آسيا؛ تغطس جيئة وذهابا؛ في المياه الممتدة من شمال الكرة الأرضية إلى جنوبها، وحُدد بالتفصيل ما يتوجب على أفراد الطاقم القيام به، لتكون الغواصة قد قامت بكامل مهتمها.

قال رائد متلهفا إلى سماع التالي في التسجيل:

– إذن فقد ووجهوا بأن قُتلوا بخزف مسموم، وأن هذا الفاعل لن يكون إلا من الأقوام المتجسس عليها.

قالت رهف، وقد تعمقت في قراءتها للتسجيل:

– عملية التسميم استباقية، فغرق الغواصة كان في وسط المحيط، فهي لم تغُص أبعد منه.

قال بسام مُستخرجا من كلام رهف قولا لا يُشك فيه:

– فالغواصة وأفراد طاقمها كانوا مُراقبين ابتداء من انطلاقها في مهمتها.

قال أمجد كابحا زملاءه في المضي أكثر؛ في تخمينات قد تكون خاطئة:

- هل ما يزال في التسجيل ما نتقدم به في معرفة القصة الحقيقية؟ فلنستمر في الإنصات إليه.

قال أسعد لبسام الذي يكون قد اكتشف الجزء الذي يُتحدث فيه ما له علاقة بالصحن المسموم:

- من خلال عينيك المتحفزين يتبين لنا أن عندك المزيد، والخاص بعملية التسميم.

قال بسام بتيقن:

- نعم، سأتابع تشغيل الجهاز.

بدأت جماعة أسعد تتسمع؛ فما التقطته آذانهم هو قرقعة صحون خزفية، وأكواب، وشوكات، وملاعق، واختلاط في كلام عدد من الأشخاص؛ قالت رهف مُحللة هذا:

- إنهم في قاعة الأكل؛ محيطون بالمائدة، والصحون والملاعق، والسكاكين، والشَّوك؛ يُزودون بها.

تأهبت مسامع الجميع أكثر بكلام رهف، لتسمع حوارا يدور؛ فيه صوت يقول: «إنها فكرة رائعة أن تُصنع صحون بصنعة أولئك الآسيويين التي توارثوها أبا عن جد، وأحاطوها بسرية، وبرعوا فيها إلى حد أنهم انفردوا بها؛ خصيصا لهذه الغواصة، فهي بفنية تُوثِّق لوجودها»، وصوت يقول: «ولم تُطلب منهم؛ إلا لأن لا تُقلد أبدا في المستقبل، فهي نتيجة إبداع اللحظة، وبفكرة أصيلة في تصميم نقوشها ورسوماتها»، قال صوت آخر: «انطلاقا من أهمية الصحون الفنية هذه التي تتحدثون فيها، وخصوصيتها؛ كان لابد من تغيير الكلام؛ بسؤالكم عن المغامرة التي قام بها اثنان إلى داخل آسيا؛

باحثين عن الذي طلبوه من أحد هناك صناعتَها؛ بناء على التصميم الذي حملاه معهما»، قال آخر؛ سيظهر فيما بعد أنه أحد المغامرين: «كانت رحلتنا لذلك الغرض طويلة؛ فيها تنقل من جزيرة إلى أخرى... كانت انطلاقتنا بالطائرة من رصيف الجزيرة المرجانية (جونستون)؛ بعد أن نزلنا على شاطئها من الغواصة -التي كنا ما زلنا نغطس بها قبل الانطلاق في رحلة تجسسها الطويلة- في مثلث هذه الجزيرة، وأرخبيل جزر (هاواي)، وجزيرة (نپاري)»، قال الذي سيظهر من كلامه فيما بعد أيضا أنه الثاني: «طارت بنا الطائرة من جزيرة (جونستون) إلى مطار مدينة (هونيارا)؛ بإحدى جزر (سالومون)، وبعد ليلتين بتنا فيهما في فندق بهوية سائحين من (الأرجنتين)، ولم نتناول طعاما آخر غير طعام آسيوي لذيذ؛ يهيؤه صيني -بناء على طلب- في مطعم؛ ملحق بمطعم كبير؛ يُحضر وجبات عالمية؛ متعددة الأصول، ومن هناك طرنا إلى بحر الصين الجنوبي؛ إلى جزيرة (بيسكادور)، ومنها اتجهنا سفرا في سفينة سياحية إلى مدينة (هونگ كونگ) الصينية؛ وفي أحد أحيائية التجارية؛ دكان طَلَب صاحبُه من صانع حاذق في عمله عددا من هذه الصحون؛ التي تتمتعون الآن بتناول الطعام منها، وحتى لا نثير التساؤل عن وجهتها الحقيقة، فإنها كانت من بين بضائع طائرة أقلعت من جزيرة (بيسكادور) إلى جزيرة (ميكرونيزي؛ Micronésie)، ومنها بطائرة خاصة إلى الجزيرة المرجانية (بالميرا؛ Palmyra)؛ حيث كانت الغواصة في انتظارها؛ ليُقام

احتفال بها بعد عودتنا عبر خط سفر مخالف للأول؛ من جزيرة (بيسكادور)؛ رجعنا إليها بمركب، ومنها إلى جزيرة (طايوان)؛ إلى عاصمتها (تيبي)، ومن هذه ركبنا طائرة مباشرة إلى جزيرة (واهو)؛ إلى (هنولولو)، ومن هذه إلى جزيرة (جونستون) بطائرة خاصة؛ للاِلتحاق بعملنا على الغواصة، التي كانت قد غاصت إليها قادمة من جزيرة (بالميرا)».

قال أسعد فاهما أمرا من رواية الثاني للسفر من أجل الصحونا:

- لم يفطن أبدا هذان اللذان طلبا صنع الصحون؛ لما قد يدخل في صناعتها من مادة خطرة؛ على حياة أفراد طاقم غواصتهما.

قال رائد مُتقدما في الحكاية:

- الغالب أن تنقلاتهما من جزيرة إلى أخرى؛ كانت في علم أشخاص؛ ينتظمون في نسق استخباراتي محكم العناصر.

قال أمجد مُتصورا توزُّع أعضاء ذلك النظام:

- كانوا يراقبون تحركات بحاري الغواصة بانتباه احترافي شديد.

تساءلت ريم برهبة:

- من يكونون؟ ومن أي بلاد هم؟ وما هدفهم من قتل فريق الغواصة؟ ومن غرقِها في قاع المحيط الهادئ؟

قال أسعد زاحفا في فهم الحكاية:

– إما أن نستمر في استجلاء الحقيقة، بالبحث عمن يكون هؤلاء، ومن أجل ماذا هم يعملون، وإذا فشلنا في هذا، فإنه سيظل حقيقة لا تُعرف أبدا.

سكت دقيقة، وكانت ما تزال العيون تنظر إليه؛ قال:

– لكل واحد منكم متسع من الوقت يفكر فيه؛ فيما قد يقودنا إلى معرفة من سمم طاقم الغواصة، وغرضِه من ذلك.

بعد خمس دقائق كان الناطق الأول منهم هي ريم؛ قالت:

– السؤال الوجيه هو: أين توجد القاعدة التي بها رصيف الغواصة؟ أليست هي جزيرة (واهو)، ومن أين انطلق الاثنان إلى المحطة الأولى في سفرهم؟ ألم تكن جزيرة (جونست)، ومن طبخ لهم الأكلة الصينية في أحد مطاعم جزيرة (سالومون)؟ ألم يكن صينيا، فالعلم بمهمة الغواصة، والعمل على تصنيع حصون أكل خاصة بها، قد أُرسل من جزيرة (واهو) إلى جزيرة (جونستون)؛ حيث الآسيوي صانع الوجبة الصينية.

قال بسام مُستخلصا:

– تريدين أن تقولي لنا بأن علينا أن نذهب إلى جزيرة (واهو)؛ لنتعرف على العنصر الذي هو في نظام التجسس على مهمة الغواصة؟

أجابت ريم غير قاطعة بما فهمه عنها بسّام:

– لم أقف عند هذا بعد، وإنما عينت الأماكن التي من الممكن أن يُنقل فيها الاستخبار عن الغواصة.

قال رائد آتيا بفكرة ما جوابا عن سؤال:

- هل كان في المطعم الملحق الذي تناول فيه المبعوثان بهما إلى (هونغ كونغ) أكلة آسيوية عنصرٌ تصنَّت إليهما؟ ففي ذهابنا إلى هناك سبيل إلى الاتصال بذلك العنصر إذا كان له وجود.

طرح أمجد سؤالا؛ قال:

- إذا كان ذلك الشخص موجودا في الواقع؛ في جزيرة (سَلومون)، فمن أشعره بأن فردين من غواصة التجسس سيبيتان ليلتين في أحد فنادق الجزيرة؟

قالت رهف مُنبهتهم إلى ما قد يسمعون منه؛ ما له علاقة باكتشاف المخبرين بمهمة الغواصة:

- وإن كان التسجيل مُرهِق في تمييز أصواته، والانصات فيما كان يُتحدث فيه؛ فعلينا أن نتحمل الاستماع إليه الممل.

قال أسعد آتيا بفكرة:

- هل هناك يا بسام برنامجا يفصل الأصوات عن ضوضاء حجرة الطعام؟

أجاب بسام مُتحديا:

- هناك برنامج؛ سأحاول.

شغل بسام التسجيل، فسمعوا جميعا حديثا موازيا في الصوت أحاديثا أخرى غالبة؛ لكن بالتدريج طغى عليها، فالتقطت آذانهم صوتا يقول: «سألتني يا زميلنا عما تحدث إلينا نحن الاثنين قائد الغواصة في مكتبه بالقاعدة البحرية؛ فانصت إلي؛ سأروي عليك حكايتنا؛ كنت أنا، والآخر قد اتفقنا على أن نذهب في سبعة أيام استراحة إلى جزيرة

(ماوي؛ Maui)، فكنا نتناول جميع وجباتنا في مطعم (دار البحر)؛ في الساحة المعشوشبة؛ المفتوحة على السماء، والمطلة على (خليج نابيلي؛ Napili bay)؛ رآنا ونحن في تعودنا على جلوسنا هناك عميل من مفتشي البحرية، فحرر مذكرة بذلك، وصلت إلى يد قائدنا، فاستدعانا كما رأيت، أو سمعت؛ لا ندري؛ للتحقيق، وقال بأننا لم ننتبه إلى جَزّاز عشب؛ كان يجز عشب ساحة المطعم بآلة الجز، ويُهذِّب شجيرات التسييج بالمقص؛ يكون قد تصنت إلينا، ونحن نتحدث في مهمة الغواصة؛ عرفناه فيما بعد؛ إنه من سكان أرخبيل جزر (هاواي) الأصليين، اسمه (كاي؛ Kai)، ويعني في لغتهم المحلية (البحر)، وقد تسألني كيف تخلصنا من عجرفة منصبه، فإننا أقنعناه بأنه لم تسنح له ذلك المُتصنت فرصة التقاط أي كلمة تفوهنا بها؛ كيف؟ لقد كان هدير محرك جزاز العشب قويا، وصوت شفرتي المقص الكبيرتين؛ يحجبان بيننا، وبين أذنيه، فلم تلتقط هاتان الأخيرتان شيئا».

أمر أسعد بسام قائلا:

– أوقف التسجيل؛ في هذا كفاية.

بعد لحظة صمت تابع قائلا:

– أمدنا التسجيل الصوتي بمكان استجمام اثنين من أفراد الغواصة، وهو أحد شواطئ جزيرة (مايو)، يتناولون وجباتهم في مطعم اسمه (دار البحر)، يحادي ماء خليج (نابيلي)، وشخص شُك فيه، قد يكون قد تصنت عليهما، وهو جزاز عشب أرضية الساحات؛ اِسمه (كاي)، وهما يتحدثان في

مهمة الغواصة التي من أجلها ستغادر قاعدة (هونولولو) البحرية... أنا على يقين بأن لدى هذا الجزاز ما يحتفظ به من معلومات؛ لها علاقة بالغواصة، فلن تغيب عن أي شخص يتردد على الأمكنة مدة عمله بها؛ قد تمتد أكثر من عقد من الزمن؛ ما يدور من أحاديث بين الجالسين على موائد مطاعمها؛ خصوصا تلك التي توضع في الباحات، أو الساحات المفتوحة، والممتدة إلى حدود شاطئ رملي، أو صخري.

كان صمتٌ منه، وكانت ما تزال العيون منصبة عليه، والآذان مفتوحة؛ باستعداد لسماع ما سيتكلم به؛ قال؛ سائلا عن آراءهم في ذهاب ثلاثة منهم إلى جزيرة (ماوي) للعثور على من عرف مهمة الغواصة، وكان مُخبرا لأحد آخر بها؛ ليصل إلى من سيُسمّم الصحون:

- من هم الثلاثة منكم المختارون؟

قالت ريم ببعد نظر:

- إنها مهمة صعبة، وتتطلب رجلا محنكا، وآخر قوي البنية، وشابا ذكيا.

قالت رهف، وقد أنصتت جيدا إلى المؤهلات المطلوبة:

- إنه الأستاذ أمجد، والأستاذ رائد، وطالب علم الفيزياء بسام.

قال أسعد؛ مُهيِّئا أفراد الفريق الثلاثة بما يلزمهم للقيام بالمهمة:

- سنقترب بغواصتنا من جزيرة (ماوي)؛ إلى أن يبقى بيننا وبينها ميلين، نتوقف عند ذلك الحد، ويتابع الثلاثة غطسهم ليلا؛ بالغواصة البرمائية؛ مُستخدمين تقوقعها الإلكتروني؛ الذي يحول دون التقاطها بأجهزة الرصد؛ التي يمكن أن يكون الآخر مُتزودا بها، ثم يدخلون إلى الجزيرة؛ وفي النهار لا يَبدون لسكان الجزيرة؛ إلا بأنهم سياح أجانب، فيتجهون مباشرة إلى جزاز العشب، ومُهذب الأشجار (كاو)، وفي خطتهم ما يعملون للحصول على المعلومات الضرورية.

سارت بهم الغواصة؛ مُوجّهَة بإحداثيات جزيرة (ماوي) المبرمجة، وعند ذلك الحد الذي لم يبق عنده بينهم وبين الجزيرة إلا ميلين كما خُطط لهما؛ غادرت الغواصة البرمائية جراب الغواصة الأم بالثلاثة، قاصدة بهم أحد شطآن جزيرة (ماوي).

الفصل الخامس

اِستخبار تنظيم

كان قد ظهر للثلاثة الشاطئ الرملي؛ على حافة ماء خليج (نايبلي)؛ على شاشة الغواصة البرمائية؛ سأل حينئذ أمجد بسام؛ قائلا:

– كم طول المسافة التي تفصلنا الآن عن الشاطئ؟

أجاب بسام، وقد فحص الأرقام بالكيلومترات، وبالأميال:

– ألف متر.

أمره أمجد قائلا:

– لا نتقدم أكثر في الألف متر هذه؛ نترك الغواصة مخفية بأعشاب البحر؛ كل ما فيها صامت، ونخرج منها مُجهزين بثلاثة أشياء؛ أدوات الغوص، والمحركات القاطرة، وألبستنا النسيجية؛ بعد مغادرتنا للخليج نربط الأكياس التي سنَصُر فيها معدات الغوص إلى القاطرات ذات المراوح، ونوجه هذه الأخيرة بآلة التحكم؛ عائدة إلى عمق الخليج؛ نطلبها لتأتي إلينا عندما نرجع من عمليتنا، ونرتدي ألبستنا البرية.

كانت الجزيرة مُضاءة بالكهرباء، ولم يكن من سكانها أو السياح الذين ما يزالون يسهرون؛ تمشيا، أو جلوسا في المقاهي، والمطاعم؛ إلا القليل، كذلك ظل الثلاثة يسيرون؛ باحثين عن مقهى منعزل؛ وقد رحب بهم نادل من سكان الجزيرة الأصليين؛ بدت لهم هويته من ملامح وجهه؛ مُمهِّدا لهم مائدة، وكراس؛ في جهة مُشجرة منعزلة؛ قال لهم:

– نبيذ؛ أم كوكتيل محلي، أم قهوة، أم شاي.

أجاب الجميع بصوت واحد؛ مُنزعجين، وجَزِعين من كلمة (نبيذ):

- كوكتيل محلي؛ فقط من فواكه الجزيرة.

قال النادل بابتسامة:

- كوكتيل محضر من عصير الموز، وقِطع الأناناس، وسكر القصب، وأوراق النعناع، وحليب الكوكو، وقليل من مشروب (الروم[3]؛ Rhum).

نظروا إلى بعضهم البعض بضيق تام؛ اِبتسم بسام بمزحة قائلا إلى زميليه:

- أبى هذا النادل إلا أن يُجرعنا سائلا كحوليا.

قال أمجد للنادل بسرعة:

- عصائر بدون (روم).

قال رائد مُفرِّجا في ملامحه إلى أبعد الحدود؛ ساترا ما قد يظهر منهم على أنهم في مهمة:

- ممتاز هذا الذي أرقْت به لعابنا، فتلمظناه بسرعة في محل العصير، ولكن بدون هذا الذي تُسمونه بـ(الروم).

تحرك جذع النادل بضحكة مكتومة، وقال:

- نرحب بكم في مقهانا، ونرجو أن تسنح لكم فرصة أخرى؛ تقصدون فيها جزرنا المضيافة.

اِزدردوا العصائر؛ في حقيقة الأمر كانت حناجرهم وبطونهم ظمآنة بعد مدة سفر بحري طويلة إليها، وقد انتعشوا بها،

---

[3] (الروم؛ Rhum): عصير كحولي محضر من دبس السكر، وعصير قصب السكر، والكحول؛ أصله من جزر (الكارايب).

وتشجعوا بجلوسهم ذاك في المقهى، وبتقديم مما يُعصر من فواكه الجزر المدارية إليهم؛ وبدأوا يعتادون بوجودهم في الجزيرة، وتحمسوا أكثر إلى استدراج جزاز العشب إلى الكثير من الكلام.

كان النادل قد رجع إليهم بتِرحاب تفقّدي؛ قال:

- هل ترغبون في شيء آخر؟

كان الذي أجاب نيابة عنهما أمجد؛ قال:

- لا أكون مخطئا؛ إذا قلت إنك تدري جيدا ما نحن في حاجة إليه في هذه الليلة.

قال النادل بخفة في معرفة ما يعنيه أمجد:

- عشاء فاخر، ومبيت مريح.

قال أمجد ماسكا النادل بما تنبه إليه:

- بالضبط، فسياحتنا لهذه الجزيرة لا تتعدى مدتها يومين.

كان النُّزل غير بعيد، والنادل هو الذي تقدمهما إلى إدارته، ولم يرفع كاتب الفندق عينيه في السياح، لم تتعديا أوراق الدولار التي حَسَب مبلغها، فكان أن بات الثلاثة من جماعة أسعد ليلتهم ببطون مُتعشية، وبأسِرّة وثيرة؛ اِرتاحت عليها ضُلوعهم، وأطرافهم السفلى؛ في الغد؛ في الصباح الباكر؛ توجهوا إلى محيط مطعم (دار البحر)، وقد سمعوا من بعيد ضربات شفرات مقص التشذيب في أغصان وأوراق شُجيرات التسييج، فألقوا بنظراتهم إلى رجل في سن الخمسين من عمره تقريبا؛ طويل؛ عريض الكتفين؛ من سكان جزر (هاواي) الأصليين؛ ماض دون أن يُلهيه أي شيء آخر عن عمله؛ لم

يكن ما يُشذبه، أو يجُز عُشبه؛ في ساحة المطعم، وإنما كان في ساحة بناية أخرى قريبة منه؛ اقتربوا منه، وظلوا واقفين؛ ينظرون إلى ما يهذبه بعناية، وبفنية في تشكيل الحاجز المشجر؛ قال له أمجد:

– إنك تتفنن في عملك؛ إنك تُبدع في الحقيقة لوحة؛ تُسعد الناظرين؛ وتمنحهم فرصة استرخاء لنفوسهم.

قال جزاز العشب:

– أشكرك من أعماقي؛ صادقا فيما شعرتُ به؛ إن كلماتك حافز؛ تلغي بالإحساس بها كل مقابل مادي.

بعد لحظة صمت؛ سألهم:

– من أي بلاد أنتم؟

أجاب رائد بغير وجل:

– من ساحل شمال إفريقيا الغربي.

قال مُشذب الأشجار:

– إنكم أنتم أيضا تُقاومون مثلنا من أجل البقاء.

نظر أفراد الجماعة المخترقة لنظام مراقبة الجزيرة؛ في بعضهم البعض؛ سأله بسام؛ وقد وجد فرصة في التمهيد لاستدراجه:

– هل تقصد أن شعبكم مهدد في وجوده؟

أجاب الرجل قائلا:

– كانت قد زحفت علينا شعوب ما وراء البحر، منذ مئات من السنين، فهُجّنت أصولنا، ولغتنا؛ بل إن أصل لغتنا في طريقها إلى الانقراض...

سكت، ووضع المقص على شجر الحاجز المهذب، وقال:

- الحديث يطول في هذا الموضوع، وجلوسنا إلى مائدة يمنح لنا وقتا لذلك؛ هيا تقدموا؛ فإني مضيفكم على أكواب من مشروبات تكون قد اخترتم منها ما تشتاقون إليه... هيا إلى ساحة مطعم (دار البحر) المطلة على خليج (ناپيلي).

كان في دعوة الرجل الجزاز لهم فرصة ذهبية، وعلى المائدة سأله رائد قائلا:

- إن في الشعور بالهوية إجراء وجودي.

قال الرجل المهذِّب للعشب:

- لا يخفى علينا، ولا نغفل، ولا نتغافل عما يُخططون له، وما يفعلونه.

سأله بسام؛ وإن عرف قليلا مما يعني الرجل:

- من هؤلاء؟

أجاب الرجل بدون تباطؤ:

- الذين قدِموا إلى جزرنا غُزاةً، ويديرون شؤونها من موقع قوة...

لم يستمر في جوابه، وأطلق ناظريه هناك بعيدا، ثم عاد وقال:

- لا يخلو مكان من أحد حريص على أن لا يظل بين أولئك؛ مُواطنا من الدرجة الثانية؛ فإنهم ينظرون إليه دائما بذلك؛ فلا يُواجه إلا بالتعالي عليه، ولا أخاف إذا أسررت إليكم بأن جماعة من لهم حس للانتماء، ورفض كل أشكال الاستصغار؛ يمتد مجال مقاومتها بوسائل عديدة من بحار شمال شرق آسيا إلى جنوبها؛ وإلى هذه الجزر، فإن أفرادها في

تجسس دائم على أفعال أولئك؛ ليل؛ نهار؛ وإذا أردتم أن تقابلوا واحدا منهم، فإني مُرشدكم إليه، ولكن من وراء سِتر؛ اسمه (كوا؛ Koa)؛ تعني في لغة جزر هواي الأصلية (المُحارب).

في كوخ صيد؛ مبني بين أشجار، ونخيل؛ مدخله محجوب بسِتارة؛ تكلم العنصر في الجماعة المراقِبة لتحركات القاهرين بتفوقهم في وسائلهم، وأدواتهم، وآلاتهم؛ قال:

- لا وقت لي لكم، وكثرة الكلام يُضعِف العزائم، فأختصر، فأقول: إننا نترصد لغواصات تتحدد مهمتها في التجسس على جزر غرب المحيط الهادئ، وعلى دول ساحل آسيا الشرقي، وهي في قواعدها تتجهز للانطلاق، أو في غطسها التهييئي؛ نقتل جميع أفراد طاقمها بعدة أشياء؛ نفكر في مدى نجاحنا فيها؛ قد تكون بسيطة، ومحدودة؛ لا تطرأ على بال المتفوق والمهيمن، وكان آخر ما نفذناه هو صحون سممناها في مصنع بقارة آسيا، وقتلت طاقم غواصة لم تتعد في غطسها الإحداثيتين: 3 درجات و55 دقيقة عرضا، و55 درجة و159 دقيقة طولا، وقد تتبعنا اللذين بُعث بهما لطلبها خصيصا للغواصة؛ انطلاقا من هنا؛ كنا تبثنا جهاز تسجيل؛ تحت مائدة جلس إليها اثنان من الغواصة، والتقطنا من كلامهما الذي تبادلاه؛ تكليف أولئك الاثنين بذلك، وفي جزيرة (سالومون)، عندما كان هذان يتعشيان على أكلة صينية؛ حضرها آسيوي في مقهى ملحق، قد نطقا بمحطتهم الثالثة وهي جزيرة (بيسكادور)؛ ملتقطة بجهاز ألصقه

الآسيوي تحت مائدتهما في تلك الليلة، وفيها كان عنصر في شبكة المراقبة يرصُد نزولهما من الطائرة؛ أخبر بهما من كان في داخل (هونغ كونغ)، وهو الذي تتبع خطواتهما إلى دكان الخزف؛ فكان أن طلبا من صاحبه الصحون، وكان هو قد تسلم بعد أسبوع السلعة القاتلة... إني لا أخاف من أن يُثرثَر بهذا إلى أحد؛ وهذا يُخبر به آخر، وهذا الأخير ينقله وشاية بنا؛ إلى الذين وضعوا أيديهم على جزرِنا، ويعملون على طمس هويتنا؛ إننا نعمل تطبيقا لفكرة، إذن فإننا موجودون.

بعد فترة سكوت قصيرة؛ قال:

- لقد أُخبِرت من أي بلاد أنتم... رافقكتم السلامة في عودتكم إليها، فهي الوطن الأم.

تراجع الثلاثة عن الكوخ؛ مُخففين الوطء؛ وما كادوا يديرون ظهورهم إلى المدخل المستور؛ حتى سمعوا صيحة قوية... صيحة غضبة... صيحة مناداة؛ ذهبت بعيدا في المحيط، فالتفتوا إلى الجهة التي أتت إليهم منها، فرأوا رجلا طويلا؛ ممتلئا؛ مفتول عضلات ذراعيه؛ بسمرة الجزر المدارية؛ يرفع يديه إلى أعلى؛ قال لهم (كاو):

- إنه (كوا)؛ تطمئن نفسه الحزينة دائما؛ إلى المحيط الشاسع؛ إلى جُزره المنتشرة؛ إلى شعاب أعماقه، إلى الأمواج التي خاضها قومُه؛ يرفع عينيه المتطلعتين إلى قرص الشمس المشرق دائما... يشكو حال شعبه إلى الأسلاف.

تملكهم شعور غريب؛ لم يتملكهم من قبل؛ بمثل رهبة؛ عطف؛ حزن؛ أسى؛ هل على شعب ينقرض؟ هذه أرضه

ابتلعتها الحيطان الأسمنتية؛ لم يتعال فيها إلا الرأسماليين؛ للاستثمار في سياحة مُدهْورِةِ لعُذرية جزر المحيط الهادئ.

قال رائد بألم في نفسه:

- إن (كوا) من قوم قد يموت؛ أو قضى فعلا، وأولئك يحيون، ويحيون؛ على جميع المستويات.

قال أمجد بحلم متفائل:

- هل يكون (المحارب) باعثَ شعبه؛ في هويته، وفي لغته، وفي تحرير نخيل، وأشجار، وزهور، ومرجان، ومثمرات الفاكهة المدارية؛ وتراب جزره؛ من الغازي المترف؛ العابثِ في استخفاف بهويات الشعوب المُفتقِرة.

قال بسام بتحد واقعي:

- كان فيما شاهدناه، وسمعناه؛ جماعة بشرية تتعاظم بما تفوقت فيه، وأخرى تقاوم مُستصغرة.

قال أمجد مُعلنا عن نهاية المهمة التي جاءوا من أجلها إلى الجزيرة:

- ليس بعدما سمعنا من (كاوا)؛ كان قصة الصحون المسمومة الحقيقية؛ إلا أن نودع هذه الجزيرة؛ في أول وقت من منتصف الليل.

قال لهم (كوا)، وقد أدرك حقيقة دخولهم إلى الجزيرة:

- مني مُؤازرة لكم؛ تجعلكم بعيدين عن أي راصد لكم؛ يُلاحقكم، فهذا بيتي ملاذ؛ فإنكم قد استجرتم بي، وواجبي أن أجيركم؛ حتى يحين وقت المغادرة، وليس لشعب هذه الجزر المترامية في الماء المحيط؛ صيت حسن؛ إذا لم يتكتم

مُنتميٌّ إليه؛ وجود ضيوف عنده، وليس في سعيهم إلا فضيلة الفطرة الإنسانية.

شكره الثلاثة؛ وظلوا مجتمعين به في ذلك البيت الخشبي؛ الذي بُني في مكان تحيط به غابة من النخيل والأشجار، والزهور المدارية؛ ما تزال ثابتة الجذور الأصيلة، إلى أن غربت الشمس؛ وتتالت ساعات الليل؛ فحان الوقت الذي ودع فيه الثلاثة صديقهم (البحر)، وقصدو خليج (ناپيلي)؛ قريبا من مد أمواجه؛ استدعى بسام القاطرات بآلة التحكم؛ المحزوم إليها عتاد الغطس، فأتت إليهم على استحياء؛ تعرّوا من ألبستهم المنسوجة، ولبسوا أغشيتهم المائية؛ وتركوا أنفسهم لفعل المراوح الإلكترونية؛ شادين إلى مقابضها بحرص شديد؛ راحلة بهم بعيدا عن شواطئ جزيرة (المحارب)؛ راجعة بهم إلى حِجر الغواصة (أنقليس 1).

نظر أسعد ورهف وريم إلى الثلاثة المغامرين؛ العائدين غانمين الحكاية الكاملة لغواصة التجسس؛ وقتلِ طاقمها بالصحون المسمومة، وغرقِها؛ كان الذي تحركت شفتاه هو أمجد قال:

- حَطَبنا الكثير؛ فذلك كان تنظيما سريا؛ قد لا يُعرف أعضاؤه النشيطين دائما، وله تنفيذات مستقبلية رهيبة؛ رادعة؛ إنه من أجل تحرير أرض، وبقاء شعب؛ بإثنيته الأصلية، وبلغته، وبتاريخه، وبثقافته؛ فالمتطلب بعد رحلة التحقيق هذه، هو تحرير تقرير مفصل؛ يقرأه الجميع بترو، وبتمعن؛ فتكون الاستفادة، والاستعبار، واستيقاء تجارب

الأمم المناضلة؛ حاضرة دائما في الأذهان؛ كما يحتفظ بها التاريخ عبر العصور.

قال أسعد بمسؤولية:

– أذِنت لكم بتحرير التقرير.

وقد صيغ التقرير بتفاصيل الرحلة، وبلقاء الشخصين من أهالي الجزيرة، وبما حُكي عليهم، فكان استخلاصهم من كل ذلك؛ الحكايةَ الحقيقية للغواصة الغارقة؛ وطاقمها المقتول بصحون مرسومة، وُمزوقة؛ بأشكال مُبهرة، وبخطوط مُذهبة؛ مُبرقة؛ تُشعر بالتباهي، والتفاخر، والتعالي.

قالت رهف مُحذرة:

– إياكم والصحون المذهبة ذات الوميض؛ ففيها السمّ الزُّعَاف.

نطق أسعد بقول تشوقوا إليه جميعا، وإن كان في صيغة الأمر؛ فيه إشعار بتأهب، ومسؤولية، وتكليف، وعمل مضن طويل:

– لقد حانت ساعة العودة إلى المحيط الأطلنتي؛ إلى شرقه؛ إلى ساحل إفريقيا.

فأخذت بهم الغواصة ذلك الاتجاه؛ مُبرمَجة إليه، الذي يقودهم إلى مضيق (ماجلان)، وإلى ما بعده إلى الشرق.

الفصل السادس

مزرعة اللؤلؤ الأسود

إلى أي محيط، أو بحر، أو مُسطح مائي يُتيح عمقُه للغواصة (أنقليس 1) الغطس فيه؛ سيقرر أفراد الطاقم الخوض فيه؟ كان طبعا الذي نشر الخريطة أمامهم؛ ليُعينوا عليها الجهة من ماء الكرة الأرضية؛ التي سيختارون التوجه إليها؛ هو رائد، وانتظر ساكتا؛ ناظرا في وجوههم؛ أن ينطق أحد منهم، فلم يكن من بينهم أي أحد، لأنهم رأوا ما لُون بالأزرق رمزا للمساحة المائية العالمية واحد، لم يلاحظوا ما يُميز أحدها، فهم إن عينوها؛ فلا سبيل إليها إلا الدخول فيها؛ اِبتسم رائد؛ لأن لديه ما يُخرجهم من حيرتهم في الاختيار؛ قال؛ مُشيرا برأس العصا المعدنية إلى مكان بالخريطة:

– هذا المحيط الهندي؛ مُحاط بأربع قارات؛ إلى الشمال الغربي منه القارة الإفريقية، وإلى شماله القارة الآسيوية، وإلى جنوبه الشرقي القارة الأسترالية، وإلى جنوبه المحيط المتجمد الجنوبي؛ في الشمال الغربي منه مجموعة من الجزر؛ تفصلها عن ساحل القارة الإفريقية الجنوبي الشرقي قناة (الموزمبيق)؛ وهي كالتالي من الشمال إلى الجنوب: جزر (سيشيل)، وجزر (إكستريور)، وجزر (القُمر)، وجزيرة (مايوت)، والجزيرة الكبرى في مجموعة هذه الجزر هي (مدغشقر)، وجزيرة (موريس)، وجزيرة (رونيون)؛ هي قريبة من بعضها البعض في تلك الجهة الشمالية الغربية من المحيط الهندي؛ فهي بذلك

تشكل وحدة جغرافية؛ فإني أرى أن نقوم برحلة إليها؛ حتما سنُصادف هناك ما نجهله.

قال أمجد، وقد تحمس بعرض رائد لجغرافية جزر الشرق من القارة الإفريقية:

- كنتَ مُوفقا في اختيارك.

قال أسعد مُستشيرا بقية الأفراد، وهو بذلك يكون مُوافقا ضِمنا:

- ما رأي الآخرين؟

نطقوا جميعا مُجيبين على السؤال؛ قائلين:

- موافقون.

قال أسعد؛ مُعطيا أمرا بالانطلاق في رحلة الغوص إلى تلك الجزر:

- إذن؛ في صباح الغد الباكر؛ تكون أذهاننا مستريحة؛ ومُستوعبة للأمور بحيوية؛ وأدمغتنا مرتاحة؛ فطنة؛ نتحرك؛ خارجين من رصيف النفق.

خَطُّ سير الغواصة؛ تكسّر بإحداثيات الجزر، والرؤوس القارية التالية: من القاعدة إلى جزيرة (فويرتيفانتورا)؛ إحدى جزر (الكناري)، ومن هذه إلى جزيرة (مايو)؛ إحدى جزر الرأس الأخضر، ومن هذه إلى جزيرة (سانت هيلين)، ومن هذه إلى رأس (أقولاس)؛ في أقصى جنوب القارة الإفريقية، ومن هذا إلى (الرأس الكاذب)؛ في أقصى جنوب جزيرة (مدغشقر)، ومن هذا ستكون الغواصة تسير من الجنوب إلى الشمال؛ من جزيرة (رونيون)؛ إلى جزيرة (موريس)؛ ومن هذه

إلى جزر (سيشيل)؛ التي ستكون في أقصى وجهة أفراد الطاقم في رحلتهم؛ ليقفلوا منها عائدين؛ إلى بقية جزر شرق ساحل إفريقيا؛ بُرمج هذا المسار للغواصة؛ فغاصت بهم في مياه المحيط الأطلنتي، ثم في المحيط الهادئ، ولا تطفو على السطح -كما جرت به العادة- إلا لتعبئة البطاريات بأشعة الشمس، أو لتَوقِّف في إحدى تلك الجزر، أو في تلك الرؤوس القارية؛ للاستجمام لفترة قصيرة؛ قد لا تتعدى ساعتين، وللتزوّد بالماء العذب، وبالمؤونة.

رحلة الغوص هذه هي الثانية من حيث طول المسافة؛ بعد تلك التي قاموا بها إلى جزر وسط المحيط الهادئ؛ فهم يبتعدون عن رصيف قاعدتهم الباطنية بمئات الأميال البحرية، ويتوقفون في جزيرة، أو في ساحل قارة؛ يلتقون بها بأفراد من أقوامها؛ يختلفون في ملامحهم، وهوياتهم، وثقافتهم؛ يشتركون في الاحساس بالانتماء، ويقاومون من أجل البقاء، والمحافظة على لغاتهم الأصلية، وعاداتهم، وتقاليدهم الثقافية، وتغطس بهم الغواصة في مياه مختلفة العمق، والبيئة البحرية؛ فيكونون قد لاحظوا الاختلاف بين الشعوب، والتشابه بينهم؛ كونهم ينحدرون من هذا الإنسان؛ في تقلبات أحاسيسه، ومشاعره، ورغباته، وفي شجاعته، وخوفه، وحزنه، وسعادته، وفي طموحه، وجشعه، وتسلطه، وما فيه أهمية هو أنهم يكتشفون أشياء، وأنشطة يومية؛ سبيلا للعيش، والحياة؛ قد لا يجدونها، في مكان آخر من الكرة الأرضية، أو لا يعثرون عليها على الإطلاق، وهم يتقدمون إلى الشمال؛ حيث آخر جزر شرق

إفريقيا؛ هل سيكون في عمق الماء المحيط بها العجيب من الطبيعة، أو من فعل الإنسان؛ سيبرز لهم في أجهزة التقاط الصوت، أو الصورة والصوت معا؟ إنهم جميعا بإحساس بأن غوصهم لن يكون فارغا، وسيُصادفون ما يتطلب منهم الكشف عن ماهيته، وعن أي غرض هو موجود، أو وُجد، وقد دارت بهم الغواصة حول آخر جزيرة في ذلك الاتجاه، وهي جزيرة (الطيور)؛ إحدى جزر (سيشيل)، وأخذت اتجاه الجنوب؛ وكان قد بُرمج للغواصة خط رجوع مُخالف للأول، وهو المرور على جزر شمال غرب جزيرة (مدغشقر)، وسلوك قناة (الموزمبيق) المائية، إلا أنهم، وعند اقترابهم من جزيرة (الشمال)؛ صوّت لهم جهاز الكشف عن شيء معدني؛ قال لهم أسعد بابتسامة، وبهدوء:

– أي شيء من معدن هذا؟ إنه في عمق مئات من الأمتار.

قال بسام مُؤكدا كلام أسعد:

– نعم إنه بالفعل في مكان عميق جدا.

قال أسعد طالبا من أفراد الفريق:

– هل يتفضل أحد منكم، فيفحص الأجهزة اللاقطة للصوت والصورة، والسابرة للأجسام؛ ليقول لنا ما طبيعة هذا الجسم.

كان رائد من استنطق الأجهزة الحساسة جدا؛ فكانت مُستجيبة له؛ فأظهرت كومة من شيء لا شكل واضح له؛ شيء متراكم على بعضه البعض؛ مُحاط أولا بالأعشاب البحرية؛ الطويلة الأغصان، والعريضة الأوراق، ومُغلف ثانيا

بالكامل بالطحالب، والقشريات، واليرقات؛ قال أمجد؛ حاثا الجميع على المضي سريعا؛ في تحديد ماهية هذا الشيء الغامض:

- لِتُقرب لنا العدسات هذا الشيء.

كان من الأجهزة المتقدمة التي زُودت بها الغواصة؛ لاقط ميكروسكوب؛ يكبر الأشياء مئات المرات؛ فكان هو الذي استُعمل؛ أبدى لهم ذلك الشيء مركبا من أشكال دائرية إلى حد ما؛ مُنتظمة في صفوف أفقية؛ مُلحمة فيما بينها بالطَّحالب، والقِشْريات؛ فدقق كل واحد منهم النظر فيها، فكان أول من تكلم منهم؛ هي رهف؛ قائلة بيقين:

- إنها أصداف محار.

طرح أسعد سؤالا؛ انطلاقا مما قالته رهف:

- وما المعدن الذي فيها صوّت به جهاز كشف المعادن؟

زاد بسام في سلم التكبير الإلكتروني، فظهرت لهم خيوط شِباك؛ تنتظم فيها أصداف المحارات؛ قالت ريم انطلاقا مما لاحظته:

- إنها أسلاك حديدية... إنها حِبالات حديدية.

قال رائد مُوضحا أكثر:

- إنها مستطيلة الشكل؛ وهي متراكمة على بعضها البعض في فوضوية.

قال أمجد وقد أعمل فيها نظره الحاد كالآخرين:

- إنها في غير انتظام... إنها مرمية في قاع البحر... إنها من فعل الإنسان.

قال بسام مُكتشفا شكلا أخر:

- ألم تلاحظوا شيئا آخر بجانبها؟

وبالرغم من محاولة الآخرين في فحصه بدقة، فإنهم لم يحددوه؛ حينئذ قال بسام:

- إنها أثقال؛ رُبطت إليها الشباك من الخيوط المعدنية؛ إما أسمنتية، أو من مَصبُوب معدني، أو مادة أخرى.

سكت الجميع، ولم يعد أحد منهم ينطق بكلام آخر؛ إلا رهف، فقد قالت بصوت مرتفع:

- إنها شباك تحبس ما بين قضبانها وأسلاكها المحارات في صفوف منتظمة، إنها من ابتكار الإنسان... إنها تُعلق من طرفه في الماء... إنها محارات مزروعة... إنها استزراع للؤلؤ.

نظر الجميع إليها مُعجبين باستنتاجها الباهر؛ من دراستها لشكل ذلك الشيء، فلولا ثقافتها الواسعة في علم الأحياء بعامة؛ وللكائنات البحرية بخاصة، واستغلال الإنسان لها في استخراج أشياء ثمينة؛ لما توصلت إلى ذلك.

وجّهت ريم سؤالا إلى رهف؛ قائلة:

- هل ضروري أن تُعلّق؟

أجابت رهف متأكدة مما تقول:

- نعم؛ تظل مُعلقة في ماء خلال مدة زمنية قد تتعدى سنتين.

قال رائد مُتعمقا في الذي يمكن أنه قد حدث؛ انطلاقا من كلام رهف:

- إذن؛ يعني العمق الذي عثرنا عليها فيه، والأثقال أنها مُغرقة بفاعل.

قال أسعد دامجا الجميع في عملية لا بد منها للكشف عن حقيقة هذه الشباك، وهذه المحارات:

- فليفكر الجميع في مراحل لعملية نعرف بها الحقيقة.

قال أمجد مُحفزا الجميع على المضي سريعا في تلك العملية:

- إننا نتكلم الآن في شيء لا وجودا ملموسا له بين أيدينا.

أمر أسعد قائلا:

- ليستعد اثنان منكم للغطس إلى تلك الشباك، ومحاراتها.

قال بسام بحماس:

- أنا، ورهف؛ نُعاين ذلك عن قرب، ونأخذ عينات منه.

قال رائد مُشجعا إياهما:

- لِرهف علم بكيفيات معرفة حياة الأعماق، وأنت يا بسام غطاس ماهر، ولديك معرفة جيدة بقواعد الغطس، وبطرق الحماية من مخاطره، وبكيفيات الإغاثة.

خرجا من الحوض المائي المرحلي، وقصدا الكومة من المحارات، والشباك الحديدية، وشرعا في كشط ما علق بها من الطحالب والعوالق؛ فبيّنا لنفسيهما محارات منتظمة في صفوف؛ تنطبق عليها عيون شبكة من أسلاك معدنية؛ مقاومة للصدأ؛ حَرّرا محارة، وقطّعا سلكا قصيرا، وحملهما معهما عينتين لفحصهما في المختبر.

رجعا إلى الغواصة بنجاح؛ وكانت تجربة في الغوص تلك؛ خاضاها في بيئة مائية لها طبيعتها؛ تكون لها تحديات؛ بعد

ذلك اِتجه فريق العمل إلى طاولة الفحص؛ أول ما فعله أسعد هو تأريخ غرق مزرعة اللؤلؤ؛ ففي العينتين ما يُحلل كيمائيا؛ فيُستنتج كم سنة مرت على إنشاء تلك المزرعة، وعلى إغراقها؛ قال وهو يُديم النظر في المادة المعالجة:

- سنتان، وهذه المزرعة بمحاراتها وشباكها؛ غارقة في هذا العمق.

ألقى أمجد بسؤال؛ الإجابة عنه يُثبت ما استنتجته رهف من قبل:

- حان الوقت لفحص المحارة.

قالت ريم ناظرة إلى رهف بصرامة:

- هذا من اختصاص رهف.

هناك قليل من الرهبة تملّك رهف، ولكنها سرعان ما تغلبت عليه، وتناولت مكشطا، وسكينا حاد الرأس؛ وشرعت في تنقية المحارة من الشوائب البحرية؛ الملتصقة بها؛ وخاصة على حافتي القوقعتين الملتحمتين، ثم باعدت بين هذين برأس السكين؛ فظهر للجميع جسم المحارة الحي؛ قالت رهف؛ ناطقة بأجزاء منها؛ ظهرت لها بالعين المجردة:

- هذه خياشيمها للتنفس، وهذا مفصلها، وهذه أعصاب، وهذا وعاء دموي، وهذه عضلة، وهذا رداؤها.

ومنحت للأصدقاء مدة للنظر بإمعان في الجسم الحي؛ ثم أقحمتهم بسؤال في عملية دراستها له؛ قائلة:

- ألم تلاحظوا شيئا ما في المحارة؟

أجابوا جميعا بعد تأمل طويل في جسم المحارة:

- لا.

سألها بسام بعينين فُضولتيبن:

- إذا ما بدا لك، ولم يبدو لنا نحن فإنك عالمة أحياء ضليعة.

قالت لهم مشيرة بطرف السكين إلى لحمة من الكائن:

- إن لها لون أسود.

تلقت منهم جميعا كلمة: (نعم).

قالت؛ ناسجة لهم لغزا:

- في أي شيء يلعب دورا حاسما في تكوين لؤلؤة في داخل كائن المحارة؟

لم يتفوه أي واحد منهم بأي كلمة، وصبوا نظراتهم المبهورة على رهف منتظرين الإجابة عن سؤالها؛ قالت:

- إن ما أجيب عنه هو الجزء الرئيس في قصة مزرعة اللؤلؤ؛ إن هذا النوع من المحار هو الذي يُنتج لؤلؤا بلون رمادي يميل إلى الأسود؛ تكون له قيمة بذلك.

سألها بسام، وهو يتعجل ما إذا كان في المحار لؤلؤ؛ قائلا:

- هل في هذه المحارة لؤلؤة؟

قالت بثقة مما تتفوه به:

- نعم؛ لؤلؤة سوداء اللون.

وغرست رأس السكين في أحشاء المحارة، وأخرجت منها لؤلؤة يميل لونها إلى الأسود، فانبهر الجميع؛ قال أسعد مُتسائلا:

- مَنْ صاحب، أو أصحاب هذه المحارات المنتجة للؤلؤ أسود؟ ولماذا أُغرقت بثُقّالات من الأسمنت؛ في قاع المحيط... ما هي حكايتها الحقيقية؟

قال رائد، وقد رأى فيما تتكون منها المزرعة الغارقة؛ من محار من نوع يفرز لؤلؤا متميزا، وقضبانٍ، وأسلاكٍ مختلفة الحجم والطول:

- هل في مزرعة اللؤلؤ ما يمنحنا طرفا من خيط يقودنا إلى معرفة حكايتها؟

قال أمجد مُشاطرا رائد فيما يعني القيام به:

- أنا أشاطرك فيما تقصد بسؤالك؛ لا بد من غطسة للتنقيب في مُكونات المزرعة.

قال أسعد باستعداد تام للغوص من أجل ذلك الغرض:

- إن العملية تندرج في أركيولوجية الأعماق؛ فليدعمني فيها رائد، وبسام.

غاصا الثلاثة؛ يحمل أسعد أدوات كشط، وحفر، ونبش، وأكياس بلاستيكية لمواد ضرورية لمعرفة ما أحاط بإغراق المزرعة، وفي يد بسام مصباح يدوي (تحتمائي)، وتُمسك يدا رائد مصورة، وكاميرا، فصار أسعد بحدس علمي يفحص أجزاء المزرعة؛ حتى عثر على صفيحة من معدن الفولاذ؛ محفور فيها باللغة الإنجليزية: (Ocean Pearl Farm Indian)؛ أي باللغة العربية: (مزرعة لؤلؤ المحيط الهندي)، وتحت هذا الاسم الذي أُعطي لمزرعة اللؤلؤ نقشٌ آخر هو (*Mr. Esparon*)؛ بخط مائل؛ أي باللغة العربية: (السيد

إسبرون)، وتحت هذا كتابة أخرى نُقشت بين قوسن، وهي: (Island 4°35S-55°64E)؛ أشار أسعد لرائد بالاقتراب بزاوية مُواتية؛ آمرا إياه بأخذ صورة فوتوغرافية للصفيحة المحفورة بالكتابة، وتصويرها بالكاميرا، ثم حرك يديه بإشارة العودة إلى الغواصة؛ وفي حجرة المختبر؛ عُرضت على الجميع على الشاشة صورة الصفيحة المحفورة بمعلومات عن مزرعة اللؤلؤ؛ مُكبرة بحجم أتاح لهم تدقيق أنظارهم فيها بدون غموض؛ قال أمجد وقد اتضحت له الكتابة، وفهم القصد منها:

– إنها مزرعة اللؤلؤ الاصطناعي؛ أُعطي لها اسم هو: (مزرعة لؤلؤ المحيط الهندي)؛ نُسبت للماء المحيط الذي تُنصب فيه الشباك الحديدية الماسكة للمحار؛ المستزرعة في أحشائه ذرات؛ تتحول فيما بعد إلى حبات من اللؤلؤ؛ بأحجام مقبولة؛ ولم يغفل صاحبها عن الإشارة إلى اسمه؛ فحفره كذلك، وهو (السيد إسبرون)؛ وإلى موقع الجزيرة التي –في ماء شاطئها– عُلق المحار؛ لمدة معينة لجني اللؤلؤ؛ محدد بخط عرض، وهو 4 درجات، و35 دقيقة؛ جنوب خط الاستواء، وخط طول، وهو 55 درجة، و64 دقيقة؛ شرق خط (گرينيتش).

قال بسام انطلاقا من قراءة أمجد لكتابة الصفيحة:

– إذن؛ نكتب تلك الإحداثيات في محرك البحث في الخريطة الإلكترونية؛ لتشير هذه الأخيرة إلى الجزيرة.

قال أسعد آمرا بسام:

- وما يؤخرك عن هذا؟ فهلم إلى ما أنت خبير فيه، ومُتحمس إليه.

أشارت الخريطة الإلكترونية إلى الجزيرة التي بحث عنها بسام بالدرجات والدقائق؛ جنوب وشرق الخطين الجغرافيين الوهميين؛ العرض، والطول؛ فلتلك الجزيرة اسم هو (كوزين)؛ تقع إلى الجنوب الشرقي؛ من الجزيرة الثانية في مساحة جزر سيشيل، وهي جزيرة (براسلين).

قالت ريم، وقد اتضح لها ما يمكن عمله لاستجلاء ما يزال خفيا في أمر المحار المغرق:

- هل نهتدي إلى هذا الشخص المحفور اسمه في الصفيحة؛ إذا دخلنا إلى هذه الجزيرة؟

قال رائد واضعا بداية خطة:

- ذلك ما بدا لنا جميعا، وهو الذهاب أولا إلى تلك الجزيرة؛ للبحث عن أحد اسمه (إسبرون)؛

قال أمجد مُحذرا من البوح أكثر من اللازم؛ فقد يكون فيه خطر:

- دون ذكر مصدر اسمه؛ حتى نتأكد من أن الذي سنعثر عليه هو فعلا السيد (إسبرون)، وأن هو الذي حملت الصفيحة اسمه؛ وحملت كذلك اسم مزرعة لمحار اللؤلؤ.

قالت ريم مُذكرة إياهم بما يتطلب منهم أن يأخذوه بعين الاعتبار:

– والحذر أيضا في النزول إلى الجزيرة؛ فقد تكون قوات خفر السواحل آخذةً مواقعها، أو عيون مراقبة تترصد لغريب قادم من المحيط.

سألهم أسعد؛ زاحفا بهم إلى الأمام:

– هل حان الوقت للتوجه إلى جزيرة (كوسين)؟

قال رائد، وقد فكر في أول خطوة هناك:

– بعد أن تطأ أقدام من سيُعيَّن للعملية البرية؛ رمال شاطئ (كوسين)؛ فليس أي شخص يمكن الوثوق به؛ ليُسأل أين يوجد السيد (إسبرون).

قال أمجد انطلاقا من تجاربه في الحياة:

– إن الذي نرى أنه مناسب ليُسأل أين مكان السيد (إسبرون)؛ لا يكون إلا أنه يشتغل بحرفة بحرية؛ كبحار في مركب صيد؛ أو صياد بالقصبة والشص، أو يعمل بفندق، أو مطعم، أو مقهى شاطئي، أو جانٍ لمحاصيل الجزيرة؛ فهؤلاء من طبقة اجتماعية؛ يتسمعون أخبار الناس، ويستخبرون عنها، وينقلونها فيما بينهم؛ في لقاءاتهم المتعددة بالكثير من الناس، ولحسن نية فيهم في الغالب.

قال أسعد مُتخذا قرارا، وآمرا به:

– إذن؛ للذين سيُبعث بهم للبحث عن السيد (إسبرون)؛ في أحد من أولئك؛ وسيلتهم إليه.

كانت تمر دقائق صمت؛ لقد تحدث أفراد طاقم الغواصة بما يكفي عن مزرعة اللؤلؤ، وتوصلوا إلى الكيفية لاستجلاء قصتها الخفية، والتي ما تزال مستغلقة عنهم؛ وآن الأوان عند

سؤال أسعد لهم عنه في سابق حديثه، فأمر بصفته القائد؛ قائلا:

- ليُتوجّه بالغواصة إلى جزيرة (كوسين).

فأدارت محركات الدفع المراوح؛ فحركت هذه الأخيرة الغواصة؛ وساقتها في عمق الماء؛ بسرعة فائقة؛ مُراوغة لكل جسم بمجساتها الحساسة، والمتفادية بالهيكل الغائص في آخر لحظة مما يُعيقها، أو تصطدم به؛ إلى أن بدا للجميع ساحل الجزيرة؛ وما يُغطيه من الرمل، وغابات من أشجار عالية، ونباتات قصيرة؛ قال لهم أسعد بخُطوة حذرة:

- إننا نحتاج إلى هذه المسافة المتبقية لقطعها إلى الجزيرة؛ لنُبقي الغواصة بعيدة عن أي عملية رصد، فلنتوقف عند هذا الحد، ولنجتمع لنُعين من هم الذين سيذهبون للبحث عن صاحب اسم (إسبرون). في حجرة الاِجتماع قال أسعد مُمهدا لاختيار أولئك:

- ماذا ترون في أمجد؛ هو الأول المختار للفريق؛ لتجاربه المديدة؟

قالوا جميعا بدون تردد:

- نُصوت له جميعا.

استمر أسعد في النظر في وجوه أصدقائه، وقال:

- أحد منكم يختار الثاني.

قالت رهف التي كانت تعرف مسبقا أنها لن تكون مختارة للعملية:

– ريم؛ طبيبة الرحلة؛ من يدري فقد تتشعب مسالك الجزيرة بالباحثين عن صاحب اللؤلؤ.

نطق بسام رافعا عينيه في رائد:

– رائد؛ الدارس لجغرافية الجزر الطبيعية والبشرية.

قال أسعد مُقررا وخاتما للمجلس:

– إذن فقد كوّنا فريقا مُتكاملا في مؤهلات أفراده: أمجد، وريم، ورائد، فإليهم الغواصة البرمائية، فليمتطوها؛ ناقلة إياهم إلى مياه شاطئ الجزيرة.

فهم قد تدربوا جميعا على توجيه مركبتيهم؛ ببرمجة طريق سلوكهما عمق الماء، واتجاههما إلى المكان المراد الوصول إليه؛ فكانت الصغيرة الإلكترونية البرمائية؛ تغادر جراب الكنغر الأم؛ مُتجهة بالثلاثة إلى أحد شطآن جزيرة (كوسين) الصخرية؛ لماذا؟ الجواب هو أن الشاطئ لا بد أن يكون بصخر، وليس برمل؛ إذا كان بصخر فهو المدخل إلى الجزيرة المُستجار من المترددين على الشواطئ؛ لوعورته، وهم لهم قاطرات قوية المحركات لقَطْر أجسادهم؛ التي تجتاز بهم الصخور بسلامتهم من الغرق، وبدون جروح في أجسادهم.

الفصل السابع

صاحب المُستزرع

ما الذي تطلبه اقتراب الثلاثة من أحد شواطئ الجزيرة الصخرية بالغواصة الكهربائية؟ فهي مؤهلة للخروج بهم من الماء إلى البر، ولكنهم رأوا في تركها تتراجع بآلة التحكم إلى عمق؛ جعلَها بعيدة عن أجهزة الرصد، أو عن أحد قد يكتشفها بالصدفة؛ ومُتخفية أيضا في خميلة من أعشاب، وطحالب البحر؛ ومُتقوقعة في غشائها الصاد لذبذبات الاستشعار، والدخول إلى الجزيرة كما ذكر من قبل من شاطئ صخري؛ بالكيفية التي نجح فيها أمجد ورائد وبسام من قبل؛ في ولوج إحدى جزر (هايتي)، وكذلك فعل هؤلاء الثلاثة؛ إلا أن في هذه المرة؛ جاءوا إلى الجزيرة بألبسة الغوص، والزعانف، والأقنعة الزجاجية، وأنابيب التنفس بدلا من قنينات الأكسجين؛ حاملين معهم أكياسا غير نافذة للماء؛ فيها ملابسهم البرية؛ وقد نجحوا في أن يجدوا أنفسهم في غابة كثيفة من النخيل، والأشجار، والنباتات القصيرة؛ قال لهم أمجد مُفكرا في خطة:

– لا نتوغل في الداخل الآن؛ نسير أولا موازاة مع الشاطئ؛ حتى نتعرف جيدا على بيئة الجزيرة، وكيف يتوزع فيها من يقيم فيها، وهل فيها أنشطة دائمة، أو موسمية.

ما ظهر لهم من بعيد بناية بتصميم خاص، وهم يقتربون منها، فيجدونها فندقا بمسبح؛ فسلكوا طريقا أبعدَهُم عنها، وما يزالون يتقدمون؛ حتى رأوا صخرة عالية؛ يَنْصِب منها

رجلٌ قصبةً؛ يُدلي من رأسها خيطَ الصنارة، فهو إما صائد محترف، أو هاو؛ أمر أمجد رفيقيه بالتوقف؛ حتى يفكروا في كلام يستدرجون به الصياد إلى حديث يعرفون منه مكان مستزرع المحار؛ قال رائد وقد أتته فكرة:

– لسنا إلا سياحا؛ ونحن فعلا كذلك؛ لا نكذب؛ فمجيئنا إلى الجزيرة فرصة سانحة لنا.

قالت ريم بسعادة:

– فعلا؛ ما أجمل جزر (سيشيل)! إذا كانت جميعها مثل هذه؛ فهي من أفضل الأماكن على الأرض للسياحة؛ المميز فيها صفاء الماء المحيط بها؛ وخضرة الطبيعة، والهدوء.

قال أمجد مستدركهما من التحليق في عالم من التخييل:

– نحن إذن سياح؛ فما السؤال الذي نطرحه عليه؛ بعد التحية؟

قالت ريم آتية بالممهدات:

– ما نوع السمك مثلا الذي يصطاده؟ وهل له مواسم لاصطياده؟ وهل له طريقة خاصة لصيده في هذه الجزيرة؟ وهل في الجزيرة محار، أو بلح البحر؛ يُؤكلان نيّئين مع سائل الليمون، وهل يُستزرع منه ليُنتج لؤلؤا اصطناعيا؛ وهل الظروف المناخية لجزر (سيشيل) تساعد على ذلك، وهل فكر أحد من سكان هذه الجزر في إنشاء مزرعة لمحار اللؤلؤ؟ فكل ما يحيط بنا يا أمجد ويا رائد؛ فيه طريقُنا إلى لسان الرجل الناصب للشِصِّ.

نظر أمجد بعينين معجبتين بالأسئلة التي صاغتها ريم إلى رائد؛ قال هذا الأخير بأمل كبير:

– ما أوفقنا بك في رحلتنا هذه يا ريم!

قالت حاثة نفسها وإياهما على التقدم من الصياد:

– هيا بنا نلقي عليه التحية، وهو وحيد في هذا الشاطئ؛ عُزلتُه فيه، وإن كانت قصيرة المدة؛ قد جعلته في نفسية تحتاج إلى منٍ يُثرثر إليه ببراعته في الصيد، واستئناسا به.

لم تَكْتِم أقدامُهما صوت الوطء على الأرض، بل خطوا في تلقائية؛ محدثتة أخفافهم احتكاكات بالمسرب موطّأ الأعشاب، وصوت احتكاك أجسادهم بفروع وأوراق الشجر الكثيف، فانتبه لهم الصياد، ونظر خلفه، فوقع نظره على رجلين وامرأة، ولم يظهر له من سَحنتهم إلا بأنهم ليسوا من الجزيرة، وغلّب على ظنه فكرة أنهم سياح من وراء البحار؛ من إحدى القارات الخمس.

كانوا مُلقين لتحية ذلك الوقت من اليوم، وهو الصباح؛ على الصياد؛ ولم تنصرف يداه عن القصبة التي كانت في مهمة بأمر منه؛ لا تتراجع عنها، وهي أن صنارة خيطها مُطعّمة بما يفتح شهية سمكة؛ فتكون ناشبة رؤوسها الحادة في غلاصمها؛ ولا عينيه المتأهبتين؛ فرد على التحية؛ كان هو البادئ في الكلام؛ سألهم بارتياح في نفسه؛ ظهرت علاماته على وجهه، وعبرت عنه ابتسامة طبعها على شفتيه:

– يظهر أنكم سياح؛ فمرحبا بكم في جُزرنا.

قال أمجد؛ ويكون قد ناب عن صديقيه في التعبير عن سعادتهم بكلامه:

– نعم، وقد وُفِّقنا في اختيار جزركم دون غيرها من جزر المحيطات الأخرى؛ إن لها طبيعة جزرية أروع ما شاهدناه في رحلاتنا السياحية.

سأل رائد الصياد زاحفا عليه:

– إن مواظبتكم على الصيد يدل على رغبتكم الشديدة في ممارسته.

حرك الصياد رأسه دون أن ينطق بأي كلمة؛ بأنه بِتوْق دائم إلى الصيد بالقصبة.

سألته ريم متقدمة به إلى التالي من الكلام:

– هل هو هواية، أم احتراف له؟

أجاب الصياد سريعا:

– إني أحترفه؛ أصطاد للمطاعم سمكتين كبيرتين تملآن صَحْنيْن لسائحين ثريين؛ في ثمنهما مصروف اليوم وزيادة، وإني أستعمل الشبكة في موسم يكثر فيه نوع من الأسماك؛ مُتوغلا بقاربي في المحيط.

سأله رائد، وفي نطق الصياد بكلمة المطعم سبيل ممهِّد:

– هل يقدم هذا المطعم محارا وجبات للمُتنعّمين؟

قال ناظرا إليهم واحدا واحدا:

– نعم، وهو مُستورد في الغالب؛ فإذا اشتهيتموه، فالمطعم المختص يقدم لكم طبقا كافيا منه.

قال أمجد غير مُتيقّن من كلامه:

- إذا توفر لنا وقت كاف، فلا نتأخر عن إتحاف بطوننا به.

سألته ريم بصوت منخفض:

- إن جزر (سيشيل) كثيرة؛ ولها مناخ يؤهلها إلى إنتاج أشياء تُساهم في تنمية اقتصادية محققة.

اِلتفت إليها الصياد بعينين منتبهتين، وسألها:

- مثل ماذا؟

أجابت ريم مُصطنعة التقاط الأفكار، والتنقيب عن مثل الأشياء في ذهنها:

- مثل... مثل اللؤلؤ الاصطناعي... إنشاء مزارع له في خلجان الجزر الصغيرة.

كان الصياد قد سحب الخيط؛ مربوطة إليه الصنارة غير ممسكة بأي من الأسماك، وتراجع عن قمة الصخرة بقصبته، وخَلّص يديه منها بوضعها قائمة على الصخر، وقد ظهر للجماعة أنه يريد أن يستريح، ولكن في حقيقة الأمر تذكر بكلام ريم ما له علاقة به؛ جلس على طرف الصخرة؛ فارغ اليدين؛ راحلا بفكره بعيدا؛ سرعان ما نطق قائلا:

- كان شخص قد أنشأ مزرعة لإنتاج لؤلؤ اصطناعي، في ذلك الخليج الذي يمتد إلى شِمالكم...

وأشار الصياد بيديه إلى خليج رملي؛ في مساحة منه صخور بارزة من الماء؛ تحجزه بينها في مدّه، وتابع كلامه؛ قائلا:

- أُغرقت المزرعة بفاعل مجهول، وانتهت حياة المنشيء لها إلى مأساة.

سأله رائد؛ مُتألما في داخله بمصير صاحب مزرعة اللؤلؤ:

- إنها في الحقيقة فاجعة؛ فقد تطلبت المزرعة من ذلك الشخص الكثير من المال، والجهد، والوقت، فما اسمه؟

أجاب الصياد؛ مُستمرا في حكايته عن مُربي محار اللؤلؤ:

- إن ذلك قد احتاج إلى خبِرة؛ تطلبت سنوات من التكوين، والتدريب؛ والبدء بالمحاولة الأولى، ثم الثانية، والثالثة؛ كانت تنتهي في الغالب بالفشل؛ إلا أن نجحت المحاولة الرابعة؛ وكانت الأخيرة؛ أفرزت خلالها المحارات لؤلؤا؛ إلا أن أحدا لدافع ما؛ أغرقها في مكان مجهول؛ لم يعثُر عليها صاحبها بالرغم من العديد من محاولات البحث عنها بالغطس في مياه جزر (سيشيل)؛ وبالرغم من مساعدته من طرف غطاسين محترفين مهرة، فذهب إلى جزيرة بعيدة؛ اِنعزل فيها؛ كما قيل لنا، ويُرجح البعض أنه سيفقد عقله؛ بعيشه فيها مُنفردا عن الناس.

سكت لحظات متذكرا سؤال رائد؛ أجاب عنه قائلا:

- اِسمه (إسبرون)؛ وإننا جزعون من أن يكون قد تشرد هناك عقلا، وجسدا؛ فلا ننجح في إعادته من هناك إلى حياته العادية.

نظر الثلاثة إلى بعضهم البعض؛ فرِحين بما تقدموا فيه؛ في وجود شخص في الواقع اسمه فعلا (إسبرون)، والمكان الذي هاجر إليه؛ بعد تعرضه لإفلاس تام؛ بإغراق مزرعته المنتجة للؤلؤ.

سأل أمجد الصياد؛ باهتمام كبير بالمحار المستزرع:

- هل يمكن أن يكون لنا لقاء معه؟ فنحن أجانب عن الجزر، وقد يكون تعارفنا به، وعقدنا لصداقة معه، ورغبتنا الشديدة في أن نأخذ منه معلومات عن استزراع محار اللؤلؤ؛ فهو قد اكتسب خبرة طويلة في ذلك؛ أليس أستاذنا جميعا في هذا؟ أقول قد يكون في ذلك مخرجا له من عزلته؛ فمعافاته من جنون قد يذهب به.

قال الصياد برجاء:

- نعم، فأنتم غرباء عن الجزر، وكان قد تملكه يأس، ونفور، ومقت من مواطنيها، فقد يَستأنس إذن بكم.

سأله رائد مُستخرجا منه معلومات أخرى:

- هل من وسيلة ركوب نُبحر بها إليه؟

أجاب الصياد جاهلا:

- إني لا أعرف الجزيرة التي انفرد فيها بنفسه.

بعد سكوت قصير المدة؛ قال:

- أدلكم على أحد يعرفه حق المعرفة، وله معه صداقة طيبة؛ وفعل الجميل؛ باستطاعته الذهاب بكم إليه؛ إنها امرأة؛ عالمة أحياء؛ مختصة في علم الطيور؛ إنها مكلفة بدراسة طيور جزر (سيشيل)، والمشرفة على محمياتها الموجودة في عدد من تلك الجزر؛ تتنقل بينها بوسيلتين -موضوعتين رهن إشارتها- بمركب شراعي، وبطائرة صغيرة ذات أربعة مقاعد؛ مُستعمِلة لهذه؛ مهابط للطائرات ممهدة في العديد من تلك الجزر؛ اسمها (روز؛ Rose).

سألته ريم مُستعجلة في نفسها الإجابة:

– أين نلتقي بها، وفي أي وقت؟
أجاب الصياد مُرحبا دائما بأسئلة الثلاثة:
– من عادتها أن تقصد هذه الجزيرة بالمركب الشراعي؛ في كل صباح، وتغادرها بعد الثالثة بعد الظهر، والمرجح أن ساعة ظهورها قريبة؛ فإلى ذلك الوقت؛ أدعوكم إلى بيتي؛ إلى جلسةِ تناولِ كؤوس من عصير.

كان بيت الصياد يتكون من حُجرتين، ومطبخ، وحديقة أمامية؛ مُستزرعة بالبقول، والخضر، والأزهار، فالجانب منه الذي رآه الصياد مناسبا لضيوفه هو ساحة الحديقة، وعند جلوسهم على كراس؛ وأمامهم مائدة؛ كان الخليج الصغير يظهر لهم، وقد مضت ساعة؛ بعدها رأوا جميعا المركب الشراعي الذي تقوده عالمة الأحياء؛ يدخل الخليج متهاديا بالأمواج؛ يرفرف شراعاه بالريح، ويشاهدونها وهي ترمي بالمرساة إلى عمق الماء، ثم تركب زورقا صغيرا؛ تُجذف به إلى الرمال؛ تنزل منه، وتجره بعيدا عن منطقة المد والجزر، وتأخذ مِسربا بين النباتات؛ يؤدي بها قريبا من بيت الصياد، فينادي عليها بأن تتفضل لتشرب عصيرا مُنعشا؛ فلبت دعوته، وجاءت بخطوات مُستعجَلة؛ ثابتة؛ متعودة على الوطء على أي سطح سواء كان مُعشوشبا؛ أو صخريا؛ أو مغطى بالحصى والحجارة؛ قدم لها ضيوفَه السياح؛ نظروا إليها؛ فوجدوا أنفسهم أمام امرأة طويلة القد؛ عريضة الوسط؛ عالية الطرفين السفليين؛ في وجهها سمرة خفيفة؛ ملمحها مبتسم دائما؛ دليل الثقة بالنفس؛ تتدفق حيوية، وتِرحابا؛ في قبضة

يدها التي حيَّت بها ريم قوة، في غير تردد؛ ناظرة طيلة الوقت في عيون الثلاثة؛ مُحدقة فيها بنظرات العالم المتصفحة لكل شيء؛ إنها مزيج من العنصر الأوروبي، وعنصر جزر (سيشيل) الأصلي.

قال لها الصياد بفرحة المستضيف:

– إنهم سياح؛ قدِموا من وراء المحيطين، وفي اهتمامهم بجزرنا شأن؛ أنت مُلمة به، ويتعلق بالسيد (إسبرون)؛ جاء ذكره في أجوبة مني عن أسئلة طرحوها علي، وقد أطلعتهم على حالته النفسية؛ بعد إغراق مزرعته؛ أرادوا أن يلتقوا به.

نظرت روز فيهم طويلا بابتسامة بَهتت قليلا، وقالت:

– ذلك ما سعينا إليه، وهو أن يجتمع به أناس يظهر بأنهم ذو فضيلة، ويتأسفون كثيرا على حياة أحد قد تنتهي بمأساة؛ لصدمة تلقاها؛ لفعل شر مفاجئ.

سكتت قليلا، ثم قالت:

– إني مُرحِّبة بذهابكم معي إليه؛ ستركبون معي المركب عائدة به إلى جزيرة (براسلان)، وبعد مبيت ليلة في بيتي؛ سنُقلع بطائرة إلى الجزيرة التي ينفرد فيها السيد (إسبرون) بنفسه.

اِلتفتت إلى الصياد باهتمام كبير بالثلاثة، وقالت:

– إنهم ما يزالون في عنايتكم بهم؛ ألس كذلك؟ أُخدُمهم بما يحتاجون إليه؛ حتى أعود من تفقد أعشاش لطيور؛ وجدت في هذه الجزيرة في هذا الموسم مِحضنا للتفريخ، لا بد من

حمايتها من مهربي البيض، ومن الزواحف، والحيوانات المفترسة.

لم يمض وقت طويل؛ قد يقدر بأربع ساعات؛ حتى عادت (روز)؛ بملامح مُتغيرة؛ يغلب عليها انبهار، وحيرة، وتساؤل، فهي منذ اللحظة التي قدَّم فيه إليها الصياد السياح الثلاثة، وملاحظتها لإصرارهم على مقابلة (إسبرون)؛ حتى بدأت تطرح عدة أسئلة، وتتخيل أشياء كثيرة، فالذي توصلت إليه؛ بينها وبين نفسها؛ أن أولا هؤلاء الثلاثة ليسوا سُيّاحا عاديين، وأن مظهرهم لا يدل إلا على أنهم في مهمة، وعلى أنهم خريجوا فصول الجامعة، وقد تأكدت مائة بالمائة؛ على أن كبيرهم في السن أستاذ جامعي، وعلى أن المرأة التي معهم عملت كثيرا في المكاتب؛ وفي برامج الحواسيب، وأن في نظرات رائد دليل على أنه عاشق للطبيعة؛ مُطالع بنهم في علومها؛ ويظل السؤال هو: «ما حاجتهم إلى (إسبرون)؛ بعد سماع قصة معاناته الحقيقية؟»، وفي آخر خطوة توقفت بها أمامهم؛ أرسلت مرة أخرى نظرات حادة إليهم؛ تعيد التحديق في نظراتهم، وحركاتهم، لتستزيد من استكشاف ما وراءهم؛ برغبة الأنثى المندفعة بغير حدود إلى معرفة الكثير.

اِنتقلت بعينيها إلى الصياد؛ مُشركة إياه فيما ستُقدم عليه؛ قالت:

– هل ضيوفك على أهبة الانطلاق معي؛ ضيوفا مرة أخرى عندي؟

وهي تنظر كذلك إلى الثلاثة؛ وهي في سؤالها ذاك؛ تريد أن لا يبدو منها أنها قد توصلت إلى معرفة القليل عنهم؛ بالملاحظة والحدس.

هبطوا معها المرتفع الصخري؛ بعد أن حيوا الصياد تحية لقاء به في المستقبل؛ قد يتحقق لهم جميعا؛ وساروا وراءها على رمل تهجم عليه مويجات ماء الخليج؛ وتدفع بقارب إلى الماء؛ وتُشير إليهم بيدها إلى أن يتخطوا الجانبين الخشبيين؛ ليجلسوا على اللوحين، وبدأت بالتجذيف بساعدين كأنهما لمصارع مفتول العضلات؛ بِدُربة، وبابتسامة دائمة، وبشجاعة؛ اِطمأن أمجد ورفيقاه لترحابها؛ الذين كانوا ما يزالون في حذر تام، ومتكتمين عن شيئين كان قد حملاه معهما من الغواصة الأم؛ عرفا بعد أن أُعلموا بأن (إسبرون) في طريقه ربما إلى الجنون؛ أنه سيكون قطعا في ذينك الشيئين معافاتُه من انغلاقه على نفسه، وعودته إلى حياته العادية؛ إلى حد ذلك الوقت لم يتحدثوا بهما إلى عالمة الطيور؛ لسببين؛ الأول: يجب أن يتأكدوا مدى صدقها التام فيما تفعله الآن من أجلهم، وهو الذهاب بهم إلى (إسبرون)، الثاني، وهو سؤال: هل هي امرأة كتومة، وعلى وعي بما يتهدد (إسبرون) من فعل قد يقوم به أولئك الذين أغرقوا مزرعته ضده مرة أخرى؛ فتكون من ضمن جماعتهم لمؤازرة (إسبرون)؛ بمعنى أوضح: هل هي عالمة حكيمة؛ ذكية بما فيه الكفاية لتقدير العواقب، ومتربية على خصلة ذات فائدة ذهبية، وهي السكوت في جميع الأحوال؟ مُدركة إلى أن الثرثرة جالبة للشر في غالب

الأحيان؛ فكثير من الناس؛ يُعلِقونك من لسانك؛ في سارية الإعدام.

في إحدى حجرات بيتها، وفي وقت قبل منتصف الليل؛ رجعت من أحد شؤون منزلها؛ إلى الجلوس مع ضيوفها قليلا من الوقت؛ تفاجأت بتصلب في جلوس الثلاثة؛ لم يكونوا في جلسة استرخاء تامة؛ كان قعودهم قعود المجتمعين على مناقشة أمر مُستعص، سألتهم بانسجام صداقة بدأت تربط بينها وبينهم:

- بيتي فيه راحتكم، ونستأنس ببعضنا البعض، فاستريحوا في جلوسكم؛ لا تتحرجوا، وهدفنا واحد بعد هذه الليلة وهي زيارة ذلك الرجل الذي يحتاج أكثر من غيره؛ إلى التفاتة عاطفية تُعيده إلى الحياة.

سألها أمجد بصرامة:

- هل أنت مهتمة إلى هذه الدرجة بهذا الرجل؟

تفاجأوا عندما رأوا عينيها تدمعان؛ ثم تُجهش في البكاء؛ اِستغربوا مغادرتها من تلك المرأة العاملة القوية؛ إلى امرأة تذوب حنانا وعطفا؛ أجابت وهي تمسح دموعها:

- إنه أعز صديق لي؛ بل أكثر من هذا، فإني كنت أجد كامل سعادتي بجانبه؛ كان يستشيرني في أشياء، وأعمال كثيرة؛ تهم حياته الشخصية، والمهنية.

قال لها رائد ناظرا بحدة في عينيها:

- كما قيل لنا فإنه في وضعية نفسية صعبة؛ وقد يفقد عقله إلى الأبد.

قالت بخوف، فبِشهقة قوية:

– قد أجد منكم مساعدة في إعادته إلى حظيرة الحياة.

قالت ريم بتحدٍّ:

– إذا ما بدر منك ما يفشلنا جميعا في محاولتنا؛ فلا وثوق بك، وأنت عالم أحياء؛ يحتذي بك في حرصك على الحياة على الأرض وتعميرها؛ أفراد، وتتعلم منك الأقوام والشعوب؛ وقطعا أن لك صيتا ممتاز في العالم.

استعادت روز هدوءها، ورزانتها، وقالت:

– كلامك يا سيدتي أعادني بإلحاح مرة أخرى بالاحساس الكبير بمسؤوليتي:

سألها أمجد، وعيناه تحتويها من قمة رأسها إلى قدميها:

– هل فتحت أذنيك جيدا أستاذتنا؛ بعد أن ترقَّق قلبُك لحال صديقك؛ فتدفق بالحنان، والحب؟

ابتسمت وقالت بفرح:

– نعم؛ إن أذني صاغيتان لك.

قال أمجد مُهيئا نفسه لكلام طويل:

– نُعرفك بأنفسنا أولا؛ اِسمي أمجد؛ أستاذ باحث في تاريخ تكنولوجية الغطس، وهذه ريم طبيبة، وهي تبحث الآن بتفرغ في طب الأعماق، والغوص، وهذا رائد؛ جغرافي؛ عالم بمناخ الكرة الأرضية، وأستاذ الأجيال.

اِنبسطت نفسية (روز) فرحا، وصارت في سعادة لم تشعر بها من قبل، واتسعت عيناها؛ ببريق؛ قالت:

– ياه... أنتم عائلتي تجمع بيننا قُربة فتنة العلم، وتحصيله برغبة شديدة؛ والعمل عليه بجدية وتفان؛ فإني طالبتكم في المجالات العلمية التي تخصصتم فيها.

قالت ريم، وهي تريد أن تجعل روز في تيقُّظ:

– إذن فنحن منذ الآن جميعا أفراد جماعة؛ يجمعنا عمل؛ واتحاد، وروح الدفاع عن بعضنا البعض؛ هدفنا الأول هو أن نُغيث الذي هو حُشاشة قلبك.

قالت بقوة شخصية:

– ليس هدّ عضُدِ الجماعة من أفعال المتأملين في هذا الكون؛ فنحن علماء.

قال رائد داعيا إياها إلى سماع أمر:

– إننا نتوفر على علاج ناجع لصديقك؛ الذي أنت مُتيمة به إلى هذا الحد.

اِبتسمت روز مرة أخرى بفرح، وسألت مُتعجلة الإجابة:

– ما هو؟

قالت ريم مسافرة بعينيها الجادتين في هيئة عالمة الطيور:

– مما كان قد احترفه؛ وقرر أن يكون مصدر رزقه، ورفاهيته، ويُطمئنه في تنشئة أولاده من صُلبه.

لم تقل روز شيئا، وتركت لهم فسحة ليُفصحوا عما عندهم؛ قال رائد مُلفتا انتباهها إلى ما وضع على المائدة الموضعة أمامهم:

– هذا الذي فقده؛ وقد عمل من أجله بكد، وخصص له سنوات طويلة من حياته.

كانت مفاجأة لها عندما نظرت إلى محارة كبيرة؛ تناولتها بارتعاشة من يديها، وفرقت ما بين صدفتيها، لتكتشف في الأشلاء الحية حبة لؤلؤ سوداء اللون؛ فتصيح:

– هذا محار من عمل (إسبرون) الدؤوب؛ وهذه لؤلؤة ثمرة مجهوده.

قال أمجد؛ جاعلا (روز) تأخذ في تعاونهم معها كامل جديتها، واستعدادها:

– إن لنا معرفة بإحداثيات مكان إغراق مزرعة (إسبرون).

قالت لها ريم دافقة فيها التأهب إلى الذي يجب أن تحتفظ بسره:

– إن مدة بقاء المزرعة؛ بشباكها، وبمحارها؛ مستزرعة فيه حبات شكلت أنوية للأخرى بحجم ممتاز؛ قد سمحت بإنتاج مجموعة هائلة العدد من تلك اللآلئ.

قال لها رائد؛ مُهيمِنا على توجيهها إلى المساعدة بصدق كامل:

– إن في قضبان هيكل المزرعة الحديدي صفيحة تحمل اسم المزرعة وهو: (مزرعة لؤلؤ المحيط الهندي)؛ واسم صاحبها، وموقع الجزيرة المستزرع في مياهها المحار؛ كان هذان الأخيران دليلين لنا إلى جزيرة (كوسين)، وإلى (إسبرون).

قالت (روز) في تعجب شديد:

– يا له من عمل باهر قُمتم به، إنكم تستحقون الكثير؛ كل الكلمات المصاغة في حقكم؛ فاشلة في التعبير عن ذلك.

وهي ما تزال تتأمل صدفتي المحارة، واللؤلؤة التي أُخرجت من عضلاتها؛ قالت بحماس، وبمعافاة من تألم دام طويلا على صديقها:

– إني في عجلة إلى أن أعلمه بالخبر؛ فيُسر؛ فيعود بذاكرته إلى أيام عمله؛ الذي كان يجد في خلق نتيجة منه، وبصعوبة؛ مُتعة.

وبعد سكوت ليس بمدة طويلة؛ قالت:

– ما بقي من ساعات الليل كأنه زمن ممتد شهورا بالنسبة إلي؛ فلن تُشرق شمس الغد حتى أجدني أحلق بكم؛ إلى أبعد ما في مجموعة (سيشيل) إلى الجنوب، وهي جزيرة (أستوف؛ Astove).

لماذا التحليق بالطائرة في وقت السّحر؟ كان ذلك مخططا من طرف عالمة الطيور؛ حتى لا يعرف مسؤولوا رصيف الطيران؛ مداوموا العمل في ساعات الليل؛ من سيكون برفقتها، وقد تسللت بأفراد جماعتها إلى مقاعد الطائرة، وشغلت محركيها، ووجهتها إلى الرصيف، وسرّعت المروحتين؛ إلى حد أن ارتفع الجناحان بالطائرة في الجو، ثم انعطفت بها إلى يمينها؛ لتأخذ اتجاه جزيرة (أستوف).

إن سياقة الطائرة من طرف امرأة؛ كأنها جالسة بهدوء؛ تعمل يداها في نول؛ تحيك عليه خرقة من خيوط صوفية؛ ناعمة؛ في غير عجلة منها؛ ضابطة إدخال الخيوط الأفقية الطيعة؛ في العمودية الموترة؛ سعيدة بذلك؛ هذا ما شعرا به الثلاثة، وكانت تذهب عيونهم إلى سماء الفجر، وإلى مياه المحيط الممتد

تحتهم، وآذانهم تتلقى صوت هدير محرك الطائرة؛ مكتوم بدرجة خفيفة؛ وفي إحدى اللحظات، ويد (روز) اليسرى تمسك بحرص شديد بالمقود ذي المقبضين؛ أشارت لهم بالأخرى اليمنى؛ إلى بقعة ذات لون أزرق فاتح؛ يحيط بها شريط أخضر؛ فبدت لهما عينا، بقزحيتها بذلك اللون، وبجفنها بذلك اللون الأخضر، وقالت لهم:

- هي جزيرة (أستوف).

وتجاوزتها؛ ثم انعطفت بالطائرة إلى اليمين، ثم شرعت في الهبوط بها بالتدريج على رصيف؛ كان قد بدا للثلاثة من الجو خطا مستقيما، وقادتها إلى ساحة موازية له؛ وأوقفتها، وأسكتت المحركين؛ فهمدت المروحتين مُعلنتين بنهاية الرحلة الجوية؛ فأحاط بهم سكون؛ قالت لهم:

- إن الجزيرة مهجورة؛ لا يقصدها إلا العلماء؛ لأبحاثهم في طبيعة الجزيرة، والغواصين الهواة؛ يغطسون في حيدها المرجاني، واللاجئ لها للانفراد بنفسه السيد (إسبرون).

قال أمجد ناظرا في الجميع الاتجاهات؛ مُستكشفا عناصر بيئة الجزيرة:

- إنها خَلوة بجميع المواصفات؛ بدون استثناء لـ(إسبرون)؛ اليائس من المحيط به من الناس، ولدراسة نظام بيئتها في سكون وهدوء من طرف العلماء.

قالت (روز) مُؤكدة كلام أمجد:

- إن في أجوائها الهادئة؛ وأصوات كائناتها المتناغمة؛ راحةً للنفس؛ من ضوضاء المدنية، وصخبها.

ليس لهم جميعا في ذلك الوقت؛ أي شيء يتكلمون فيه؛ أو يتبادلون الحديث عنه؛ فالذي يأخذ باهتمامهم هو (إسبرون)، وقد شاهدوا صديقته عالمة الطيور قد رمت بحقيبتها على ظهرها؛ المحشوة بمواد غِذائية؛ حملتها له، وقالت لهم:

- لا تتوفر في هذه الجزيرة مركبة تنقلنا؛ فأقدامنا هي التي ستحملنا مسافة طويلة بين النخيل؛ إلى المكان الذي بَنى فيه (إسبرون) كوخه.

فمضت إلى الأمام؛ تسير بخطوات واسعة؛ تطوي بها الطريق؛ باستقامة في جسدها؛ لا تلتفت إلى أي جهة؛ مُتعودة على ذلك في تعقب الطيور في مساحات واسعة من الجزر، وقد تبعها الثلاثة؛ يمشون على إيقاع رفع القدم، والوطء بالأخرى؛ وكان في ملازمتهم لها في سيرها السريع؛ مشقة أحسوا بها، ولكنهم صبروا، وصاروا يُعوِّدون أنفسهم على مشيها، إلى أن توقفت، وأمامها حِرش من أشجار متكاثفة الأوراق والأغصان؛ قالت لهم:

- بعد هذا مباشرة كوخ (إسبرون)؛ لن تتقدموا معي؛ حتى أُمهد للقائكم به؛ اِنتظروني هنا.

غابت في داخل الحرش؛ مضت عشرون دقيقة؛ بعدها ظهرت لهم عائدة؛ قالت لهم:

- قلت لهم أن أناسا ليسوا من جزرنا؛ أتوا من قارة تقع وراء المحيط، وعندهم لك مفاجأة تُسعدك كثيرا؛ فبعد أن يُبادلكم

التحية؛ أرى أن يكون أمجد هو من يُظهر له المحارة واللؤلؤة، ويُعلمه بأن مزرعته في متناوله؛ بكامل للآلئها.

نظر أمجد مع زميليه إلى رجل أهمَلَ شعر رأسه ولحيته؛ حتى غطيا على وجهه، وعنقه، وقفاه، وأهمل أظافره حتى طالت أكثر من اللازم، وتمزقت ثيابه، وبهتت ألوانها؛ يستلقي على سرير ركبه بنفسه من أغصان الأشجار، وأوراقها العريضة. بين فرعي جذع شجر صغير؛ يُثبت كتابا مجلدا؛ بعنوان مُحيت بعض حروف كلماته؛ قال له أمجد ناظرا في عينيه؛ جاذبا انتباهه إليه:

- اِسمي أمجد؛ أستاذ باحث في تاريخ تكنولوجية الغوص.

عندما سمع (إسبرون) ما تفوه به أمجد ابتسم بحماس، وقال:

- إذن فأنت عالم بالتاريخ العام لغوص الإنسان في عمق البحار، والمحيطات، والبحيرات...

أجاب أمجد مُتقدما في حديثه معه:

- نعم، وبحثت لأي غرض يغطس الإنسان عبر عصوره، وكيف طور وسائل لذلك.

قال إسبرون لأمجد مُبتسما دائما؛ وقد سَعِد بوجوده:

- إنك قد تعمقت في تاريخ الغوص عن اللؤلؤ؛ هذا لا شك فيه.

حرك أمجد رأسه بأن ذلك صحيح، وسأله إسبرون مرة أخرى؛ قائلا:

- هل سبق وأن اهتممت باستزراع المحار لإنتاج اللؤلؤ؟

لم يجب أمجد في الحين، وأخرج من كيسٍ المحارة، ووضعها أمام (إسبرون)، وقال:

– هذه عينة من محار مستزرع؛ إني لم أبحث فيه كثيرا؛ هي مُطالعة عنه في الكتب فقط.

لم يكن (إسبرون) يستمع إلى أمجد، لأنه صار يُطيل النظر في المحارة مدة طويلة، ثم تناولها بيده، وفرق بين صدفتيها، فظهرت له في أحشائها حبة لؤلؤة كبيرة؛ سوادها رمادي، أعادها إلى الأرض، وانتقل بعينيه إليهم، وصار يوزع نظراته بينهم، ثم قال:

– هذه واحدة من محاراتي.

قالت له روز بدمعة في عينيها:

– نعم يا (إسبرون) إنها من مزرعتك؛ وقد اكتشفها هؤلاء؛ مُغرقة في عمق المحيط.

لم يصدق إسبرون ما تراه عيناه، وما تسمعه أذنه، وقال:

– هل ما تقولينه يا روز صحيحا؛ ألم أخطئ في معرفة إحدى محاراتي؟

اِستدعى رائد صورة إلى شاشة المصورة، وأظهرها إلى إسبرين؛ فما بَحْلَق فيه؛ هو صورة لصفيحة معدنية حُفرت عليها كلمات هي: (مزرعة لؤلؤ المحيط الهندي)، واسم (إسبرين)، وإحداثيتا جزيرة؛ قال بوعي تام، وبكلمات ينطق بها العاقل؛ المُستحضر نفسه في محيطه؛ بين أفراد جماعة:

– إذن فمزرعة لؤلؤ المحيط الهندي ما تزال في الماء؛ ينمو اللؤلؤ في أحشاء محاراتها المصفوفة في حِبالات معدنية.

اِندفع؛ وقد تدفق الدم في وجهه؛ دليل عودة وعيه بواقعه؛ وعافية عقله، وبداية نظراته إلى المستقبل؛ إلى أمجد فصار يلثم رأسه، ويشد بيديه على يدي رائد بحرارة؛ وعانق صديقته روز، وحيا ريم تحية تقدير وطاعة، وقال بحنان:

- أنتم أفراد عائلتي؛ لولاكم لفقدت عقلي؛ لصرت مجنونا.

قال له رائد محمسا إياه أكثر، وجاعلا إياه يخطط لمستقبل استزراعه للؤلؤ:

- هيا إذن نُساعدك في تعويم مزرعتك على سطح المحيط، وجرها إلى خليج (كوزين) كما كانت من قبل.

وبدأت الجماعة تتحرك لتُغادر جزيرة (أستوف) المهجورة؛ إلى جزيرة (كوزين).

الفصل الثامن

اِختفاء الطبيبة

مثل يُذكَر، أو يُذكّر به؛ كلما أراد أحد أن يُحذر آخر؛ هو: «حتى الحيطان لها آذان»، وقد كانت في تلك الليلة التي استضافت فيها روز جماعة من الغواصة (أنقليس 1)؛ تتكون من ثلاثة أفراد؛ أُذُنٌ مصوَّبة قريبا من نافذة؛ نُسي غلقُ دفتيها بإحكام؛ تتسمع ما دار من حديث بين عالمة الطيور، وذينك الرجلين، وتلك المرأة التي ترافقهما؛ فالتقطت ما هو خطير، وهو مجالات اشتغال الثلاثة؛ كانت إحدى أذني عنصر من جماعة يقودها مُستثمر كبير في مشروعاته؛ غنيّ بما تُدر عليه من أموال طائلة؛ وميدان صناعته التي أراد بالقوة احتكارها في جنوب شرق آسيا، وغرب إفريقيا؛ هي استزراع اللؤلؤ، وهو الذي أمر بِقَهرٍ الرجال الذي لا يُقاومُه من استُضعف؛ بأن تُسحب -ليلاً إلى جهة متوغلة من المحيط وتُغرق فيها؛ بثُقَّالات من الأسمنت- مزرعة المبتدئ في المجال؛ بمشروع صغير، ولكن قد يتطور إلى آخر كبير؛ تتفرع عنها عدة مزارع لإنتاج اللؤلؤ الاصطناعي، فيكون منافسا، وأكثر من هذا فقد يكون مُدمرا للمزارع الأخرى؛ فيكون حتما الإفلاس مصيرَ المُستثمر فيها الآخر؛ فأبلغ هذا العضو في العصابة الثري؛ مُشغله المغتني باحتكار مجال عمله في اللؤلؤ؛ فأمر عملاءه بالتحرك سريعا؛ وإحباط أي محاولة من أولئك الثلاثة في مساعدتهم لـِ(إسبرون)، ليعود إلى حياته المتزنة، واسترجاع

مزرعته، والتي دفعتها تيارات الأعماق القوية؛ مرة أفقيا، ومرة عموديا؛ حتى فُقد تحديد مكانها، كما أن المدة التي ظلت بها في عمق الماء؛ كانت كافية لتنمو عليها الطحالب، وأعشاب البحر، وتتجمع عليها القشريات، فكان البحث عنها عصيا لا على مُغرقِها، ولا على صاحبها، فكان أن خططت جماعة المحتكر لاستزراع اللؤلؤ الاصطناعي؛ لِما يكبح الجماعة المغيثة لفاقد مزرعته، فماذا الذي سيفعله خُدام الضارب بالحديد لكل من قد يُنافسه؛ من أجل ذلك الهدف؟

كان رجوع عالمة الطيور، والأعضاء الثلاثة في جماعة أسعد، إلى الطائرة يُسرعون فيه؛ يصطحبون معهم إسبرون الذي تعافى قليلا من حالته النفسية المتردية؛ مُستعيدين إياه إلى المجتمع؛ مُحمِّسين إياه على مقاومة كل من أراد أن يُدمر نفسيته؛ بصبر النبي أيوب عليه السلام حينا، وبالإفلات منه بطُرق عديدة؛ يُفكر فيها بذكاء خارق حينا آخر، أو برفع دعوى قضائية به ظالما، طالبا من الوكيل تطبيق القانون المُنصف للمظلوم؛ كانت روز هي المتقدمة؛ ممهِّدة لهم اتجاه الطريق؛ سمعت في إحدى اللحظات مراوح طائرة، ودورانَها يُخفف منه تمهيدا لهبوطها؛ فأصاغت السمع جيدا؛ وسألت بصوت سمعته جماعتها؛ قائلة:

- هل يكون الرصيف الوحيد مستقبلَها؟ فمن يكون هؤلاء الذين يركبونها؟

ولكن لم يصل إلى أذنيها احتكاك العجلات بأرضية الرصيف، فطرحت سؤالا آخر؛ قالت:

- أين يا تُرى تهبط بهيكلها؟

فسمعت ضرب طوافات على الماء، فأدركت أخيرا أين هبطت الطائرة؛ فأسرعت إلى جهة تخولها توجيه نظرها إلى الناحية التي أتاها منه صوت الهدير الميكانيكي؛ رافعة المنظار المكبر ذا العدستين على عينيها؛ قربت إليها طائرة ما تزال تطفو على الماء؛ تقترب من الرمال؛ لحق بها أصحابُها؛ فشاهدوا جميعا طائرة مائية بستة مقاعد، نزلت على طوافتين انسيابيتين على الماء؛ خرج منها ثلاثة رجال، يحملون على أكتافهم مُعدات الغوص، ومُصورات، وكاميرات كبيرة، قالت لهم روز؛ مُقرِّبة إلى فهمهم ما يجري أمامهم:

- الأغلب أنهم مصوروا أعماق الحيد المرجاني؛ من إحدى شركات تصوير الأفلام الوثائقية.

ولم يظلوا حتى يشاهدونهم، وهم يعيدون قاربا إلى الماء، ويدورون به حول ناحية من الجزيرة؛ ليتوغلوا به في البحيرة المفتوحة على المحيط؛ المتوغلة فيها، وهم قد استمروا في مشيهم العَجِل، وقد صعُب على الطبيبة ريم أن تغادر الجزيرة؛ دون أن تُوثق لرحلتها إليها؛ صورا لنباتاتها، وطيورها، ومرجانها الذي يبدو في الماء، وتُلقي نظرة على شاطئ البحيرة الداخلية؛ المفتوحة على المحيط؛ ومجيئها إلى الجزيرة فرصة قد لا تتكرر مرة أخرى؛ فنطقت بطلب إلى عالمة الطيور قائلة:

- هل في الجهة الأخرى المحادية للبحيرة الداخلية ممرا؛ يتجه إلى رصيف الطائرة؟ أريد أن أستغل هذه الفرصة لمشاهدة شاطئ البحيرة المتوغلة في الجزيرة، وآخذ في نفس الوقت

صورا لنباتاتها، وأسماكِها التي تظهر في شفافية الماء المرجاني، وطيورِها المهاجرة، ومرجانِها الذي يظهر منها.

أجابت (روز) بابتسامة مُرحِّبة بها دائما:

– نعم في سلوكِك له يؤدي بك إلى الرصيف؛ قد تسبقيننا إليه، أو تجديننا في انتظارك، ولكن لا بد من أن تتعجلي في زيارتك لتلك الطبيعة.

قال رائد؛ حريصا على سلامة ريم:

– سأُرافقك في جولتك هذه يا ريم؛ فمهما خلا المكان مما قد يهدد الإنسان؛ إلا أن الرفيق يُفكر فيه؛ في جميع الأحوال؛ قبل الطريق.

قالت روز باطمئنان:

– في عَرض مصاحبتك لها تبصُّر حكيم.

وانقسمت الجماعة إلى مجموعتين؛ إحداهما تتكون من رائد وريم؛ أخذا طريقا يمتد موازاة مع شاطئ البحيرة المرجانية الداخلية؛ لرغبة ريم في تلك الرحلة الشاطئية القصيرة، والأخرى تتكون من عالمة الطيور، وأمجد؛ وإسبرون؛ تابعوا سيرهم؛ في نفس الطريق الأول؛ إلى حيث تُرِكت الطائرة؛ مركّنة تحت ظل جريد نخيل الجزيرة.

لماذا لم تظل الجماعة على حالة واحدة، ويمشي أفرادها جميعا في طريق شاطئ البحيرة، وريم تُصور ما تريد توثيقا للرحلة؟ الجواب، وهو أن عالمة الطيور لا تريد أن يظهر صديقُها إسبرون وهو في حضن جماعة؛ لأحد ما قد يكون قد دُسّ في الجزيرة، وكان في استعجال الخطوات، وأخذ نفس الطريق

للإياب سبيلا لذلك، وأمر آخر أخذ باهتمامها منذ البداية، وهو إيجاد مقعد خامس في الطائرة، ولم يكن غير أحد يُطوى، ويُبسط في حالة الاستثناء، كانت تُسرع لتهييئه؛ والسؤال لمن؟ لا يكون ذلك المقعد إلا لمتطوع من الأربعة.

فرَّق المسلكان بين المجموعتين، فسارت ريم ورائد في الممر الذي يخولها الاقتراب من شاطئ البحيرة، وصارت تلتقط صورا، وتصور بالكاميرا حركات سلوك سمكة من أسماك الحيد المرجاني المبهرة بألوانها، إلا أن رفيقها رائد الذي كان يتأخر عنها بخطوات تلقى ضربة على رأسه؛ جعلته ينهار على الأرض؛ مُغمى عليه، وهي وجدت نفسها تُخدر بمادة مُشبعة بها قطعة قماش أُطبقت على أنفها، ففقدت إحساسها بنفسها، وبما يحيط بها، ولم تدر ما فُعل بها إلا فيما بعد.

مضت عشرون دقيقة، ومجموعة روز تنتظر ظهور ريم ورائد؛ سألها أمجد بإحساس مُخبِّر بالأسوء:

- هل سلوك ذلك الممر يتطلب هذا الوقت؟

أجابت روز وقد تملكها نفس الشعور:

- لا، ولا يتطلب منها ما ذهبت من أجله وقتا طويلا.

قال إسبرون؛ وقد استشعر الخطر:

- ما لي أراكما جامدين هكذا؛ أتنتظران من يأتي ويقول لكما بأن صديقيكما تعرضا لاعتداء؟ فهذه أقدامنا ننطلق بها جريا في الطريق الذي يقودنا إلى شاطئ البحيرة؛ بحثا عنهما.

فحركوا سيقانهم في عدو لا يرحمان أنفسهم فيه، وكان المتقدم هو إسبرون، وابتعد مسافة؛ لحقا به الاثنان؛ يجداه يرفع رأس

وجذع رائد من الأرض؛ كانت الهامة تُقاوم دوخة شديدة؛ صاحت روز قائلة لإسبرون:

- أغطس رأسه في الماء البارد.

كان ماء البحيرة المنعشة برودته تعُيد رائدا إلى وعيه، ويرتفع أنين منه؛ من شدة الضربة القوية على رأسه، لمس أمجد القمة وجدها مُدماة؛ كان قد أُحدِث جرح فيها، ولكنه غير غائر، قالت روز ناظرة بإمعان في حالة رائد:

- في الطائرة مُسكنات، وضمادات، وسائل يلتئم به الجرح.

قال لها أمجد واعيا بما يتعين عليهم فعله من أجل رائد:

- سنتعاون على حمله، وريم أين هي؟

قالت روز بهلع شديد:

- نعم؛ أين ريم؟

سأل أمجد رائد بسرعة:

- أين ريم يا رائد؟

أجاب رائد، وقد انتفض جسده للسؤال:

- لا أدري؛ كانت تمشي أمامي، وأنا تلقيت ضربة من الخلف على رأسي؛ إنها حديدة هاجم بها علي شخص؛ في وقت سمعت فيه صوت محرك قارب يدنو منا سريعا.

صار أمجد وروز يصيحان في كل اتجاه؛ مناديين على ريم؛ سمع الجميع في نفس الوقت صوت محرك الطائرة المائية يُشغل؛ يأتي من الجهة الأخرى للجزيرة؛ وصوتَ مروحتها؛ قال حينئذ إسبرون بإحساس لا يُخطئ فيه:

- لقد اختُطفت ريم يا سادة؛ هؤلاء الأشرار يتعقبون حتى من يقدم لي المساعدة، لأعود إلى حياتي، ومشاعري.

اِنتهى من كلامه، وانطلق يجري بكل ما أوتي من قوة في ذلك، ووراءه روز؛ هي أيضا مندفعة بساقيها الطويلتين؛ ناظرة إلى الأمام فحسب؛ في محاولة مستميتة أن تصل إلى الشاطئ الآخر، وصوتها يرتفع إلى مسمعي إسبرون؛ قالت:

- هؤلاء تخفوا في أشخاص قصدوا الجزيرة للتصوير؛ إنهم مُخادعون؛ أنذال؛ خسيسون.

نظرا بحسرة، وهم ما يزالان في عدوهما؛ من بين جذوع الأشجار والنخيل؛ إلى مساحة الشاطئ الرملية؛ ورأيا الطائرة تُقلع بطوافتيها من الماء؛ وتُحلق في الجو صاعدة؛ آخذة اتجاه الجنوب.

اِنهار إسبرون بركبتيه على الرمل، وكله لهاث، وقال؛ متسائلا بتوجع، وتألم:

- إلى أين يطيرون بك يا ريم؛ إلى أي بلاد يأخذونك إليه رهينة؟

جزِعت روز من أن يعود إسبرين إلى حالته النفسية المزمنة، فشدت عضده، وساعدته على أن يقوم على رجليه، وقالت له:

- سنُحاول أن نسترجعها، وإن كلفنا هذا الكثير من الجهد والمال.

قال لها بغضب:

- أنا الذي سأحررها من أيدي هؤلاء السفلة، وإن تطلب مني الأمر إعطابَهم جميعا من أجلها، فلن أتردد.

وهما يخطوان؛ ناظرين مرة بعد مرة إلى الطائرة؛ وهي تختفي مُحلقة فوق السحب المتكاثفة البيضاء؛ وقعت عيناهما على ورقة عريضة؛ مُثبتة على رأس غصن حاد؛ نافذ منها؛ انتزعتها روز، وأشركت إسبرين في قراءة ما كُتب عليها؛ كان فقرة واحدة هي: «إذا أردتم أن تُرجع إليكم طبيبة رحلاتكم ريم؛ فانسحبوا من جزر (سيشيل)؛ فلها من يتدبر شؤونها الجماعية والفردية؛ فله أن يعفو، أو يُعافي، أو يدفع إلى الحمق، أو إلى الموت البطئ».

عندما انتهيا من القراءة؛ صاح إسبرين بصوت عال، وقوي قائلا:

- لن يُلبَّى لكم شرط؛ سأعود بريم؛ فلي أنا العفو، والمعافاة، أو أُحمِّقكم، أو أستبطئ موتكم الرحيم.

سكت قليلا، ثم أمر عالمة الطيور قائلا:

- حلِّقي بنا أيتها العالمة وراء هذه الطائرة بسرعة؛ لن أعود إلى مزرعتي؛ حتى أحرر طبيبتنا ريم.

نطق بهذا؛ واندفع بين جذوع النخيل والأشجار؛ يسير بسرعة، يتوعد بصوت مسموع، ويُهدد برفع قبضة يديه القويتين إلى الأعلى؛ وعالمة الطيور تحاول اللحاق به؛ لما وصلا إلى الرصيف؛ وجدا أمجد، ورائد؛ قد اقتربا منه؛ كان الأول يُسند الثاني على كتفه؛ بتفان كبير.

أسرعت روز إلى لوحة قيادة الطائرة، ورفعت جهاز الاِتصال اللاسلكي، وحادثت الموظف الموجود ببرج المراقبة؛ في جزيرة (كوزين)؛ سائلة إياه:

– هل بدت في شاشة المراقبة طائرة مائية؛ أقلعت منذ قليل من جزيرة (أستوف)؟

أجاب المراقب الجوي على عجل:

– نعم؛ إنها تتجه إلى الجنوب الشرقي؛ في اتجاه جزيرة توجد إلى الشمال الشرقي من جزيرة (موريس).

لم تنطق روز بأي سؤال آخر، وأعادت الجهاز إلى مكانه؛ مُنهية الاتصال، وعرفت الجزيرة التي تقصدها طائرة الخاطفين، ولم تدرك سريعا ما يميزها؛ ولذلك اختارها أولئك لإخفاء ريم عن عناصر جماعتها، وكان ذلك ما يُعرقل وصولهم إليها؛ إذا ما حاولوا تحريرها بطريقة من الطرق؛ إلا بعد أن قادت بهم الطائرة في الجو؛ إلى علو ظهرت لهم منه جزيرة كبيرة في شكل تمساح؛ في وضع عمودي؛ رأسه إلى الشمال، وذيله وقدمه إلى الجنوب الغربي؛ في الشمال منها جزيرتان، وإلى الغرب منها ثلاث جزر؛ جميعها صغيرة، ومهجورة؛ تنبُت بها أشجار قصيرة؛ وقد تطلب إرسال أنظارهم بتحديق شديد؛ إلى كل جزء من الجزيرة التمساح، والجزر المحيطة بها، وإلى تحت الأشجار؛ وقتا طويلا، ولم تكتشف عينا أحدهم الطائرة المائية، وهي عائمة على الماء بطوافتيها، أو وراها مختطفوا ريم تحت الأشجار؛ إذن فلا وجود لها على الإطلاق لا في الجزيرة الكبيرة، ولا في جزرها الصغيرة، فكان سؤال مُقلقا لهم جميعا،

وهو: «إلى أي جزيرة من تلك الجزر أُقتِيدت ريم رهينة؟»؛ كانت بواطنهم تتشارك فيه؛ يجمعهم الاحساس بصعوبة الموقف، وقد كَلُّوا بالبحث عن شيء دقيق؛ قد يلمع تحت أشعة الشمس يبدو لهم من تلك الجزر؛ يستهدون به إلى وجود ما قد يكون له علاقة بالرهينة، وكانت روز ما تزال تُدير المقود إلى كِلي جانبي الطائرة؛ مُحرِّكا جناحيها؛ لتدور بهما سواء إلى يمينها، أو إلى شمالها؛ أو تصعد، أو تهبط؛ كأنها كائن طائر لاحم؛ يبحث عن فريسة من الطيور، أو يُصوب عينيه حادتي النظر إلى الأرض، قد يكون من يدب عليها من فرائس من الزواحف؛ قالت روز؛ وقد تأكدت بأن الخاطفين قاموا بكل ما يجعل ريم مفقودة؛ لا أثر لها، والأساسي في ذلك هو اختفاء الطائرة المائية نفسها:

– لا شيء نستدل به على ريم، ولا الطائرة التي أُختُطفت بها؛ تكون في مياه الجزر.

قال إسبرون بغضب:

– هل تنتظرون أن يُظهروها لكم، وهي طافية على الماء، إما أنهم جروها من الماء، وأخفوها تحت ركام من فروع من الأشجار المورقة، أو أقلعوا بها إلى جزيرة أخرى.

قال رائد بهم كبير بمصير ريم:

– لن نبرح الجو؛ حتى نتأكد من أنهم لم يطيروا بطائرتهم إلى جزيرة أخرى.

قال أمجد، وكله رعب من أن تتعرض ريم للخطر:

- تيقَّنا أولا من أن ليس للخاطفين أمكنة أخرى لإخفاء ريم عنا؛ إلا في جزيرة التمساح وجزرها.

قالت روز، وقد استعدت لمهمة بكامل اهتمامها:

- لن نترك سماء أرخبيل (سيشيل)، ولا جزيرة (موريس)، ولا جزيرة (رونيون)، ولا جزر (إكستريور)، ولا سواحل جزيرة (مدغشقر)؛ كما قال رائد؛ حتى نتأكد مما إذا التجأوا إلى إحدى هذه الجزر، أم لا.

وقادت روز الطائرة في خطوط طيران كثيرة ومُتشابكة؛ تُحلق بها عاليا لتتبين بها السواحل الممتدة، وتطير بها في مستوى منخفض، ليحاول أفراد جماعتها اقتناص طائرة مائية، قد تكون راسية في شاطئ رملي أو صخري؛ بعيدا عن زحف الناس، وأنشطتهم، ولما لم يجدوها؛ قالت ريم سائلة أصدقاءها:

- هل فكر أحدكم في الخطة التالية؟

قال إسبرون؛ ويظهر أنه كان قد أعمل تفكيره في تصميم عمل:

- نهبط في مطار جزيرة (ماسكرين)؛ التي توجد إلى الجنوب الغربي من جزيرة التمساح، ونكتري عدة الغوص، وقارِبا شراعيا؛ نُبحر به كمغامرين، أو كسائحين؛ إلى الجزر بحثا عن مكان إخفاء ريم.

وافق الجميع على ما خطط له إسبرون، حيث كانت كلمات منهم تعبر عن ذلك، فقالت روز، وساعداها دائما

يتحركان تحكما في المقود، وعيناها هناك في الأفق؛ ضابطة اتجاه الطيران:

– فإلى جزيرة (ماسكرين).

وبعد عشرات الدقائق؛ اتصلت ببرج مراقبة أرصفة المطار، حيث تلقت ارشادا بالهبوط، فحركت المقود بيديها القويتين، ودواستي الأجنحة بقدميها المنتعلتين، ووجهت مقدمة الطائرة إلى الرصيف الذي بدا خطا مستقيها في الأرض، ثم رصيفا عليه خط مستقيم أبيض، وخطوط عرضية عريضة، وسهام توجه الطائرة إلى ساحة التوقف بجانب المرائب الواسعة؛ ذات السقوف الهرمية.

نزل الأربعة من الطائرة، واتجهوا بسرعة إلى باب المطار الرئيس؛ حيث خرجوا منه إلى طريق؛ ساروا فيه باحثين عن مقهى، أو مطعم يستريحون على كراسيه، ويخططون لعملية تحرير ريم؛ فهم إلى حد ذلك الوقت لم تتضح لهم تفاصيلها؛ وجدوا مقهى؛ فكانوا أن تحلقوا حول مائدة؛ وُضعت لهم عليها أكواب من عصائر مختلفة الفاكهة، وبعد أن ارتوت أجسادهم بها؛ تعجل رائد الكلام؛ فنطق قائلا:

– هذه عُدتنا من الغوص، وهذا المركب الشراعي لنا، وهب أننا عرفنا المكان الذي تُحتجز فيه ريم؛ فماذا بوسعنا أن نفعل؟ أعني كيف سنُحررها، فالحراسة عليها ستكون مشددة، وقد تتعرض للخطر، ومغامرة هي إذا ما حاولنا تخليصها بالقوة.

قال أمجد مُؤيدا رأي رائد:

- نعم؛ وإن التفكير في حيلة ستكون عمليتنا بها ناجحة.

لم ينطق أي واحد منهم بكلمة؛ طيلة خمس دقائق؛ كان كل واحد منهم يفكر في خُدعة محبوكة؛ كان الذي تحرك لسانه هو رائد؛ نطق سائلا؛ مُشركا إياهم في التوصل إلى وسيلة ناجحة:

- أليست ريم طبيبة؟

أجاب الثلاثة؛ مُتجهة إنظارهم إليه باهتمام شديد:

- نعم.

قال؛ مُقحما إياهم مرة أخرى في فكرته؛ مُتسائلا:

- هل إذا طُلب منها إسعاف أحد تعرض لإصابة من إصابات الغوص؛ هل تكون مُلبية؟

أجابوا جميعا بنفس الكلمة، مُتلهفين إلى أن ينتهي بهم إلى الحيلة:

- نعم.

وأردف قائلا بأسلوب التساؤل مرة أخرى:

- أو أحد من ركاب مركب اشتد به المرض؛ فإنها لا تُبطئ؛ فذلك واجبها؛ أليس كذلك؟

أجابوا، ولهم إحساس بأنه سينتهي إلى نتيجة من هذه التساؤلات:

- بلى.

قال مُنسقا بين كل ما ساءلهم فيه:

- سواء كان أحد الغواصين قد تعرض لإصابة الغطس، أو أحد ألم به مرض ما، فهو في مركب، وما على قائد هذا

الأخير إلا أن يرفع علما على رأس السارية؛ من أعلام الملاحة البحرية المعروفة؛ المتعارف عليها دوليا، وتكون إشارات تخاطُب بين السفن، وبين هذه وسكان البر؛ باللون الأصفر، يطلُب به الإسعاف.

قال إسبرون، وقد أدرك ما يريد رائد أن يصل إليه:

– فمركب يدنو من جزيرة التمساح وجزرها الأخرى؛ ويظل يُبحر بينها؛ في مياهها؛ يطلب بإشارة من العلم الأصفر مُسعفا طبيا؛ لا بد أن يُحرك شعور ريم بالمسؤولية، وهي في إحدى الجزر، والذين يحتجزونها؛ لا بد وأن يرضخوا للعُرف الدولي، وإلا سيكونون عائقا أمام تأدية طبيب لمهمة إغاثة شخص؛ قد يودي به مرضه إلى الموت، فيُعاقبون عن ذلك أشد العقاب.

قال رائد وقد سُر إلى أبعد الحدود؛ بما تفوه به إسبرون؛ حابكا به معه الخدعة:

– فالمركب الذي نكتريه؛ نُظهره على أنه كان في رحلة بحرية طويلة؛ تتبدل فيها أحوال الإنسان؛ آتيا من الغرب؛ خاض في أمواج المحيطين؛ الأطلنتي، والهندي؛ فكان من بين ركابه من استفحل به مرض؛ فرفع العلم الأصفر إشارة يطلب بها من يتوفر على وسائل الإغاثة، ومؤهل تكوينا لذلك؛ إلى تطبيبه؛ وقد يكون سقمُه عدوى، فليس أمام الخاطفين إلا أن ينقلوا ريم إلى المركب، والذي يتطلبه معرفة من طرفكم؛ هو أنها ستكون تحت حراسة مُشددة، فلا فعل مضاد نقوم به إلا

أن نُخلصها منهم بالقوة؛ مُتصرفين حسب ما يتوجبه منا الظرف القيام به.

قال أمجد مُفكرا جيدا فيما قاله في الأخير رائد:

– إذا خططنا حتى آخر فعل نقوم به؛ ستكون الطريقة مُرتسِمةً في أذهاننا بوضوح تام.

قالت روز ناطقة بآخر مرحلة تكون ناجحة، ونهاية للعملية:

– لن نكون جميعنا على ظهر المركب؛ واحد منا سيكون ممدا على مُضرّبة المقصورة؛ مُتظاهرا بالمرض، والآخرون سيكونون في الخارج مُستعدين للهجوم على الحراس؛ الذين لا نتكهن بعددهم.

قال أمجد مُقدِّما تكتيكا رآه مُناسبا:

– في جميع الأحوال نكون مُتخفّين عنهم، لأنهم يعرفوننا، لذلك، فالثلاثة منا يكونون غاطسين في ماء جانب المركب، ومُتأهبين للهجوم بقوة ضاربة.

قال إسبرون وقد أتته فكرة تكون بداية للعملية:

– واحد منا يُتابع ظهورهم وريم معهم من إحدى الجزر بالمنظار ذي العدستين؛ ناقلا لنا ما يراه.

تساءلت روز متقدمة في التصور للخطة؛ قائلة:

– لا ندري ما إذا سيسوقون ريم إلى ظهر زورق، أو يأتون بها بالطائرة المائية؟

قال إسبرون عارضا سلاح قوته، وتأهبه:

– سواء بذاك، أو بهذا؛ لن تكون ريم في أيديهم مرة أخرى بعد ذلك.

قالت روز مُنهية اجتماع التخطيط للعملية:

- لنكون يقظين، وفاطنين في أي ظرف.

قاموا من جلوسهم، وقصدوا ميناء الجزيرة؛ الذي يقع في الشمال منها؛ حيث استأجروا مركبا شراعيا لمدة تكفي لإجراء تحرير ريم، ومعدات للغطس قد يحتاجون إلى البعض منها.

الفصل التاسع
العلم الأصفر

بدا لصاحبي قارِبين -ولم يكن غيرهما في ماء جزيرة التمساح والجزر الصغيرة- من أفق البحر رأسُ صار؛ يُرفرف عليه علم أصفر، وقد أدركا إلى ماذا يشير، ولكن أحدا منهما لم يترك مركبه يتحرك في اتجاهه؛ لأنهما معا لم يكونا مؤهلين للقيام بإنقاذ من ألم به مرض من بين ركاب المركب الشراعي؛ إذا كان هناك عدد منهم؛ فظلا يُتابعان اقترابه من الجزر؛ فما لاحظاه هو أنه لم يكن يُوجهه أي أحد؛ فقد ظهرت لهم عجلة الدفة تدور وحدها في حركتين ضيقتين؛ إلى الشِّمال وإلى اليمين؛ أحد ما ثبتها في تينك الحركتين؛ ليظل المركب يتقدم في اتجاه واحد؛ صوب شطآن الجزر؛ يطلب من يركبه بلون ذلك العلم؛ مُختصين في الطب إنقاذ أحد على متنه أصيب بمرض، وهناك ما يُثير المخاوف، ويتعلق كذلك بالمركب؛ هو أن الشراعين لا يكونان في الوضع الصحيح، فهما يُرفرفان فقط بالريح، والحبال مرخية غير موترة لتلعب دورها في دفعه، وقد ينطق من له دراية بالإبحار قريبا من جزر الحيد المرجاني، بأن المركب يذهب به تيار المحيط، وفي هذا خطر، فقد يقع في مصيدة المياه الضحلة، إلا أن في حقيقة الأمر يمتطي المركب أربعة أشخاص؛ واحد منهم متهالك على مُضربة بنسيج اصطناعي؛ كأن مرضا ألم به؛ لم يعد يقوى على الحركة، وهو إسبرون، والثلاثة الآخرون؛ روز، ورائد، وأمجد؛ يرتدون لباس الغوص فقط؛ ممددين على سطح

المركب باضطجاعة يُخفون بها أنفسهم وراء المقصورة؛ أحد منهم يُمسك بالمنظار المكبر؛ مُستعدا ليُوجّهه إلى مساحة الماء الواسعة؛ ليقتنص به من يتقدم إلى المركب؛ الذي لا قابض على مقابض عجلة دفته؛ وهي روز. مر وقت طويل، والمركب حامل لرُكابه المتيقظين؛ يسير ببطء بين الجزر، ولم يستسلموا لملل انتظار ما قد يكون مجهولا لديهم؛ وهم بنفس الأحاسيس والشعور؛ جاء صوت من فاه روز؛ سمعه الثلاثة؛ كانت قد قالت:

– ما أراه الآن هو زورق ينطلق من شاطئ الجزيرة التي توجد إلى جانب المركب الأيمن؛ إنه يبدو لي في العدستين بعيدا... اِنتظروا... إن رجلا بنظارتين سوداوين؛ يقوده بالمحرك المُوجه، وفي قعره ريم مُغمضة العينين بمنديل أسود؛ إن مختطفيها يعملون على أن تبقى الاتجاهات، والأمكنة؛ مجهولة لديها، وإن لِذلك أثر نفسي عليها، وأي أثر! إنها طريقة ترهيب، وتعذيب في نفس الوقت.

قال إسبرون بغضب:

– سأكيل لهم بصَاعِهم.

تابعت روز نقل تقريرها المباشر؛ قائلة:

– ولكن مقدمة الزورق تُوجه عكسنا... إلى الشمال... إنه يبتعد... اِنتظروا لحظة... حلقت من حافة إحدى الجزر الطائرة المائية... إنها تلحق به... تحط... تُركب فيها ريم، ويعود الرجل ذو النظارة السوداء بالزورق إلى الجزيرة التي أبحر به منها... تحلق الطائرة... إنها تتجه نحونا... إن قائدها يُنزِل

مؤخرتي الجناحين ليحط بها قريبا مِنا... هيا انسلوا إلى الماء، وأنت يا إسبرون عُد إلى فراش المرض؛ لم يكونوا يشاهدون شيئا؛ كانوا يسمعون مروحة الطائرة تتوقف، وكلام يُتبادل بين رجلين؛ قال أحدها للآخر:

- اِصعد إلى القارب وتأكد أولا من عدد الركاب، وإذا ما كان هناك فعلا مريض يحتاج إلى تطبيب مُستعجل.

قال الآخر بخوف:

- لن أتقدم أكثر، ولن أدخل إلى المقصورة؛ فقد يكون المركب موبوءا، وإن كنت حملت معي كِمامة متينة.

ولف أنفه وفمه بالكمامة؛ فصار صوته مكتوما إلى حد ما.

قال الآخر مُخططا له:

- يكفي أن تنظر من نافذة المركب الدائرية.

وقد نظر المُكمَّم من النافذة، فرأى جسدا ممدا؛ لا يتحرك، ضعيف الزفير والنفير، فنطق بصوت يُسمِّع به صاحبَه ما يقول:

- هذا شخص يُبحر وحيدا في البحار والمحيطات؛ إنه من أولئك الذين لم يجدوا ما يملأون به حياتهم غير خوض الأمواج؛ في دورة حول العالم؛ والنتيجة مأساوية؛ هي سقوطه مريضا؛ لا رفيق له في سفره البحري الطويل ليعتني به.

قال الذي بدأ بإعطاء أوامر حسب ما يتطلبه الظرف؛ إلى الذي وطأت قدماه سطح المركب:

- هيا تراجع إلى زاوية تراقب بها ما يجري داخل المقصورة.

ثم انْتقَل بأمر إلى أحد آخر؛ قائلا:

– وأنت أيتها الطبيبة؛ هذا مريض في مركبه، لا ندري كم مر من يوم وهو في حالة صحية مُتقهقرة؛ فانزلي، وافحصيه، وانظري ما إذا يتطلب منا القيام بفعل ما لعِلاجه.

كانت آذان الأربعة تسمع كل ما يدور من كلام بين رجلين اثنين؛ فعرفوا أن الذي يوجه مرافقه في عملية الانقاذ لم يبرح كرسي الطائرة، فهو قائدها إذن، والآخر ظل على سطح المركب، وكانت الحركة التي كانوا ينتظرونها بفارغ الصبر وباستعداد؛ هو نزول ريم من الطائرة، وسيرُها على سطح المركب؛ فسمعوا قائد الطائرة يقول:

– اِنزع عن عينيها العِصابة، وامنح لها حرية قيامها بما تراه هي الطبيبة الخبيرة؛ ضروريا لفحص المريض.

ما إن دخلت ريم إلى المقصورة حتى قام إسبرون على قدميه، ودفع ريم برفق إلى عمق داخل مقدمة المركب، وخرج من المقصورة وأوصد عليها بابها، وهجم على المكمم، فكال له لكمات قوية، ورمى به إلى الماء؛ في ذات الوقت انبثق من الماء الثلاثة؛ توزعت أدوارهم؛ فقد هجم رائد وروز على نافذتي الطائرة؛ ليُطبقا بأيديهما على قائد الطائرة؛ إلا أنه شغل المحرك، وأسرع بها على الماء ليُحلق بها هاربا؛ وقد نجح، فرمى رائد ورزو بجسديهما إلى الماء؛ ناجيين بنفسيهما؛ كان أمجد قد صعد إلى المركب؛ مُستعدا للوقوف إلى جانب إسبرون إذا ما عاد المكمَّم من الماء؛ إلا أن هذا سبح بعيدا؛ اِلتقطته الطائرة؛ في رجوع قائدها بها بعد تحليق منخفض، وحملته إلى الأعلى في الجو؛ ، فلم يبق لرائد وروز غير السباحة

بقوة إلى المركب، فيمتطياه، وتُسرع روز إلى عجلة الدفة، وتُشغل محرك المركب؛ ليدير المروحتين؛ لتدفعا هاتان المركب إلى الأمام بعيدا عن الجزر، ثم ترفع صوتها؛ مُوجهة أمرا واحدا لا غير؛ إلى أفراد جماعتها؛ قائلة:

- أُنشروا الشراعين، ووتروهما بالحبال، فهذه رياح شمالية شديدة تهب؛ تُبعدنا عن عِصابة الاختطاف، وتُلقي بنا في خط الإبحار المتجه إلى جزيرة (ماسكرين).

كان الحماس يدفعهم إلى فعل أي شيء يحققون به النجاح؛ فيما خططوا له، لذلك كانت آذانهم صاغية بانتباه شديد لتوجيهات عالمة الطيور؛ فهي الخبيرة بالإبحار في الغرب من المحيط الهندي؛ وبين جزره الكبيرة والصغيرة، وقد قاموا بما أَمَرت به؛ فكان المركب ينطلق على الماء بسرعة كبيرة؛ خارقة مقدمته الأمواج، والبغية طبعا هي الابتعاد أكثر من أن يلحق به جماعة الذي يريد أن يَتسلّط على نشاط استزراع اللؤلؤ في المحيط الهادئ.

بعد أن تبث الشراعان في مهب الريح، واستقام المركب في خط إبحاره؛ في الاتجاه الذي وجهته إليه روز بعجلة الدفة؛ ظل إسبرون في المؤخرة ينظر إلى الوراء بالمنظار المكبر؛ يُراقب ما إذا سيتعقَّبُهم الذين خلَّصوا من أيديهم ريم، ونزل أمجد ورائد درجات السلم المفضية إلى داخل المقصورة؛ ليَطمئنّا على حالة ريم؛ كانت هي لما وجدت نفسها -من قبل- أمام إسبرون؛ أدركت يقينا أنها تحررت؛ فعاد شعورها بالأمان، وتمددت على إحدى أرائك المركب؛ مُنهكة؛ وعادت إليها

بعد قليل حيوية، فنظرت بابتسامة تعبر عن فرحة باطنية؛ إلى زائريها، وبامتنان كبير.

كانوا يُدركون بأن العملية لم تنته؛ ونجاحهم فيها هو أن يعودوا إلى جزيرة (كوزين)؛ حيث بيت روز؛ بدون عوائق، ويتجلى ذلك في أنهم يُحسون إلى أي حد تملكت أولئك مرارة الانهزام، واستغبائهم باستدراجهم بحيلة محكمة؛ لم يكن مثلها في حسبانهم؛ إذن فلا يستبعدون أنهم سيعودون لمواجهتهم؛ وقيامهم بأي فعل سيء لجماعة روز. كان الصمت يُلجِم ألسنة أصدقاء ريم، فلا صوت غير صرير الصاري العالي، وحفيف الشراعين، وخرير الأمواج، وهزيز الريح، ولم يدم سكوتهم، ولا سكون حركاتهم المنتظِرة بقلق، واضطراب في نفوسهم؛ فقد وصلت إلى مسامعهم أصوات هدير المحركات؛ قال إسبرون، وقد التقطت عيناه أجساما تتحرك في اتجاههم:

– إنه زورق من تلك الزوارق السريعة؛ التي تُسرّع بأربع محركات موجَّهة، وفوقها مباشرة في الجو تحلق الطائرة المائية... إنه زحف للعدو... إنها حرب تُعلن علينا... إننا سنكون في رحى معركة... اِستعدوا للمواجهة.

اِقترب منهم الزورق بسرعة خاطفة، ثم تجاوزهم على شِمالهم بمسافة قليلة، ودار إلى اليمين، مُحاولا سائقه أن يقطع عليهم الطريق؛ أو يُبطئ قيادة روز للمركب؛ إلا أنها لم تستسلم، وراوغت القارب؛ بتوجيه المركب إلى اليسار؛ في نفس الوقت انطلق من الطائرة صوت فرقعة حاد؛ لم يطرأ على بالهم أنهم سيكونون هدفا للقتل بالرصاص، فأسرع إسبرون إلى عجلة

الدفة؛ أمسك بمقابضها بقوة، وصاح على روز بأن تحتمي بالمقصورة أسوة بالثلاثة الذين كانوا بداخلها، وصار يوجه المركب؛ مُراوغا به الرصاص المندفع من مسدس يمسك به أحد؛ يحتل الكرسي الذي يوجد بجانب قائد الطائرة؛ وصاح بكل ما أوتي من قوة الصوت؛ قائلا:

- لن أنسحب من أمامكم أيها العملاء؛ الخنوعون؛ الأناذل؛ الخسيسون؛ سأُجابهكم؛ سأقضي عليكم.

والذي قام به هو أنه استغل دورة قصيرة دارها زورقهم، فوجه مقدمة المركب إليه؛ صادما إياه بقوة حتى تكسر جانبه، وانشق إلى نصفين؛ راميا بجسدي رجلين كانا به إلى الماء، ورفع رأسه إلى الأعلى؛ إلى انقضاضات الطائرة عليه؛ بعدد من الرصاصات؛ زناد مسدسها دائما بيد المصوِّب، وبالرغم من العديد من مراوغاته للطائرة التي قام بها؛ فإنه أصيب بخدش في كتفه الأيمن برصاصة؛ لم تُضعفه، وأراد أن يستمر في قيادة المركب؛ إلا أن روز نادت عليه بأن يترك مكان القيادة؛ لبّاها، فتراجع إلى المقصورة؛ نابت عنه هي، وتزعمت المعركة بنجاح، لم تكن أقل من مهارة إسبرون، ذلك أنها سارت على نفس ما كان يفعله إسبرون، وظلت تقود المركب في دوران متكرر؛ يُميله إلى حد يكاد أن ينقلب على جنبه، فاختلطت على راكبي الطائرة اتجاهات سير المركب؛ ولم يعد يضبط الحامل للمسدس الوضع المناسب لإطلاق الرصاص؛ وكان الخزان يُفرغ من الخراطيش، فيحشوه بأخرى مرة بعد مرة حتى نفد، فازدادا غيظا، وبالتالي لم يرحمهما إحساسهما

بفشلهما، فأرادا أن يقوما بمحاولة أخرى للسيطرة على المركب؛ ذلك ما تكهنت به روز؛ رأت الطائرة تحلق راجعة إلى الخلف، وتتبعتها بأن جعلت المركب ينعطف عكس سيره؛ لتُرسل ناظريها إلى التقاط ما سيجري، وقد حدث أن عادت الطائرة، في هذه المرة شاهدت الضارب بالنار يتدلى من باب الطائرة؛ محاولا الهبوط على سطح المركب؛ والترجل عليه، فاضطرب تركيزه، فاستحال عليه ذلك، فتراجع به الطيار مُنعطفا إلى اليمين، وغابا بالطيارة في غيوم خسران ساحق، وكانت روز تدرك أنه عمل جنوني؛ بعد شعور بانتكاس مر، وأن هذين العنصرين قد فشلا، وهما من تلك الجماعة، فيكون انهزام هذه الأخيرة ككل.

أنهت روز المعركة بانتصار على أولئك، وليس بعدها طبعا إلا هدوءا يعود إلى جهة من المحيط الهندي، فأدارت الدفة؛ ليأخذ المركب خط إبحاره الصحيح إلى جزيرة (ماسكرين)؛ وصارت الآذان تسمع من جديد صوت الموج، ورفرفة الشراعين، وصرير أجزاء الساري العالي، واسترجعت النفوس سكينتها، وطمأنينتها، وفرحت لاسترجاع ريم من حبسها، وكسب المعركة؛ التي لولا صمودهم أمام شراسة البادين فيها، لأفنوهم ببرودة دم.

كان لا بد للمواجهة أن تنتهي إن عاجلا أو آجلا، ولا بد أن يكون من بين المتحاربين من يُنهيها بالفوز فيها، وهي قد جرت بينهما؛ كان المهاجم فيها يسعى إلى تحقيق هدف، ولكنه ليس نبيلا؛ عكس هذا كان بغرض التسلط، وإرغام

المنافس على التراجع، وإخلاء الميدان له، ليتصرف فيه بحرية، يُحقق بها ما لا يقنع به، ويعمل بغير المشروع للمزيد.

جاءت ريم إلى روز، وطمأنتها قائلة بأنها عالجت الخدشة التي أحدثتها الرصاصة في كتف صديقها إسبرون، بالسائل المداوي، وشدَّتها بالضِّمادة؛ اللذين كانا متوفرين في حقيبة الإسعافات؛ تبعها إليها رائد وأمجد وإسبرون؛ هنأوا بعضهم البعض على صدّ عجرَفة عصبة المندفع لاحتكار الميادين.

كانت الطائرة تضمهم؛ وكانت عالمة الطيران تُسرّع عجلاتها على رصيف مطار جزيرة (ماسكرين)، وتحلق بها عاليا، وصوت جهاز الاتصال لا يكف عن الضجيج؛ لكلام مهني متبادل بينها وبين العاملين في برج المراقبة، وينتهي، فلا يسمع الجميع إلا هدير المحرك، وصوت الريح، ولا يحسون إلا بحركات هيكل الطائرة في الجو، وبعد أقل من عشرات الدقائق كانت روز تحط بهم على رصيف جزيرة (كوزين)، وكان المكان الذي مالت نفوسهم إليه هو بيت عالمة الطيور؛ التماسا للراحة من عناء رحلة شاقة؛ كانت بذلك؛ لأنهم قاموا بها لتنفيذ مهمة جد صعبة، بل هي بوصف دقيق مغامرة؛ لأنها كانت فيها مواجهة من آخرين؛ من أشرس أفراد جماعة؛ لولا نجاحهم فيها، لكانت الطبيبة ريم في عِداد المفقودين.

الفصل العاشر

معركة الغطاسين

أ العمل التالي إنجاز عظيم، ويتطلب مجهودا كبيرا، وتعاونا بصفاء في القلب، وبرغبة شديدة، وبنية حسنة؛ ليس في هذه الأخيرة زيغ، ولا يتسرب إليها نفاق، هذا ما يتطلبه ذاك من أفراد الجماعة المتآلفين فيما بينهم؛ في الأيام القليلة الأخيرة، وهو رفع مزرعة اللؤلؤ الأسود؛ من عمق المحيط؛ إلى سطح الماء، وجرها تعويما إلى مكانها الأول كما كانت؛ في المياه المجاورة للشاطئ؛ ليعود إليها إسبرون؛ ليديرها -بخبرته الطويلة التي اكتسبها- مشروعا ناجحا؛ لهذا اجتمع الخمسة: روز، وإسبرون، وأمجد، ورائد، وريم، في التقاء تمهيدي -بالتعبير الصحيح- لأن الاجتماع الرئيس؛ الذي يُسفر على وضع خطة لاسترجاع مزرعة اللؤلؤ؛ سيكون في الغواصة (أنقليس 1)؛ تحت توجيه، ورئاسة الأستاذ أسعد، فكان أول من تكلم هو أمجد؛ قال:

- كنا في رحلة اعتيادية بغواصتنا، ولما التقطت لنا أجهزة هذه جسما غريبا، وغاص إليه أفراد منا مرتين؛ تأكدنا خلالهما بأنها شباك حديدية، مُستزرع فيها المحار؛ لإنتاج اللؤلؤ، واطلعنا على اسم المزرعة، واسم صاحبها، وإحداثيات الجزيرة التي توجد بها؛ كان جميع هذا مدقوقا على صفيحة مُثبتة بها، قررنا الترجل على الجزيرة، والبحث عن الرجل الذي يسمى بِ(إسرون).

كان إسبرون يسمع جيدا ما يقوله أمجد، فكان يبتسم، ويُحرك رأسه راضيا، وسعيدا؛ بتفاصيل مزرعته التي نُطِق بها؛ كان قد نسيها، وقد تذكرها الآن، فازداد أيضا حيوية، وأصبح جسده يتحمس، وتُعجِّلُه نفسه إلى رؤية مزرعته وهي تُبعث من جديد، لأنها كان فيها كل آماله في الحياة.

قالت روز، وهي تريد أن تزيد من شعور الجميع؛ بأهمية المزرعة بالنسبة لصديقها إسبرون:

- إني أطلب منكم أن تفعلوا كل ما في مقدوركم في استرجاع المزرعة، إنها بلسم لصديقنا إسبرون، إنا نبعثه من حالة كانت لا تُطمئن أبدا؛ إلى حالة إنسان بكامل ثقته بنفسه، وحماسته، وشخصيته المتزنة.

قال رائد حاثا الجميع على التحرك بسرعة:

- لا بد من أن نتعجل جميعا بالالتحاق بالغواصة، لأننا لا نعرف ماذا سيخطط له رئيس العصابة، المسخِّر لعملائه؛ للقضاء على أي شخص، ومشروعه، يراه منافسا له، فما يؤخرنا عن استعادة المزرعة، وما يُنسينا بأننا كنا هدفا لرصاص مُتمرّن على التصويب؟

قامت ريم من جلوسها، وعقلها هناك في داخل الغواصة الأم:

- هيا بنا إلى الغواصة صغير الكنغر، لتغطس بنا إلى حيث نستعد لِما تحمست إليه نفوسنا القيام به.

نطقوا جميعا بنفس الجملة:

- إلى عالم عُمق المحيط، إلى محار اللؤلؤ الأسود.

اِستدعى رائد -إلى ماء شاطئ رملي خال من صخور معيقة-الغواصة البرمائية، بآلة تسييرها؛ كانت تتسع لهم الخمسة، وغادرت بهم ساحل جزيرة (كوزين)؛ متجهة إلى الغواصة، ولم يمض وقت طويل حتى كانت تتقدم بهم إلى أسفل بدن (أنقليس 1) المعدني؛ حيث المدخل المرحلي، لتصعد أفقيا، وينجلي عنها الماء، ليجد إسبرون، وروز؛ نفسيهما في هيكل فولاذي فسيح؛ فيه كل ما يحتاج إليه الإنسان، وهو في ظلمات أعماق مياه الكرة الأرضية؛ قدمهما إلى أسعد، وبسام، ورهف؛ رحب هؤلاء بهم بابتسامات تخلق أخوة بمحبة؛ وتقربا إلى بعضهم البعض، باشتراك في عمل يُثمر الكثير من الحصائل النافعة. كانت الحجرة المخصصة للمكتبة، والاجتماعات؛ هي مكان التقائهم جميعا، فجلسوا مُنجذبين بهيئة الأستاذ أسعد؛ التي تكتسي مظاهر الوقار، والنظرات العميقة، وملامح وجه جدية، وابتسامة خفيفة؛ نتيجة ما في باطنه من ثقة في النفس، ومُبشِّرة بنجاح مستقبلي، وتشحن الآخرين بذلك، فتكبُر آمالُهم.

قال أسعد بدون أن يقدم للاِجتماع بكلام فيه تذكير للجميع لموضوعه:

- جميعنا نشعر بجسامة العمل الذي نحن مقبلون عليه، لا من ناحية ما يتطلبه منا من فعل تقني، ننجح به في جعل أقفاص الاسترزاع تطفو على السطح، لنقلها في مسافة عشرات الأميال؛ إلى جزيرة (كوزين)، ولا من ناحية أخذنا

في حسباننا أننا سنُواجَه من طرف الذين أغرقوها أول الأمر؛ هل في عمق الماء، أم على سطحه، أو في شاطئ الجزيرة؟ فلا أقول؛ غير أن وقت العمل قد دق لتعيين من يغطس لتحرير المزرعة من عمق الماء.

قال رائد عارضا تقنية التعويم:

– هي تقنية معروفة في رفع الأجسام من العمق إلى السطح، وقد سلف أن استعملناها في المحيط الهادئ؛ في رفع غواصة غرقت بعد مقتل أفراد طاقمها بخزف مسموم؛ أدواتها هي أكياس مفرغة من الهواء؛ تُثبت تحت الشيء الغارق، بعد ذلك تُملأ بالهواء المضغوط، فترفعه إلى الأعلى؛ إلى سطح الماء، فإذا نجحنا في هذا، لا يُحتاج لحملها إلى مكانها إلا لمركب يتسع لها.

قالت روز سعيدة كثيرة بالفكرة، وقد بدت لها أنها ستنجح قبل تنفيذها:

– إذا نقلتموني إلى الجزيرة بالغواصة البرمائية بعد ذلك، سأجد سريعا من يمتلك مركبا، ويكون مُستعدا لتحميله بها.

قال أمجد حاثا على اختيار مؤهلين للعملية:

– اِبدأ يا أستاذ أسعد باختيار من هو مؤهل.

قال أسعد ناظرا في عيني الذي رآه ناجحا في المهمة:

– رائد... اِستعد يا هذا... تسلح بمعدات الغوص المناسبة؛ الخوذة النحاسية، وحذاء السير في قاع المحيط، ولباس الأعماق، وإن المكلف بالأكسجين سيُشرف بانتباه شديد إلى تزويدك به بالأنبوب الطويل.

قال أمجد، وقد نظر هو الآخر في عيني الذي اختاره:

– روز... التريث في العمل، والتدقيق في تفاصيله، والهدوء أثناء القيام به؛ من طبائعك، فتهيّئي له، وإني متيقن أنك دائما من الناجحين.

قالت رهف ناظرة إلى أحد منهم بصرامة:

– أنت يا بسام؛ أثبت جدارتك في إنقاذ مزرعة اللؤلؤ الأسود... مُسترزع السيد إسبرون.

قال أسعد آخذا بعين الاعتبار أمرا مهما جدا في عالم الغوص:

– إن الغوص لأجل مثل هذه المهمات له مخاطره على حياة الغواصين، وليس بيننا المختص في طب هذا المجال إلا ريم، وهذا دورها الذي اختيرت له من البداية، وهي طبيبة رحلات (أنقليس 1)، فأنت يا ريم العنصر الرابع في رحلة الغطس هذه.

كان كلما نُطِق باسم واحد من هؤلاء؛ الذين عُينوا بالأحرى للغوص لتخليص المزرعة من غرقها، يحرك رأسه إشارة إلى موافقته، واستعداده، وقد مضى وقت ليس طويلا؛ ارتدوا فيه أردية الغوص، ومعدات هذا الأخير، وكان الاستثناء في شكل ونوع اللباس والمعدات؛ هو ما تسلح به رائد، وفي يد كل واحد منهم أداة كشط، أو حفر، أو تهشيم، أو تكسير، أو تقطيع، وغادر الأربعة مُتتابعين حجرة الغطس المرحلية؛ الواحد منهم بعد الآخر، وبعد قليل ظهروا على الشاشة التي يُتابعهم بها وهم يعملون في مراحل العملية: أسعد، وأمجد،

وإسبرون؛ كان جسد هذا الأخير تتناوبه أحاسيس، ومشاعر كثيرة، تتناقض فيما بينها، وتتوزع بين متضادّات؛ بين الفرح والحزن، وبين الأمل واليأس، وبين الرجاء والقنوط.

وزحفوا جميعا؛ في وقت واحد على الشِّباك، وشرعوا في كشط الكائنات البحرية الملتصقة بها؛ سواء كانت عوالقا أو قشريات، أو نباتات؛ زيادة على الرمال المتحركة بالتيارات المائية الباطنية؛ كانت تكاد أن تُغلفها بالكامل، فلا يُعرف شكلها الحقيقي، أو الحفر فيها، أو تكسيرها، أو تهشيمها، وكانت زعزعة تلك الأقفاص -بتعبير آخر- في مكان غرقها من عمل رائد، لأنه كان يحتذي حذاء الأعماق، فكان في وطئه في القعر قوة دافعة له، ومنصة صلبة، ليعمل جيدا بكتفيه وذراعيه؛ ساعده بعد ذلك الآخرون في تمرير الأكياس المفرغة من الهواء تحت الأقفاص، ثم أعطى إشارة إلى أمجد بتعبئتها بالهواء المضغوط، فانتفخت؛ إلى حد أنها بدأت تُحرك الشباك، وتصعد بها، ولم تُعومها في الماء مقدار ثلاثة أمتار؛ حتى هوجم غطاسوا الغواصة من طرف غواصين بالخناجر، وصل عددهم إلى ستة؛ ظهروا مُنبثقين من عتمة الماء من اتجاهات مختلفة؛ اندفع كل واحد منهم؛ بقوة مرهبة؛ إلى كل واحد من جماعة (أنقليس 1)؛ شاهرا خنجره؛ في هذه اللحظة بالذات شاهد الثلاثة الباقون في داخل الغواصة، الهجوم العنيف، وكان ما يحدث من احتمالاتهم، ولكنهم لم يكونوا موقنين بوقوعه، والذي تسلحوا به لصده؛ هو أنه تم تزويد خوذات أقنعة الغطس بميكروفونات (تحتمائية)؛ تلتقط

الصوت عن بعد؛ فَطنّت كلمات في آذان غطاسي إنقاذ مزرعة اللؤلؤ؛ توضح الموقف، وتُبين ما عليهم أن يقوموا به، لمقاومة الغواصين الزاحفين عليهم، كان الناطق بها هو أمجد؛ قال:

– إنه هجوم عليكم في أعماق المحيط لتنحيتكم؛ بالسلاح الحاد؛ الذي يُقطّع به أنبوب التنفس الذي يزود الغطاس بالأكسجين، وهو خنجر الأعماق؛ إنها معركة تجري بينهم وبينكم، فلتتلقف أيديكم خناجركم؛ اِكبحوا اندفاعاتهم، وأجهزوا بها على أنابيب التنفس، وذودوا في نفس الوقت عن أنبوب تنفس رائد الطويل؛ الممتد من الغواصة؛ فهو المستهدف بسهولة، وفيه موت لصاحبكم.

وذلك ما وقع؛ فقد أسرع أحد الغطاسين الهاجمين؛ إلى أنبوب رائد وقطعه، فأصيب باختناق، فأمر أمجد بسام قائلا:

– أشرك يا بسام رائد في أنبوب تنفسك... هيا بسرعة.

فأسرع بسام إلى رائد، ونزع عنه الخوذة النحاسية، يستنشق هو الأكسجين مرة من قنينة ظهره، ويناول الأنبوب إلى رائد ليستنشقه هو الآخر؛ وهكذا مضى يناوب رائد في ذلك؛ دافعا به إلى حجرة الغواصة التمهيدية، لينجو من الغرق، وليتسلح مرة أخرى بعدة الغطس، ويعود إلى ميدان المعركة ممتشقا خنجره، وكان بسام قد رجع إليها، وكان سيقضي الغطاسون الستة على غواصي جماعة أسعد، إلا أن المعركة ستتخذ منحى آخر؛ ذلك أن إسبرون، وفي أقصى غيظه، وامتعاظه الشديد لهيمنة الزاحفين على أصدقائه، لَبِس حُلّة

الغطس، وألقى على ظهره قارورة الأكسجين، وانتعل زعنفتين كبيرتين، وقبض بقوة على خجر حاد؛ قَطّاع، وخرج من الغواصة، مُلقيا بجذعه العريض على الواحد بعد الآخر؛ من ثلاثة من أولئك؛ باترا آنابيب تنفسهم، فتراجع جميعهم؛ صاعدين إلى سطح المحيط؛ يتناوبون على استنشاق الأكسجين؛ من الآنابيب التي نجت من خنجر (إسبرون)، ولما تأكد من أنهم تقهقروا من مياه عمق المحيط؛ مُنكسرين؛ مُحبَطين؛ يغزوهم الخوف من الموت بعد أن بُترت أنابيب التنفس، وكانت الأخرى مهددة بذلك؛ رفع عينيه إلى الأعلى فرأى مزرعته ما تزال ترفعها أكياس الهواء، وكانت روز هي التي تُرافقها؛ دافعة نفسها إلى الأعلى بالزعنفتين؛ بعطف شديد، وبرعاية حُنوّ؛ كانت أسبق الجميع بشعور بسعادة كبيرة؛ لأن عينيها كانتا لا تفارقان صدفات الأقفاص؛ التي تحتوي على اللؤلؤ الأسود؛ تصنتت جيدا في جهاز الاِتصال؛ لأمر وجهه إليها أسعد؛ قال لها:

– اِرجعي يا روز، ليوصلك أمجد إلى جزيرة (كوزين) بالغواصة البرمائية، لتجدي مركبا؛ ينقل أقفاص المحار؛ كما قلت من قبل، وإسبرون، ورائد، وبسام؛ سيصعدان إلى المزرعة الطافية، ويظلون حراسا عليها؛ إلى حين وصول مركب التّحميل.

كان هذا توزيعا لمهمتين؛ كُلفت بها مجموعتان من أفراد؛ متحمسون لهما من البداية، شاعرون بمدى الشرف الذي يتصفون به بتنفيذهما؛ هم من فريق، وهذا يتشكل من

متعاونين على عمل شريف؛ فيه مصلحة للجميع؛ بجني ثمارها تتحقق السعادة، والسلام، وتتقارب بها الآراء، وإن اختلفت فهي لذلك المبتغى النهائي العظيم.

وقد كانت روز واقفة إلى جانب بحار المركب؛ في كابينة القيادة؛ هي تنظر إلى الأفق؛ لا تنصرف عيناها عنه؛ ولحظة تطمَئن فيها عندما تظهر لها المزرعة الطافية من بعيد، فيكون المركب قد اقترب منها، وكانت يدا الربان لا تتنحى أبدا عن القبض باهتمام شديد على مقابض عجلة دفة التوجيه، وكان يصيح بأعلى صوت في الميكانيكي؛ آمرا إياه بمراقبة الاستمرار في درجة السرعة التي يدور بها المحرك؛ فلا ينبغي أن يكون تباطئا فيها، فهو كان قد أطلق العنان لمركبه بها؛ فإنه وهو الذي يمتهن الإبحار في طول وعرض المحيط الهندي؛ منذ ثلاثة عقود من الزمن، على علم بكامل حكاية مزرعة اللؤلؤ الأسود الحقيقية؛ وبحالة مالكها الذي سبب فقدانها ضررا كبيرا في نفسيته، وكانت قد دفعته إلى اعتزال خطِر.

وصل المركب إلى شباك المحار الطافية، لم يكن ما حان فعله هو تشغيل الرافعة؛ الذي كان يشرف عليه طبعا هو الربان بنفسه؛ آمرا عُماله بخبرة؛ على توجيه بكرات الرافعة، وحبالها، ومخطافها المخصص للانتشال، وكان يتابع مخلصو المزرعة الأربعة؛ روز، ورائد، وبسام، وإسبرون؛ كيف تمايلت عاليا شباك المزرعة؛ مُتدلية من رأس عمود الرافعة، وتُنزل حُمولةً على سطح المركب؛ بحذر شديد من أن تُكسر المحارات وتتفكك أسلاك الشباك؛ طبعا تسلق وراءها إسبرون جانِبَ

المركب، لتطأ قدماه بارتياح على سطحه، ليُلقي النظرة تلو الأخرى على مزرعته التي سُلبت منه مدة طويلة، ويتناول محارة، ويُفرق برأس سكين حاد بين صدفتيها، ويغرزه في أحشاء كائنها، ليستخرج منها لؤلؤة سوداء كبيرة؛ يُطبق عليها إبهامه، وسبابته، ويرفع يده بها عاليا؛ فتسطع عليها أشعة الشمس؛ تعكسه بريقا يشع في عيون الحاضرين المتابعين؛ ويصيح بصوت عال قائلا:

- إنها ليست ثمرة عملي أنا فقط في استزراع محارتها؛ إذا تفوهت بهذا؛ سواء جهرا أو سرا فهو ادّعاء، وأنانية، وحب الذات؛ إنها حصيلة تفاني أفراد جماعة؛ في القيام بما أحسوا به مسؤوليةً على عواتق تُجاهَه، وبميل إلى فعل الجميل؛ الذي لا ينساه إلا جاحد، ومغرور، وأبله... إخوتي لكم مني كلمات؛ مهما تفننت في التعبير بها؛ فإنها لا توفي حقكم، فأقول بدون تكلف؛ جملتين فقط؛ الأولى: شكرا لكم جميعا، والثانية: أتمنى لكم دائما التوفيق في أعمالكم... وإني أودعك يا أسعد، وأصدقاءك، وإني أرجو أن تسنح لنا الظروف فرصة أخرى للقاء بكم.

ولم يكد إسبرون ينتهي بما تفوه به؛ حتى رفع رائد يده أمامه؛ إشارة بأنه يريد أن يقول له شيئا، وقد ظهر للجميع إلى أنه يُنصت جيدا إلى أحد يُخاطبه من عمق المحيط؛ في ناقل الصوت؛ ويستمر رائد في التقاط ما يسمع، ثم أدار بوجه مبتسم، ومتفائل؛ إلى إسبرون، وقال له:

- هذا أستاذنا أسعد؛ يطلب منك؛ بعد أن تُرمّم مزرعتك، وتأخذ على يديك المتفانيتين وضعها الملائم للإنتاج، وتسييرها العادي من طرفك؛ أن يكون في بالك أن دعوة ستُوجه إليك مما يأمل من المتحمسين من بلاد مغرب الشمس؛ في الاستثمار في مجالات جديدة، ومربحة، والراغبين بصدق في المساهمة في تنيمة قطاعات وطنهم المنتجة، والجالبة للاِزدهار، وفي الصعود بالاقتصاد إلى مستوى عال؛ ينافس الاقتصاديات المتطورة الأخرى؛ بالقدوم إليهم؛ لتعليمهم ما اكتسبته من خبرة في إنتاج اللؤلؤ، بإمدادهم بتقنية زرع الأنوية في أحشاء كائن المحار، التي تنمو إلى لؤلؤ بأحجام مستحسنة، ومقبولة، وبناء الشِّبّاك؛ وزرعها بالمحارات.

لما سمع إسبرون هذا؛ زاد وجهه إشراقا، وقال بحماس منقطع النظير، وبفرحة غمرت باطنه:

- ذلك اليوم أسعد أيام حياتي؛ الذي أسافر فيه إلى بلادكم، ولا أبخل عليكم بأي خبرة في استزراع المحار، ولا بأي تقنية تتشكل بها المزارع، إذا استسلمت لتقتيري في ذلك؛ فأنا لم أكن أهلا لمساعدتكم الإنسانية لي إطلاقا، وإني ناكر للجميل، ورجل فاشل، وقليل المروءة؛ بأي مستوى تكون به مُستحبة.

نقل رائد ما وصل إلى أذنيه من إسبرون إلى أسعد، فكان ارتياح من هذا، وإحساس بتوفق فيما عرضه على ذي الاختصاص في تربية اللؤلؤ، وكانت استجابة وعد له من هذا

الأخير، فسمّع رائد إسبرون بالكلمات المعبرة عن ذلك التي نطق بها أسعد.

كانت العيون لا تبرح وجه إسبرون، وأصحابها يتبينون سعادته ترتسم على وجهه، فشاهدته يُميل جذعه ورأسه على الشباك؛ يُخرج منها خمس محارات؛ بعد أن اختارها بعينيه الخبيرتين، ويستخرج منها خمس لآلئ سوداء بحجم كبير مُبهر، ويجمعها بين صدفتين، ويدير عليهما سلكا من أسلاك المزرعة؛ شادا عليهما به، وقذف بها بعيدا؛ في اتجاه بسام؛ تلقفها هذا، وهو يقول:

– هذه خمس لآلئ؛ هدية مني إليكم، والأهم بالنسبة لي هي ذكرى؛ فاجعلوها فصوصا لخواتم، أو خَرز في عقد، أو حبة تتوسط صدفة موضوعة على حامل؛ كلاهما مجسم يزين سطح مكتب.

تلقى إسبرون كلمة شكر مقابلها سمعا؛ من رائد وبسام، ثم قال رائد بعد كل ذلك، وقد رأى أن تبادل كلمات الشكر، والتواعد على اللقاء مرة أخرى؛ لإنجاز ينتهي بحصيلة مرجوة من الجميع؛ قد وصل إلى نهايته:

– نترككما؛ يا إسبرون، ويا روز؛ لما ينتظركما من أعمال؛ تتطلب منكما وقتا طويلا من يومكما، ومجهودا كبيرا، ونقول لكما إلى اللقاء.

وتكررت جملة: «إلى اللقاء» على لساني عالمة الطيور، وزارعِ المحار.

ورفعوا أيديهم جميعا إلى بعضهم البعض؛ بتحية متبادلة؛ إسبرون وروز من أعلى درابزين المركب، ورائد وبسام من سطح ماء المحيط الجلِب؛ ثم شاهد هذان إسبرون؛ يحرك يده اليمنى لبحار المركب؛ بالتحرك؛ مُتوجها به، وبصديقته روز، وبأجزاء مزرعة اللؤلؤ؛ إلى جزيرة (كوزين)، وغطس رائد وبسام في الماء؛ عائدين إلى الغواصة؛ مُبشِّرين أسعد، وأمجد ورهف، وريم؛ بالهدية الثمينة، والعظيمة في إهدائها.

الفصل الحادي عشر

رسالة من قعر المحيط

في ساعة من صباح نهار يوم من شهر مارس؛ والأغلب أنها كانت العاشرة؛ لم يكن لقاء مبرمجا ومتفقا عليه؛ يجتمع فيه أفراد طاقم الغواصة، ولكنهم قصدوا بيت الأستاذ أسعد؛ ما الذي دفعهم إلى ذلك؟ إن فترة وصلت مدتها إلى شهر تقريبا؛ منذ أن رجعوا من رحلتهم إلى المحيط الهندي؛ لم يتزاوروا، فلم يروا بعضهم بعضا؛ فكان أن جمعهم شعور بذلك التقصير في حق بعضهم البعض، وخلت أوقاتهم من التزامات بالأوقات المقننة، وبشؤون مُطالبين بها؛ في يوم عطلة نهاية الأسبوع في ذلك اليوم من فصل الربيع؛ الذي تخففوا فيه من برودة فصل بارد مضى، وسطعت فيه شمس أرسلت أشعتها في الجو، فسرى في أجسام الكائنات الحية دفئا أظهر لها الحياة جميلة، وأمدت عناصر فريق أسعد العلمي بأحلام الانطلاق مرة أخرى؛ في رحلة غطس؛ في إحدى محيطات، وبحيرات العالم، أو في أحد بحاره، وأنهاره.

قال رائد؛ مُتذكرا الرحلات السابقة:

- إن ما يُلاحظ من رحلاتنا التي قمنا بها في ثلاث محيطات، وهي: الأطلنتي، والهادئ، والهندي؛ هو إلى أي حد تحتفظ في قيعانها على أشياء كثيرة غرَقت، أو أُغرِقت من طرف فاعل؛ تبقى أحداثها الحقيقية من الأسرار؛ مجهولة،

وتتطلب معرفة تفاصيلها الكثيرَ من البحث في أسبابها؛ والتدقيق في معلوماتها.

قالت رهف، وعيناها تبرقان بحماس؛ غالبا ما يظهر عليها:

– إن البحث عن القصة الحقيقية، وإن تطلب مجهودا كبيرا، ووقتا طويلا؛ مُغر إلى حد كبير، وفي التصدي له رغبة شديدة.

تكلم أمجد بسؤال يعني الجميع:

– يظهر أن هذه الحجرة التي لا يُتحدّث فيها إلا في الرحلات الاستكشافية، ومواضيع علمية؛ جذبتنا إليها دون شعور منا.

ضحكت ريم، وقالت بلغة الطب:

– هي حالة مُزمنة تأتينا مرة بعد مرة، أو ما يُشبه نزلة، ولا نتداوى منها إلا بالانطلاق في فضاءات المساحات المائية؛ الممتدة مئات الأميال، والغطس في أعماقها.

قال أسعد بدون هزل، ولا حلم؛ بجدية أكيدة:

– إذا كان أمرنا كذلك، فلنوجه طلبنا إلى الجغرافي رائد؛ الذي يعرف جهات الكرة الأرضية؛ ليحدد إحداها؛ قد نكتشف فيها ما يدفعنا إلى البحث عن ماهيته، وعِلّته، وعوامله، وأسبابه.

لم يكن ما نطق به أسعد ليفاجئ رائد، فهو دائما على استعداد؛ في تعيين ما يوجد في جهة ما هدفا لرحلات الغواصة (أنقليس 1)، فقال بدون وقت طويل للتفكير:

– إنها جزر بعيدة عن ساحلنا؛ تُنسب إليها حالة جوية تهم بلاد الشمال الغربي من القارة الإفريقية؛ تتميز بضغط جوي مرتفع؛ يتجلى تأثيره في خلق طقوس يومية صافية، فمناخ جاف؛ إنها جزر (الآصور؛ Les Açores)؛ عددها تسع؛ تقع ما بين خط عرض 38° شمال خط الاستواء، وخط طول 28°؛ غرب خط (گرينيتش)؛ مستقلة ذاتيا عن دولة البرتغال.

قال أسعد مُعطيا الانطلاقة في رحلة إلى جزر (الآصور):

– نحن في بداية الفترة السنوية التي تكون فيها في الغالب الأجواءُ صافية، ويميل سطح الماء إلى هدوء في حركة أمواجه، فيكون مُناسبا للإبحار بالقوارب والمراكب، والسفن؛ سواء المُسيرة بالأشرعة، أو المحركات، وإسباح الغواصات على السطح؛ فإلى جزر (الآصور) نغطس، ونرحل في محيطها المائي؛ في مساحة دائرة قد تصل إلى عشرات الأميال.

تساءلت رهف، وهي تنوب عن الجميع:

– ماذا يا ترى سنعثر عليه في مياه جزر (الآصور)؟

قال بسام مُخففا من الانقياد فقط؛ إلى ما يمكن إيجاده:

– سواء وجدنا ما يثير إعجابنا، أو اهتمامنا، أو يُغرينا، أو يُبهرنا بالعجيب فيها، فإننا سنقوم برحلة إلى جزر تتوسط إلى حد ما المحيط الأطلنتي، ونتصيد معلومات عامة عنها؛ تزيد من معارفنا، وتجربة نخوض بها الغوص في تلك المياه.

آن وقت الاِنطلاق في الرحلة الرابعة؛ فلم يعد هناك تردد، أو رهبة، أو عدم الثقة، أو خوف؛ تتسرب أحيانا إلى قلوب

أفراد الطاقم، وهم يعملون في أجهزة تحريك الغواصة (أنقليس1)؛ من رصيف رسوها في النفق الأفقي، فقد تدربوا عليها جيدا؛ وخبروا أعطابها، فاتجه كل واحد منهم؛ وقد دلفوا إلى هيكلها؛ إلى الأداة اليدوية، أو إلى الجهاز الإلكتروني، أو إلى شاشات المراقبة، أو إلى الأزرار المستجيبة للبصمات السرية؛ المكلف بها كل واحد منهم، فغادرت بهم الغواصة ساحل مغرب الشمس؛ غاطسة في عمق الماء؛ مُتجهة إلى الشمال الشرقي؛ إلى الغرب من شبه الجزيرة (الأيبيرية)؛ إلى جزر (الآصور).

هي تسع جزر كما قال لهم رائد، وهي كالتالي؛ انطلاقا من شمالها الغربي إلى جنوبها الشرقي: (كرازيوسا)؛ و(ساو جورك)، و(فايال)، و(بيكو)، و(تيرسيرا)، و(سان ميگيل)، و(فلوريس)، و(كلوريس)، و(سانتا ماريا)، وصارت الغواصة مُبرمجة بسيرها في اتجاه كل جزيرة؛ بإحداثية كل واحدة؛ غاطسة في مائها، أو طافية على سطحها؛ يُحدق أفراد الفريق العلمي في الشاشة؛ في كل عنصر تنقله لهم؛ يُكوِّن نظامَها البيئي، سواء كان بشريا، أو حيوانيا فقاريا، أو لا فقاريا، أو نباتيا، أو نظام حياة الكائنات البحرية التي يُميز عمق مياهها؛ كان كل ذلك يُوثّق بالصوت، والصورة ، ويُوصف ترقينا على الحاسوب، كانوا ماضين في ذلك؛ طيلة الوقت؛ لأنهم كانوا يقومون بذلك برغبة شديدة؛ في اكتشاف الذي لا ينتهي عدُّه عند رقم معين، وتُمل عملية إحصائه؛ من تلك المكونات الإحيائية أو الصخرية لتلك الجزر، ولم يُعلن عن انتهاء الرحلة

بعد ذلك؛ بل استمر بهم مجسم (الأنقليس 1) في غطسه إلى أقصى جزيرة بركانية؛ إلى الشمال من جزر (الآصور)، وهي (كورفو)؛ وأبعد منها؛ إلى النقطة كما حددها جهاز تحديد المواقع؛ ما بين خط عرض 40° شمالا، وخط طول 32° غربا، فيكونون بذلك قد توسطوا شمال المحيط الأطلنتي، ما بين ساحل أوروبا الغربي، وساحل أمريكا الشمالي الشرقي؛ عندها بدأ رنين يُهيمن على سمعهم، كانوا يُدركون به دائما أن الرؤوس الاستشعارية؛ قد التقطت مجسما؛ من مكوناته معادن، فجروا إلى الشاشة التي تُظهر لهم ما صادفته الكاميرات؛ كان ما دققوا فيه النظر بقايا مركب؛ له صار طويل مُكسر؛ مما يعني أنه كان يُبحر بشراع، وغرق، أو أغرق، سيبحثون انطلاقا مما تبقى منه عن حدثه الحقيقي.

قال أسعد؛ مُحدِّقا دائما في الصورة التي تنطبع على الشاشة الكبيرة:

– ستُقرِّب لنا الكاميرات حُطام المركب، وسنُحاول أن نُحلل صورتَه، ثم نُمرره إلى برنامج الأبعاد الثلاثية، ليُعيد به عرض المركب بشكله الحقيقي، وبعد هذا سيذهب إليه ثلاثة منكم، لمعاينته؛ وهو مُتلاشي الأجزاء، ومغمورة مؤخرته بالطمي، والتقاط بالمصورة ما يحدد هويتَه، وما يعطي فكرة عن واقعة غرقه... هذه هي المراحل التي أرى أنه لا بد منها في حالة هذا المركب.

نظر أمجد إلى بسام؛ آمرا إياه قائلا:

- إلى ما يُتيح تكبير أجزاء المركب يا بسام؛ فاعمل بحذق؛ حتى نحصد الكثير مما سيتبين لنا؛ ونتوصل إلى معلومات صحيحة.

صار بسام يُزحزح صورة المركب في مستطيل الشاشة؛ مُكبرا أجزاءا منها إلى حدود سنتيمتر مربع؛ فما لاحظوه أنه مركب من مزيج من المواد؛ من الخشب المُوَرْنَش، والألمنيوم، والألياف الزجاجية؛ كل جسم المركب من الألياف الزجاجية، والقضبان، والصاري، وعجلة الدفة من الألمنيوم، وجوانبه، وداخله؛ من الخشب المورنش.

قال رائد، وقد توصل إلى ما يُساعدهم على المضي في جني الكثير من المعلومات:

- في إطار مقارنة نسخٍ من مراكب أخرى به؛ سنتوصل إلى سنة صنعه.

قالت رهف مُوضحة أكثر:

- إن هناك مصانع في أوروبا، وفي شمال أمريكا؛ مُتخصصة في صناعة المراكب الشراعية؛ وبموديلات تَنسخ منها عددا كبيرا، وتُطور ذلك؛ فلهذا؛ فكُل دفعة منها طراز صُمِّم، ويُروج له في سنوات ما.

قالت ريم مُعجبة بالفكرة:

- فكرة ممتازة؛ ذلك أننا سنجني معلومة هامة تتجلى في تاريخ صُنع المركب، وهذا يقربنا إلى الفترة الزمنية التي قام فيها بآخر رحلة بحرية.

بحث باسم عن صور لمراكب تطابق صورة المركب الغارق؛ في جميع المواد التي بُني بها، فما توصلوا إليه هو أنه نسخة من طراز من المراكب صُنعت مُتسلسلة في (إيطاليا)؛ في سنة 1990م.

قال أسعد مُستنتجا:

– وعلى هذا الأساس فإن تاريخ الغرق سيكون بعد هذه السنة.

قال أمجد؛ مُضيفا باستنتاج هو أيضا:

– ويُطرح سؤال تبعا كذلك لهذا: هل كان من يركب المركب من إيطاليا التي صُنع بها، أو من إحدى دول حوض البحر المتوسط؛ أم من شمال أوروبا؟

قال رائد مُلفتا اهتمام زملائه إلى عنصر آخر:

– عادة ما يُعطى للمركب اسم.

نظر الجميع إلى بسام، منتظرين أن يعيد تكبير أجزاء البقايا، فصار يقوم بذلك، وهم يُدققون أنظارهم في كل قطعة من المركب؛ عسى أن تظهر لهم عليها حروف لاسم؛ فلم يروا ولو جزءا بشكل من الكتابة.

قالت رهف مُتعجلة ما يُغريها، ويجعلها تتلقى حقيقته بعد جهد كبير بارتياح:

– إذن لا بد من غطسة إلى هذا المركب.

قال أسعد مُؤكدا الاستمرار في تحري حقيقة المركب:

– نعم؛ لا بد أن يغطس إلى المركب من سنختاره، وأنتم قد رأيتم حقيقة مركبا غارقا؛ كان له راكب، أو عدد من الركاب؛

هل غرق في عاصفة، وغرق معه طبعا من كان على متنه؟ وحتما سنجد فيه ما يقودنا إلى معرفة قصته.

سكت قليلا، ثم قال مُلتفِتا إلى أمجد:

- أستاذ أمجد؛ من الذي تراه مؤهلا للغطس إلى المركب؟

قال أمجد بدون طول تفكير:

- ريم؛ لأنها المختصة في تأثير الأعماق على الإنسان؛ وماذا يصيبه فيها، وقد تكون ما تزال في المركب الغارق دلائل على وجود جثث.

قال أسعد مُستحسنا جدا اختيار أمجد لريم:

- نعم؛ فهي التي تتوصل بما تبقى إلى وجود غرقى.

قال أمجد مُتنقلا بعينيه بين وجوه الآخرين:

- رائد؛ اِبحث في المركب بترو، وبدقة؛ عن كل ما قد يعطينا معلومة عنه، ومُصورا أدق ما فيه.

قال أسعد ناظرا في عيني باسم:

- أنت الفرد الثالث؛ إذا تطلب الأمر الدخول إلى بعض الأجزاء من المركب؛ ما تزال بهيئتها؛ فلا تتردد؛ فقد تجد في الداخل أشياء؛ إذا فحصناه بدقة؛ تمنحنا الكثير.

قال أمجد بعطف:

- وإنكم بأعيننا؛ إذا ما تعرضتم إلى خطر ما.

كان آخر ما تفوه به ماجد خاتمة لتعيين عناصر الغوص؛ من أجل ما يُعرِّفهم جميعا بهوية من كان بالمركب، وبسبب غرقه؛ إجابة عن السؤال؛ هل كان طبيعيا ذلك السبب، أم بشريا؟

اِتجه الغطاسون إلى المركب؛ تفرقوا؛ ليأخذ كل واحد منهم جانبا منه؛ كان رائد يُحرك زعنفتيه؛ دائرا حول ما تبقى منه، وغاص بسام وريم إلى داخله؛ إلى حيث كانت توجد المقصورة الوحيدة، والتي تتسع لركن فيه أدوات الإبحار، وأسرّة للنوم، ومطبخ؛ ظل بسام يبحث عن أي شيء يقود إلى معلومة، فما لاحظه هو أن كل ما كان يضُمه المركب من حاجيات من كان يبحر به تلاشى في الماء؛ إلا أنه، وفي انسيابه المتريث في الماء؛ وجد نصل فأس؛ رآه يكاد أن يُطمر بطمي الأعماق، وبالأعشاب البحرية، نبش عنه ذلك، وصوره، وتحت قطعة متآكلة من أريكة؛ ظهر له صندوق حديدي؛ قاوم عوامل عمق الماء؛ فما تزال مُغلقة دفته على شيء ما بداخله؛ عاد إلى الغواصة، وطلب من أصحابه مدّه بأداة حادة؛ فكانت تشغل يده اليمنى؛ فتح بها الصندوق؛ اِلتقطت عيناه في داخله أسطوانة من الفولاذ الصلب؛ مُغلقة الفتحتين؛ بصفيحتين دائريتين من نفس المعدن، صور الصندوق وما احتواه، أحكم كفه وأصابعه على الأسطوانة، وتابع مُتشجعا بحثَه عن مثل هذه الأنبوبة؛ ما يزال إلى حد ما شكله سالما؛ في ذلك الوقت كانت ريم قد استمرت في التقدم إلى مُقدمة المركب؛ وجدتها ما تزال بهيئتها؛ لم تتهشم بضغط الماء؛ أدركت سريعا العامل الذي لعب دورا في ذلك؛ أولا مادة (البوليستير) المصنوع منه هيكل المركب؛ ثانيا أنها على شكل مُثلث ضيق، يُخصص لما يُصان به المركب؛ من أدوات، وأصبغة، والمؤن، والأشرعة، والحبال؛ ثالثا أنها مُدعمة

بركيزة من ركائز تدعيم الهيكل؛ لها باب موصد بقفل؛ منطبق أشد الانطباق بالفتحة؛ طرحت سؤالا في نفسها: «ما الذي وُضع يا ترى في جوف هذه المقدمة؟»؛ لم تقرر ما تقوم به، وتراجعت إلى الوراء؛ بدأت مع بسام لغة إشارات الأعماق؛ فهم ما تعني، وتقدمها إلى المقدمة؛ نظر بإمعان إلى باب الفتحة؛ لاحظه بأنه مضموم إلى تجويف المقدمة بشدة، ومع ذلك رفع أمام عيني ريم الأداة الحادة؛ حركت هي يدها بإشارة استدعاء رائد أولا؛ فنطقت في ميكروفون القناع داعية رائد إلى الحضور، فقدِم بسرعة؛ وجّهت انتباهه بإشارة إلى المقدمة، وأظهر له بسام الأداة المسنونة؛ حرك رائد رأسه بالموافقة، فما هو إلا دقا بالرأس الحاد في الانطباق حتى انفتح الباب؛ أرسل رائد نظره إلى الداخل، ثم أدخل يده، وأخرج ما يشبه كيس من نسيج الأشرعة الاصطناعي، من ألياف البوليستير؛ محكمة أطرافه على شيء ما؛ لُف بها بحبل من حبال الأشرعة قوية الفتل؛ نزع رائد سكين الأعماق من غمد ساقه، وقطع الحبل، فانفتحت قطعة الشراع عن هيكل إنسان؛ كان في وضع جنيني؛ تحلل لحمه بالكامل، وبقي بعض القطع من ثوبه.

نظروا إلى بعضهم البعض بحالة نفسية مضطربة؛ غزاهم جزع، واستبدت بهم حيرة، وافتقد كل واحد منهم المبادرة بالكلام عن هذا الذي تمسك به أيديهم؛ هو كفن، والذي فيه مكفن به؛ وهذه المقدمة بشكلها المتماسك تابوت؛ فما العمل؟

كان الناطق في الذي يوصِل إلى أسعد؛ ما استخرجوه من صندوق مقدمة المركب، والرأي فيه الذي يراه صائبا؛ هو رائد؛ قال:

– بين أيدينا هيكل عظمي بشري؛ ما تبقى من جثة لُفت بحبل من حبال المركب؛ في قطعة من الشراع.

قال أسعد واضعا لهم إجراءات:

– صوِّروه وهو خارج الصندوق، ثم أعيدوه إلى داخله، وصوروه كما كان في وضعيته الأولى، واتركوا المركب، فذلك من مهمة موظفي مصلحة التحقيقات في الحوادث.

رجع الثلاثة إلى الغواصة، وما في بال أحدهم أن بسام قد أتى بشيء غريب في شكله، ولا تُعرف لأول وهلة الحاجة من تشكيله، وبعد جلوسهم في حجرة التدقيق والفحص؛ وضع بسام ذلك الشيء أمامهم؛ قائلا:

– ليست الصور التي أخذناها هي الوحيدة التي سنعتمد عليها، وهذا الشيء أيضا الفريد في صناعته.

صار كل واحد منهم يأخذ بيده الأسطوانة المغلقة من الجانبين، ويُطيل التحديق فيها، ويُحاول أن يحدد الحاجة منها؛ من شكلهما، فلم يتوصل أي أحد منهم إلى نتيجة؛ إلا بسام إلى حد ما؛ قال:

– ألا تلاحظون بأنها مصنوعة يدويا، وليس بطريقة ممكننة؛ أي بآلة لا تُخطئ تسوية المعدن وصقله، وأن صفيحتي الفتحتين الجانبيتين للأنبوبة؛ مُلحَّمتان برصاص فيه نسبة

عالية من القصدير، لتكون له فاعلية في التلحيم، وبِكاوِية يدوية فقط، أنتم ترون أثر رأسها المُحمّى؟

قالت ريم مُحملقة في بسام بإعجاب:

- ما أعظمه فحص! إنه عمل المِخْبري.

قالت رهف تبعا لذلك:

- لا يبقى إذن إلا الإجابة عن ثلاثة أسئلة؛ هي: أولا من صنع هذه الأسطوانة؟ ولأي حاجة؟ ومن أين له قطعة الأنبوب؟

قال أمجد عارضا طريقة الإجابة عن هذه الأسئلة:

- الأغلب هو أن الصانع هو أحد المبحرين بالمركب؛ حاجته إلى ذلك الابتكار نتوصل إليها مما خُبِّئ فيها، والقطعة التي شكلها منها؛ هي من أنابيب درابزين المركب، أو من جانب آخر من المركب؛ قطَّعها منها بمنشار تقطيع المعدن.

قال رائد مُلفتا اهتمامهم إلى طريقة أخرى غفلوا عنها:

- لم نُحرِّك الأسطوانة لنرى ما إذا كانت تحتوي على شيء.

عندمت سمع بسام ما قاله رائد؛ مدّ يدَه بالأسطوانة إليه؛ قائلا:

- هي في يدك؛ حرّكها ليُسمع لما بداخلها صوت حركة، وقل لنا -إذا ما أسعفك- ما هي طبيعته؟

ظل رائد وقتا وهو يحرك الأسطوانة، مُقربا إليها أذنه؛ قال أخيرا:

– بها شيء له شكل طويل، لكنه صوته مكتوم، لا تستطيع تحديده إذا ما كان معدنا، أو ورقا، أو لَدِينة.

قال أسعد؛ مُعطيا الضوء الأخضر لفعل حاسم:

– في جميع الأحوال لا بد من فتحها.

سكت، ثم التفت إلى رائد ناطقا بأداة:

– إليك الكاوية الإلكترونية يا رائد، فأَزِلْ إحدى صفيحتي الفتحتين؛ بطريقة تتمكن بها إعادة تلحيمها كما كانت بحالتها الأولى.

لم يتطلب من رائد فتح الأسطوانة؛ من إحدى فتحتيها؛ وقتا طويلا، وأطل بعينه في داخلها، وقال:

– بداخلها أنبوبة أخرى، وبداخل هذه لِفافة؛ لا أدري هل هي من ثوب، أو من ورق، أو من نسيج اصطناعي.

قال أسعد، وهو يرى دائما أن فعلا لا بد منه:

– أخرجها منها؛ سنُعيدها إليها فيما بعد.

قلب رائد الأسطوانة على الفتحة التي أزيل غطاؤها، فانفلتت منها لِفافة بيضاء؛ ما تزال بحالتها الأولى؛ لم تتغير بفعل عوامل عمق المحيط.

شاهدتها ريم، وسألتهم بعجب:

– هل هناك سر في احتفاظها بحالتها الأصلية تقريبا؟

أجاب رائد، وهو يُظهر لها داخل الأسطوانة:

– السر يكمن في الأنبوبة الداخلية، والتي تم عزلها عن معدن الأسطوانة الخارجية بالفلين الأبيض؛ فكان كلاهما عازلين اللفافة عن العوامل الخارجية.

قالت رهف وقد استخلصت مما تراه الشخصية التي صنعت الأسطوانة:

- إن الذي صنعها على معرفة بقدر من الثقافة، والعلم؛ وبذلك الشكل لتؤدي دورها الذي أراده.

ألبس أسعد يديه قفازتين، وبسط بهما اللِّفافة؛ دقق نظره فيها؛ قال:

- إنها قطعة من الشراع، وإنها مكتوبة بخط اليد؛ بحروف لاتينية؛ باللغة الإسبانية.

سكت؛ ذلك أنه بدأ يقرأ السطر الأول منها؛ قال بعد ذلك:

- إنها رسالة مُوجهة إلى سيدة، وابنها.

ظلت نظراتهم منبتة في وجه أسعد؛ مُنتظرين أن يستمر في القراءة؛ إلا أنه وضعها في يد أمجد؛ قائلا له:

- أنت تُتقن اللغة الإسبانية؛ ترجمها لنا.

نشر أمجد قطعة الشراع جيدا، وبدأ يقرأ ما كُتب عليها؛ ويترجمه في نفس الوقت؛ فقرة؛ فقرة، فما خُطّ هو: «من غرب المحيط الأطلنتي؛ إلى الجنوب من جزيرة (فلوريس)؛ إحدى جزر (الآصور)؛ على بعد ثلاثين ميلا منها؛ في اليوم الثالث من شهر فبراير؛ من سنة 1994م؛ أكتب إليك هذه الرسالة يا زوجتي (مارتينا)؛ يا مَن أعز إلي، وإلى ابني (ماتيو)؛ الذي يكون قد وصل إلى العام الخامس من عمره؛ تركتكما مقيمين في مدينة (بالما)؛ بشارع (بوتيريا؛ Carrer de la boteria)؛ قريبا من الميناء؛ بجزيرة (مالوركا)؛ إحدى جزر

(البليار)، وأنا لم أترجل منذ مدة على يابسة؛ فإني على ظهر المركب؛ إني أشعر بأن ما تودان السؤال عنه؛ هو: هل أنا بخير؟ لم أضِلَّ اتجاهي في المحيط، ولم تعصف بي عاصفة يكون فيها غرقي؛ إني أخط إليكم بالقلم؛ إذن فإني ضابط لاتجاه إبحاري، وإني مُنفلت من العواصف سالما؛ أنتما لا غير في خيالي؛ في اهتمامي؛ أخوض من أجلكما أمواج المحيط الهادرة هيجانا؛ أقوم بهذه الرحلة إلى المجهول؛ لأُوفر لكما ما تنعمان بحياتكما به؛ باحثا عنه في ظُلمات الأعماق. أنتِ رفيقة حياتي تنتظرينني آيِبا من مغامرة بحرية؛ يُفَكر في نجاتها طويلا. مما أطلعتُك عنه؛ بأنني سأبحر في مسالك سفن القرن السادس عشر؛ أغوص في الماء بحثا عما كانت تحمله من النفيس من الأشياء تلك السفن؛ فهو ذهب، وفضة، وياقوت، وماس؛ من الأول عقود، ودمالج، وخواتم، وسلاسل، ومن الثاني شمعدانات، وملاعق، وساعات الجيب، وسكاكين، وأنتِ على علم بأنني لم أنشر الشراع بمفردي ليدفع بي المركب؛ خارج ميناء قوارب الترفيه الشراعية، ويخوتات الأثرياء؛ الذي يوجد في مدينة (برشلونة)؛ بِـ(كاتالونيا)؛ من تقسيمات إسبانيا الإدارية؛ معي من كان اتفاق بيني وبينه؛ على تمويل الرحلة من طرفنا معا، وبأن نتناصف فيما سنعثُر عليه؛ سواء كان قليل الكمية أو القيمة، أو كثيرا منهما، وإن مات أحد منا؛ غرقا أو مرضا، أو بفعل آخر؛ فله ذووا تركته، اسمه (سيرجيو)، وهو أيضا له امرأة، وبِنت تكون الآن في عامها التاسع؛ كنا تدرّبنا معا، ونحن في

سن الشباب؛ في ناديين؛ واحد للزوارق الشراعية، والآخر للغطس؛ المقامان في مدينة (برشلونة)، وقمنا بعدة رحلات بحرية بمراكب شراعية، وغطسات خطِرة؛ في حوض البحر المتوسط، فنكون قد تدربنا على ذلك تدريبا جيدا، واكتسبنا خبرة فيه؛ فقررنا جني ثمار ذلك، وهو البحث عما يقبع غرقا في أعماق البحار والمحيطات من أشياء ثمينة؛ نثرى به. فعثرنا في أول رحلة لنا لذلك الهدف؛ على حمولة سفينة بالصُّدفة؛ غرقت في القرن السادس عشر؛ كانت عودتها ربما من أمريكا الجنوبية مُحاطة بسرية تامة، لذلك لم نجد توثيقا لها في أرشيف البحري التاريخي، ولذلك انفلتت من البحوث التي يقوم بها عادة المؤرخون والأركيولوجيون، ومن صيادي كنوز الأعماق؛ ما غصنا لأجله، وهو بحوزتنا؛ هو في الجرد التالي:

- خمس ماسات؛ ثلاثة منها بوزن قيراط واحد، والِاثنتان بوزن كل واحدة منهما 2 قيراط.
- ثلاثون ياقوتة؛ تزن كل واحدة منها ما بين 0.5، و3 قيراطات.
- مائة قطعة ذهبية من الريال الذهبي البرتغالي.
- قلادة من مائة لؤلؤة طبيعية.
- سِوار من الذهب الخالص.
- تسعة أقراط؛ جميعها من الذهب.
- ثلاثة صحون من الفضة؛ من رواسب مناجم المكسيك.

إذن فقد كان الحظ إلى جانبنا؛ فنجحنا في مغامرة إبحارنا في المحيط، وفي الغطس في عمق مياهه. لا نعرف بالضبط القيمة

المالية لكل هذا، يتطلب هذا خبراء في تحديد أثمنة الأشياء المصنوعة من تلك المعادن، ولا مَن يشتريه؛ وهذا لا يكون إلا هاويا؛ جامعا للتحف المعدنية، أو بائعا محترفا، كما أن هذا الذي بين أيدينا يدخل في إطار ما يُسمى بالتراث البحري الغارق؛ فهو تاريخي، وثقافي. أمر آخر مُريع لابد من أن تكوني على علم به؛ لا أدري هل سألقاك حيا بعده، أو يأتيك خبر موتي، فإليك الحكاية: نحن الآن في خط إبحار عودتنا، وموقع مركبنا هو عند خط طول 38° غربا، وخط عرض 35° شمالا؛ إلى الشمال الغربي من جزر (الآصور). خبأنا كنزنا في تجويف سري؛ لا يُهتدى إليه؛ لأننا لا ندري؛ فقد نكون قد دخلنا إلى مياه تَخْفِرها بحرية إحدى الجزر. قد تتصورين إلى أي حد نكون سعداء بما جنيناه، وبطريق العودة إلى الأسرة، وإلى الوطن؛ لا؛ كان هناك شعور مخيف يسيطر علينا، وكان السؤال: هل نتوافق في الأخير على القسمة؟ كان بعد وضع اليد على ما وجدناه، وما إن تابعنا الإبحار إلى الشرق؛ كانت في عيوننا علامات غير معتادة؛ تشي بالغدر؛ حاولت أنا أن أتغلب على التفكير في فعل شرير؛ ما أريد أن تفهميه؛ هو نزوع النفس إلى الحصول على حصة الأسد؛ واستمر الطمع في درجات؛ إلى حد ميلها إلى الانفراد بالكنز الثمين؛ حاربت أنا هذا، ولكن شريكي ظلت علامته تزداد حدة يوما بعد يوم في عينيه، وفي حركاته، وفي التفاتاته، وفي عُزلته، وفي شيء آخر؛ بعد أن اطلعت عليه خُفية؛ تأكد لي بأنه يخطط لذلك الأمر الخطير، وأحسست بأن في فأس

المركب أداة، لتأخذ الرحلة النهايةَ المفزعة، فكَّرت في أن أبادر، ولكنني تخيلت ظلمات السجون؛ كان قد غفا على سطح المركب؛ نزلت أنا إلى داخل المقصورة، وفتشت في بعض أركانها؛ المحتمل أن تُخفى فيها الأغراض الشخصية؛ عثرت فيها على خريطة؛ لم أكن على علم بوجودها إطلاقا طيلة الرحلة، وأنا العارف أيضا بخرائط الملاحة البحرية، قارئا لها، وراسما لخطوط الإبحار عليها، أطلعتني على خط إبحار يتجه إلى جزيرة (الأمير إدوارد)؛ إحدى جزر (كندا)؛ مضبوط باتجاهه الجغرافي، وبإحداثيتي الطول والعرض، وسرعة المركب بوحدة الميل البحري، ومدة الإبحار فيه؛ اِستخلصت بأن هذا الذي يركب معي المركب؛ انعزلنا فيه عن العالم مدة سنتين؛ قد يتخلص مني في أي وقت؛ ليُغير اتجاه المركب؛ بحمولته النفيسة؛ مُنفردا بها؛ يثرى بها، إلى الشمال الغربي من المحيط الأطلنتي؛ إلى خليج (سان لوران)، إلى جزيرة (الأمير إدوارد)؛ كان ما استكشفته عن هذا الرجل؛ هو جانب الشر في الإنسان؛ هو من الأسباب التي دفعتني إلى الكتابة إليك؛ إذا وصلتك فهي رسالة؛ تُخبرك بما حدث، وبما سيحدث، وإذا لم تصلك أبدا، فهي في هذا المحيط؛ طافية على سطحه، أو مغمورة في أعماقه، وقد صنعت لها حافظة؛ بشكل يجعلها تحافظ على قِرطاسها، وعلى حِبرها؛ مدة لا أدري عدد أيامها، أو أعوامها، وإني أتحين فرصة الوصول إلى بريد إحدى الجزر؛ لأُسرع فأبعث بها إليك منه رسالة، فإن لم تُسعفني

الظروف بذلك؛ فهي توثيقية في تلك الحافظة مصونة... زوجك الصادق دائما (ميگيل)».

رفع أمجد عينيه عن الرسالة، وتنقل بهما في وجوه أصدقائه، وقال:

– في هذه الرسالة تقريبا قصة المركب الكاملة.

قالت ريم؛ ناطقة ببعض ما ترتب عن مضمون الرسالة:

– هناك اتهام مباشر نستقيه منها، وأن كاتبها هو الضحية، وأن الآخر هو من فر بالكنز إلى إحدى جزر (كندا).

قال رائد فاطنا للغز في الرسالة:

– السؤال هو: من القاتل، ومن المقتول؟ لمن الهيكل العظمي؛ الذي كانت جثته مكفنة في قطعة من الشراع؟ هل هو كاتب الرسالة، أم الذي كان يُخطط للهرب بالكنز؟

قال أسعد مُتأملا شكل الرسالة، واسطوانتها:

– هل تحليلنا لما كتب في الرسالة قد يمدنا بأيهما قُتِل؟

قالت ريم مُتشبثة بطريقة معرفة لمن يكون الهيكل:

– ذكر كاتب الرسالة بأنه تغلب على نزعة الانفراد بالكنز، فيكون قد أحجم على إقدامه على القضاء على منافسه.

قالت رهف محللة أيضا ما ذكر في الرسالة:

– ذكر الكاتب كلمة (الشر)؛ فهو يعي برذيلة كل فعل يوصف بأنه شر.

قال بسام مضيفا إلى كلام رهف:

– وذكر بأن شريكه في رحلة البحث عن الكنوز؛ قد يتخلص منه في أي وقت.

قال أمجد مُنطلِقا من خارج نص الرسالة:

- إن كاتب الرسالة هو المقتول؛ فإذا كان هو القاتل، فما الذي يدفعه إلى كتابة الرسالة، وهي كما قال توثيقية أيضا؛ فهي فضح له.

قال أسعد منهيا الكلام في الرسالة:

- مهما حاولنا التعمق في كلمات الرسالة بالتدقيق فيها، وتحليل فقراتها، فإننا لن نتوصل إلى أيهما كان المقتول، وهذا لن نعرفه إلا إذا ذهبنا إلى جزيرة (مالوركا)؛ إلى مدينة (بالما)؛ إلى شارع (بوتيريا)؛ إلى السيدة (مارتينا)؛ إذا كانت ما تزال تسكن هناك.

قال رائد مُذكرا الجميع بإحدى الصور الفوتوغرافية التي أخذت في حطام المركب:

- في نصل الفأس الذي صوره بسام؛ وتكهن فيه كاتب الرسالة بأنه أداة تصفية صاحب القسمة؛ محور ما حدث.

قالت ريم مُمدة أصدقاءها بما يجعلهم يدركون إلى حد ما الحكاية الدرامية الكاملة:

- نُعيد بناء الحدث الدرامي انطلاقا مما توفر لنا من أدلة.

قالت رهف مبادرة إلى ذلك:

- هذان شخصان تدربا على قيادة المراكب الشراعية، وعلى الغطس، بعدما اكتسبا خبرة، وثقة كبيرة في ذلك بالقيام برحلات بحرية، والغوص في حوض البحر الأبيض المتوسط؛ خططا لرحلة البحث عن السفن الغارقة في عمق المحيط الأطلنتي، ليعثرا على حمولتها من المعادن النفيسة، وقد وجدا

واحدة غرقت بمعدنها النفيس في غرب المحيط؛ في القرن السادس عشر، فيكون الحظ قد حالفها؛ إلا أن نزعة الانفراد يالكنز الثمين؛ تملكت أحدهما، فقتل الآخر؛ بفأس مركبهما، وكفن جثته في قطعة من الشراع، أحكم أطرافها عليها بحبل من الحبال التي يُوتر به القلاعين، ودفنها في صندوق مقدمة المركب؛ حتى لا تطفو على سطح الماء؛ فتُكتشف، فيصبح صاحب الجثة في عداد المفقودين، ونزل بقوة برأس الفأس على قعر المركب، فأحدث بها خرقا ملأ منه ماء المحيط بدن المركب، فهوى إلى الأعماق، فإذا كان القاتل هو راسم خط إبحاره على الخريطة؛ ليسلكه إلى جزيرة (الأمير إدوارد)، فقد ركب قارب النجاة، وجذف بالكنز في ذلك الاتجاه.

قال أسعد مُؤكدا إعادة بناء الحدث:

- نعم؛ لقد توفقتِ يا رهف في بناء حدث حكاية راكبي المركب؛ سنرى في المستقبل إلى أي حد تتطابق مع القصة الواقعية، بعد الوصول إلى واحد أو اثنين مما ورد ذكرهما في الرسالة.

قال أمجد مُنبها إلى ما يتوجب العمل به:

- نصور الرسالة لنحتفظ بها لحاجتنا إليها فيما بعد، ثم نُعيدها إلى الأسطوانة، ونُلحِّم الغطاء عليها كما كان، ويُرجعها بسام إلى مكانها من بقايا السفينة، لا بد أن تظل هناك؛ دليلا للمحققين في حادث المركب.

بعد أن قام بسام بإعادة الأسطوانة إلى صندوقها الحديدي؛ من حُطام المركب؛ وعاد سريعا، سمع مع أفراد الجماعة بعد

ذلك؛ كلاما من أسعد؛ لم يكن ما هو أهم فيه؛ غير تحديد الوجهة التالية للغواصة؛ وهي جزيرة (مالوركا).

الفصل الثاني عشر

إلى جزيرة (مالوركا)

أ

أي مكان ذاك الذي ورد اسمه في رسالة الأسطوانة؟ وكان طبعا هو الوحيد الذي تكون فيه بداية فك لغز كاتبها؛ هل هو المقتول أم القاتل؟ إنه شارع (بوتيريا)؛ أحد شوارع مدينة (بالما)؛ إحدى مدن جزيرة (مالوركا) الساحلية، فإلى هذه الأخيرة -وهي إحدى جزر (البليار)- جعل أفراد جماعة أسعد غواصتهم تغطس في خط رحلة؛ يمتد إلى الغرب من البحر المتوسط؛ إلى الجنوب الشرقي من إسبانيا؛ حيث تنتشر تلك الجزر. عمل واحد رأوا جميعا أنهم ملزمون به، وهو إطلاق العنان للغواصة؛ في أقصى سرعة لها؛ لأن التحقيق في وجود هيكل إنسان في عمق المحيط، للتوصل إلى معرفة قاتل صاحب جثته، وفي المصير الأخير الذي انتهى إليه كنز يتكون من الماس، والياقوت، والذهب، والفضة؛ وإنه جد ثمين بذلك؛ قد تتعدى مراحله اثنتين، أو ثلاث؛ فهي تتطلب وقتا طويلا، ورجالا من مصلحة التحقيق في الحوادث كثيرين، والعمل التالي الآخر، وهو لقاء زوجة كاتب الرسالة؛ إن لم تكن أرملة؛ إذا كان هو المقتول؛ لا بد أن يحاولوا أن يكون سريا، لا يعلم به أي أحد من سكان الجزيرة؛ ولا بد أن تعي هي بفائدة ذلك.

لم يبق عن وصولهم إلى جزيرة (مالوركا) إلا يوما واحدا؛ فكان ما يجب أن يطلعوا عليه قبل ساعات؛ هو خريطتها لتعيين إحداثيات نقطة توقفهم بالغواصة قريبا من ساحلها،

وتعيين مكان هبوط من سيُختار للذهاب إلى المبحوث عنه؛ من الغواصة البرمائية؛ وإلقاء نظرة على خريطة مدينة (بالما)؛ لتحديد الممرات المؤدية إلى شارع (بوتيريا). كان الذي رأى فيه أسعد مؤهلا للمهمة أولا هو أمجد لإتقانه للغة الإسبانية؛ قراءة، ونطقا بها بطلاقة، وعيّن أمجد نفسه من يُرافقه في الدخول إلى المدينة، هي ريم؛ لأنها طبيبة، وستحظى بتقدير، واحترام، وحب؛ من طرف (مارتينا)، وكان بسام على استعداد لاختيار ثالث، فنطق باسم رائد؛ لماذا؟ هم غرباء عن المدينة، وقد تُسول لأحد نفسُه بأن يستهين بهم، أو يستضعفهم، فيستعرض عليهم قوة طائشة؛ فتكون شجاعة رائد، وقوة جسمه؛ رادعين له، فيكون هؤلاء الثلاثة يُكوِّنون الجماعة التي ستنجح، أو ستفشل في الزحف على المدينة؛ في سلوك الشارع؛ في أن تجد ما تبحث عنه. دخل الثلاثة بسرعة إلى عُمران الشاطئ؛ في ساعة مبكرة من الصباح؛ كان ما يزال أغلبُ السكان يستعد لاستقبال أشعة شمس بازغة من وراء خط ماء البحر الأبيض المتوسط، وصاروا يتمشون كسياح على طول رصيف الميناء، وفي الشارع الممهد على طول الساحل؛ حتى استفاقت المدينة؛ وبدأت الحركة تملأ شوارعها عن آخرها؛ في هذا الوقت؛ حيث لا تتجه العيون إلا إلى ما يهم أصحابها؛ ويتمحور حول المردود المادي اليومي؛ سارت جماعة أمجد إلى شارع (بوتيريا)، وصاروا يمشون فيه جيئة وذهابا؛ لعل يظهر لهم ما يمدهم ببيت (مارتينا)، أو يعرف أيَّ الأمكنة التي تكون فيها، وفي ذهابهم

إلى ممر داخلي؛ خلف الشارع؛ بدا لهم متجر لبيع مختلف السلع؛ له لوحة فوق بابه تسطع بكتابة اسمه بالأنوار الكهربائية، سألوا المشرف عليه عن امرأة اسمها (مارتينا) تسكن في شارع (بوتيريا)؛ أجاب مُشيرا إلى جهة الشمال الغربي بيده؛ قائلا:

– هي بائعة الزهور؛ في مكانها التي اعتادها الناس فيه؛ في ساحة (لادراسانا).

شكر الثلاثة الذي أجاب عن سؤالهم؛ دون أن يدس أنفه في شيء عابر لا يهمه، واتجهوا إلى الساحة؛ التقطتها عيونهم من بعيد وهي جالسة على كرسي تعرض باقات كثيفة من الزهور والورود؛ على طاولة خشبية قديمة؛ تحت ظل فروع وأوراق دوحة وارفة؛ تقدموا منها، سألوها عن ثمن الباقات؛ اشتروا واحدة، طافت أنوفهم على البتلات؛ تتشمم رائحتَها الطيبة؛ قال لها أمجد:

– ما أعطر رائحتها!

اِبتسمت بائعة الزهور بارتياح؛ وقالت:

– عطر طيب؛ إذا تشممناه، وتطيبنا بسائله المقطر؛ نسعد، وننظر إلى الجانب الجميل من الحياة، أما الجانب القبيح منها فإنه يُدمي القلوب، ويجعلها دائما في نفسية تعيسة.

كانت تنطق بهذا؛ وفجأة بدأت تبكي، وتمسح عيونها بطرف منديلها، ثم سكتت وأطرقت إلى الأرض، وقالت:

– أعتذر لكم؛ ما كان لي أن أولمكم بدموعي هذه، ولكن شخصا لا أنساه أبدا؛ اِختفى عني في رحلة في المحيط

الأطلنتي، فانقطعت عني أخباره؛ هذه مدة ثلاثين سنة؛ لم أتلق أي شيء يتبين لي منه مصيرُه؛ إنه زوجي (ميگيل)؛ كلما قصدني أحد؛ ليشتري باقة زهور؛ أعيد على مسامعه؛ ما حكيته لمن سبقه؛ عن حزني الشديد عن غيابه عني طيلة تلك المدة، لا أعرف هل هو من الأحياء أم من الأموات؛ جاءني أحد عمال البحر؛ كانت السفينة التي يعمل بها تمر في وسط المحيط قريبا من المركب الشراعي؛ الذي كان فيه زوجي، وقال لي بالحرف: «إن (ميگيل) يسلم عليكِ، ويقول لكِ بأنه بخير، وسيبعث إليك برسالة من بريد أقرب بر منه ينزل إليه»، وإني أنتظر هذه الرسالة.

لم تستمر في كلامها؛ لأن البكاء غلب على نطقها بالكلمات المحزنة لها، ثم تابعت قائلة متسائلة:

- لماذا لم يرسل الرسالة مع ذلك الذي يعمل في السفينة؟ هل تتضمن ذِكرا لأشياء أراد (ميگيل) التكتم عليها، فلم يثق بأحد مبعوثة معه الرسالة؛ قد يفضها، ويطلع على ما فيها؟

نظر أفراد الجماعة إلى بعضهم البعض، وهم يتذكرون جرد الأشياء الثمينة التي كتبه (ميگيل) في الرسالة. قال لها أمجد:

- أيتها السيدة لا نقول لك إلا أن تُهوِّني على نفسك، وتصبري، وتكوني مستعدة لسماع خبر عن (ميگيل) مهما يكون؛ أيسعدك، أم يغُمك؟

سكت أمجد؛ لأنه لم يواته الكلام الذي يمهد إلى إخبارها بالرسالة، وإظهارها إليها، فنظر إلى ريم مُستنجدا بها؛ سألتها قائلة:

- هل اسمك (مارتينا)؟
أجابت بائعة الزهور مُحدقة في وجوه الواقفين أمامها بثبات:
- نعم؛ اِسمي (مارتينا)؛ السيدة (ميكَيل).
سألها رائد؛ ذاكرا لها أهم ما بدأت به هي:
- هل تُصدقين بأن الرسالة التي كان يحاول ميكَيل البعث بها إليك، في طريقها إليك الآن؟
اِندهشت؛ وصارت تجول بعينيها في وجوه هؤلاء الغرباء عن المدينة، ثم قالت:
- أُصدِّق؛ فقد يُعثر عليها في مكان ما؛ أما (ميكَيل) يا سادتي لا أظن أنه ما يزال يمشي على سطح البسيطة؛ إلا إذا كانت هناك معجزة.
قال أمجد بصراحة:
- إن نسخة من الرسالة معنا؛ فهل تريدين قراءتها.
صارت تلتفت إلى يمينها، وشِمالها؛ قائلة:
- ليس هنا؛ في البيت الذي أسكن فيه.
وقامت، وقادت الثلاثة إلى شارع (بوتيرا)، ثم إلى باب عمارة؛ دخلت منه؛ تبعوها إلى سلم عال؛ يتتالى فيه كثير من الدرجات؛ فتحت بابا، وأدخلتهم منه إلى شقة واسعة، لها باحة داخلية رحبة؛ قدمت لهم كراس ليجلسوا عليها؛ تحلقت بهم حول مائدة طويلة؛ أتت لهم بالماء، وعصير فواكه؛ مُرحبة بهم؛ قال لها أمجد:

– قبل أن أطلعك على الرسالة؛ فهناك أهم ما يتوجب علينا إخبارك به، إنه ضمن حدث طويل، لا بد من سرده، وأنت مُنتبهة جيدا إلى تفاصيله؛ لتستوعِبيه.

قال لها رائد مُحذرا إياها:

– لا بد يا مارتينا أن يبقى لقاءنا بك؛ في موضوع زوجك؛ في طي الكتمان؛ لأن طريق التحقيق في هذا الذي ترين من حقك معرفة حقيقته طويل.

قالت بانكسار:

– وعد مني لكم، لا أبوح بسر ما تكبدتم عناء مجيئكم إلي لأجله.

روى أمجد على (مارتينا) قصة رحلة العثور على حطام المركب الذي كان يُبحر فيه زوجها مع شريك له؛ من بدايتها إلى نهايتها، وتفوه بسؤال في الأخير قائلا:

– هل الهيكل الذي ما يزال مُكفنا، ومدفونا في صندوق مقدمة المركب هو لزوجك؟

لم تتحرك جفون بائعة الزهور؛ وظلت مُتسمرة تنظر في وجه أمجد؛ تكاد لا تصدق ما سمعته، ثم انهمرت دموعها بنشيج؛ تحاول أن لا تنتحب؛ فيصل الصوت الذي تتقطع له القلوب إلى خارج البيت، وقالت:

– كيف يمكن أن نعرف أن الهيكل العظمي هو لزوجي؟ والذي أعرفه حقا؛ هو أنه لم يكن من طينة العازمين على القتل... أهو ذا زوجي قُتِل؟

قالت ريم، وقد دهمها شيء لم يفكر فيه أحد من جماعة أسعد:

- هل لديك صورة لزوجك؟

قالت بسرعة:

- صورة قديمة تجمعه مع هذا الذي ركب معه القارب.

قال أمجد مُستحثا إياها:

- مُدِّينا بها حالا.

أتت بها، فصار كل واحد من الثلاثة؛ يدققون فيها أنظارهم، لكن بقي سؤال؛ نطق به رائد؛ قائلا:

- لكن أيهما زوجك؟

وضعت مارتينا سبابتها على الصورة، وقالت:

- هو ذا؛ طويل القامة.

أعاد الثلاثة النظر إلى الصورة، ولاحظوا طول قامة زوج مارتينا، وقصر قامة زميله؛ خلفهم قوارب شراعية ترسو على رصيف ميناء؛ سألها أمجد عما بدا له في الصورة:

- في أي مدينة أُخذت لهما هذه الصورة؟

أجابت مارتينا باضطراب، بملامح مرهوبة:

- أُخذت لهما في نادي القوارب الشراعية؛ في (برشلونة).

صور رائد صورة اللذين كانا يتمرنان على قيادة القوارب الشراعية، وكان ما يزال شيء آخر تحتفظ به ريم في ذهنها؛ قالت:

- هل كان يحتفظ ببطاقة حُرّرت له؛ بمعلومات شخصية؛ كالوزن، والطول مثلا؟

سارت مارتينا إلى غرفة بخطى مضطربة؛ بتنهيدة طويلة؛ وبانكسار في القلب؛ يتأسى له الحاضرون؛ رجعت بحُزمة من الوثائق الإدارية، فتشت بينها؛ فأخرجت بطاقة بحجم صغير؛ وضعتها في يد ريم؛ قرأت الطبيبة اسم المؤسسة المُحرِّرة لنموذج البطاقة، وهو (ناد القوارب الشراعية)، إلى يساره صورة فوتوغرافية لـ(ميگيل)؛ تحتهما معلوماته الشخصية من بينها الطول والوزن.

قالت ريم باستعداد لعمل حاسم:

- يا مارتينا سنُعلمك بعد يوم ما إذا كان صاحب الهيكل العظمي هو زوجك أم لا، وسنُخبرك بما عليك العمل به؛ لإجراء تحقيق نزيه في حادثة المركب.

أخرج أمجد بعد هذا ثلاث ورقات؛ نُسخت على صفحاتها رسالة (ميگيل)، وقال:

- هذه الرسالة، قد توصّلتِ بها، فاقرئيها.

بسطت (مارتينا) الأوراق بأصابع يدين ترتعدان، وقد زاد شحوبُها، وفزعُها، وشرعت تقرأ، ما إن وصلت إلى الجملة ما قبل الأخيرة؛ حتى صارت تبكي مرة أخرى، وتابعت القراءة بصوت مسموع ناطقةً باضطراب في شفتيها بالكلمات الأخيرة من الرسالة وهي: (زوجك الصادق دائما... (ميگيل)؛ اِنهار جذعها على مُتكأ الكرسي، وانطلق منها نحيب يكاد لا ينقطع، فضمت ريم رأسها إلى صدرها، وحاولت أن تخاطبها بكلمات خففت إلى حد ما أحدثته الرسالة من ألم في نفسية (مارتينا)؛ هذه المرأة التي سمعت

زوجها يخاطبها من الكلمات، والجمل؛ كأنه لم يُكلِّمها في الرسالة إلا بالأمس القريب.

بأي شعور سيكون أفراد فريق أسعد العلمي، وهم يجتمعون في الحجرة المعتادة؛ وأمامهم الشاشة الكبيرة؛ والموصولة عن بعد بجهاز حاسوب؛ كان هذا موضوعا أمام الطبيبة ريم، وعيون الآخرين لا تبرح وجهها، ولا تزغ عنها قلوبهم؟ وسؤال واحد يجوب أذهانهم، وهو: «هل ستتمكن ريم من تحديد أي من صاحبي المركب يكون هو المقتول؟»، وسؤال آخر مريع، صعب النطق به، وهو: «هل يكون الهيكل العظمي هو لزوج (مارتينا)؟».

في جو من صمت ألجم ألسنة الجميع، وفي سكون غلف الغواصة؛ فلا رنينَ جهاز يُكسره، قالت ريم:

– بداءة بدء لا بد من أطلعكم على طريقة تحديد لمن يكون الهيكل؛ ننطلق من سؤال: هل يمكن التوصل إلى طول الشخص من هيكله العظمي عِلميا؟ الجواب: نعم؛ السؤال التالي هو: بواسطة ماذا، وكيف؟ الجواب: بواسطة أجزاء من الهيكل؛ تناولُها يُعطي نتائج مرجوة، وهي عظام الفخذ، والعضد، والساق؛ بعمليات قياسية حسابية، السؤال الثالث، والأخير وهو: ماذا نتوفر عليه في حالة الهيكل المدفون في حطام المركب؛ حتى نتمكن من ذلك؟ الجواب: مُقارنة الصورتين بالعمليات الحسابية: صورة الهيكل العظمي، وصورة المتدربيْن في توجيه الأشرعة، فإلى الشاشة؛ أمامكم الصورتان؛ نقوم الآن بقياس العظام الثلاثة (الفخذ والعضد، والساق)،

ببعدي طول وعرض الصورة؛ ترون المسطرة المِترية المبرمجة في الحاسوب تُعطينا طول العظام في الواقع؛ وطول (ميگيل)؛ إذا كنا نعلم حقيقة أن متوسط عظمة الفخذ عند الرجل هي 48 سنتيمترا، فعظمة هيكل المركب أطول منها، وهذه المقارنة تجري على عظمة الساق، وعظمة العضد؛ وبعد أن لاحظنا تماثلا بين طول عظام الهيكل وطول (ميگيل)، ومقارنته بطول الذي أخذت له معه الصورة وهو أقصر منه؛ فإننا نستنتج بأن الهيكل العظمي هو –وللأسف– لزوج (مارتينا).

اِكتسح الهدوء الذي ساد لأكثر من ساعة بنشيج؛ لم يلتفت أي أحد منهم ليعرف مصدره؛ فقد شعروا بأنه لرهف؛ كانت قد تأثرت بما سمعت؛ قالت؛ وهي تمسح دموعها:

– كيف سيكون حال (مارتينا) وهي تتلقى الحقيقة المرة؟

قالت ريم مُخففة عنها أثر ما توصلت إليه:

– إن (مارتينا) امرأة، وكانت زوجة، وهي الآن أرملة؛ سريعة الخاطر، والأحاسيس؛ إن نفسها قد حدثتها بأن المقتول هو زوجها، ولكنها من عادتها لم تُرد أن تُفصح بذلك علنا؛ وتركته في داخلها؛ لا يعلم به أي أحد؛ إلا هي.

أما الآخرون، فانبهروا بالمنهج العلمي الذي اتبعته ريم؛ للوصول إلى حقيقية جوهرية في حادثة المركب؛ نطق أسعد بفكرة محورية:

– هذا أحدهما المقتول، فأين الآخر القاتل، والهارب بما عثرا عليه من الأشياء الثمينة؟ هل فعلا قصد جزيرة (الأمير إدوارد)؟ هذا هو ما نستعد للإجابة عنه من الآن؛ بتعقب

أثره؛ فَكِّروا جيدا في الطرق، وفي الوسائل المساعدة على ذلك.

قال أمجد غير مبتعد بفكرته عن جزيرة (مالوركا):

- هل لمارتينا معرفة بزوجة (سيرجيو)، وابنته؟

نظر الخمسة إليه مُعجبين بتقدمه في القضية، وسمعوه يُضيف قائلا:

- هل يتخلى (سيرجيو) القاتل عن زوجته، وابنته؟ وقد اتجه إلى الغرب من العالم القديم؛ لهدفين؛ الأول: الانفراد بالكنز، ليغتني به وحده؛ الثاني: الابتعاد لمسافات طويلة جدا، والاختفاء في قارة أخرى؛ وقد ينتحل فيها شخصية أخرى؛ حتى تمر عقود من السنين على قتل مُرافقِه، وإغراق المركب؛ الدليل القاطع؛ في أعماق المحيط؛ حتى تُنسى القضية بالمرة.

قالت رهف مُنطلقة مما تكلم به أمجد:

- إذن؛ فإلى مارتينا؛ إذا كانت تعرف مكان زوجة المجرم (سيرجيو)؛ فإنها قطعا ستصطحبكم إليها؛ إذا كانت ما تزال في إسبانيا؛ إذا لم تلحق بزوجها؛ لتعيش في نعيم الكنز.

قال أمجد مُحددا الغرض من اللقاء الثاني بمارتينا:

- سيذهب إلى مارتينا اثنان منا فقط؛ لهدفين؛ الأول: اِخبارها بنتيجة التحليل العلمي للصورتين؛ الثاني: إذا كانت على معرفة بزوجة (سيرجيو)، وبالبيت الذي تقيم فيه، أو كانت تسكن، وتركته خلال هذه المدة الطويلة، فما يتطلبه منها، ولمصلحتها أن ترشدنا إليها، وإلى سكنها، ومن يدري فقد نعلم أخبارا كثيرة، ونستخبر عن الكثير.

قال أسعد مُعيِّنا الاِثنين:

– أنتَ يا أمجد، وأنتِ يا ريم؛ تلتقيان بمارتينا؛ للغرضين اللذين حُددا من قبل.

لم تكن مارتينا في الساحة التي تبيع فيها الزهور، بل كانت تنتظر بصبر ضئيل جدا؛ من وعدها بالرجوع بما يُحسَم فيه، وقد تتالت دقتان على الباب؛ كانتا داعيتين مارتينا إلى فتح الدفة الخشبية القديمة؛ لتدعو أمجد وريم إلى الدخول، وكان المتوجه بكلامه إليها هو أمجد؛ قال بتنهيدة طويلة، وبصوت عميق، لا يذهب أبعد من أذني مارتينا:

– إن زوجك يا مارتينا هو المقتول، وهو المكفن بقطعة من شراع المركب، والمدفون في صندوق مقدمة المركب، وهو الآن قد صار هيكلا.

قالت (مارتينا)؛ قوية هذه المرة؛ مُتحكمة في مشاعرها:

– حدّثني خاطري بذلك، فإني كما قلت لكم في اللقاء الأول؛ ذاك زوجي (ميگيل)؛ لم تكن له أبدا شخصية فيها نزعة إلى سفك دم أحد.

قالت لها ريم سائلة إياها:

– هل أنت مُستعدة لمساعدتنا للوصول إلى قاتل زوجك (سيرجيون)؟

– أجابت (مارتينا) بشجاعة، وبنفسية مُتحدية:

– طبعا، لا بد أن يُحاكم القاتل، ماذا كان يريد؟ أن يظل هو حيا؛ ينعم بحياة هانئة البال؛ في بحبوحة من العيش، سأكون فردا من جماعتكم إلى النهاية.

سألها أمجد مُستقطبا إياها إلى عملية التحري الطويلة:

– هل كنت تتعرفين على زوجة سيرجيون؟

أجابت بنبرة حادة:

– نعم؛ تعرفت عليها في الكثير من مهرجانات القوارب الشراعية، وما تزال صورتُها منطبعة في ذاكرتي، وكانت آخر مرة ذهبت إليها وهي في بيتها؛ في مدينة (برشلونة)؛ في شارع (كاراباسا)؛ قريبا من ميناء الياخوتات، والقوراب الشراعية؛ عندما طالت مدة غياب زوجيْنا، واقترحت عليها أن نتحرك لمعرفة السبب، لكنها لم تُبد لي أي استعداد لذلك، وقالت بالحرف: «إذا كانا حيين؛ فسيرجعان إلى أسرتيهما، وإذا ما حصل لهما حادث وهما في وسط المحيط أهلكهما، فليس لنا ما نفعله»، ورجعتُ على أعقابي منكسرة بشدة، وليس من أقصده ليمد لي يد العون؛ في أن أسأل عن مصير زوجي، فسعيت إلى كسب قوت يومي ببيع الزهور في ساحة (لادراسانا).

سألها أمجد للمزيد من المعلومات عن زوجة (سيرجيون):

– ما اسمها؟

أجابت مارتينا بقوة ذاكرة:

– اِسمها (لوسيا).

قالت لها ريم مُهيئة إياها للخطوة الأولى في العملية:

– إذن نحدد موعدا للذهاب إلى البيت الذي ما زالت تقيم فيه زوجة سيرجيون، أو غادرته إلى آخر؛ لأن المدة طالت.

قالت مارتينا ناطقة بموعد:

- بعد غد؛ في الساعة الأولى من فترة ذهاب الناس إلى أعمالهم؛ سأركب أول طائرة؛ مُبرمج تحليقها إلى برشلونة؛ بشراء تذكرة؛ بما أوفره من مال.

سكتت قليلا، ثم سألتهما قائلة:

- كيف سنلتقي في (كاراباسا)؟

قال أمجد، وقد عرف بأن مدة سير الغواصة كافية للحاق بِ(مارتينا):

- سنكون هناك بعد ساعة من تحليق الطائرة بك.

ولكن مارتينا لم تعرف بأي وسيلة يتنقلون بها، ولم ترد هي أن تسألهم عن ذلك؛ فقد فطنت سريعا بأن من مصلحتها أن لا تعلم بذلك الآن.

ورجعا الفردان إلى جماعتهما، وأخبر أمجد الآخرين بموعد الإلتقاء بمارتينا في برشلونة؛ المتفق عليه، فهمزوا الغواصة بالأزرار الطّيِّعة؛ فتحركت بسرعة في بحر (البليار)؛ الذي يمتد ما بين جزيرة (مالوركا)، وشبه الجزيرة الأيبيرية؛ مُبرمجين اتجاهها إلى برشلونة؛ كما جرت به العادة، وما يتطلبه الاقتراب من السواحل من وسيلة إلكترونية لا يُسمع لها صوت، وهي الغواصة البرمائية؛ ركبها أربعة؛ وهم أمجد، وريم، وبسام، ورائد؛ دائما أمجد، وريم؛ هما من سيدخلان إلى المدينة الإسبانية، وبسام ورائد سيعودان بالغواصة التي عادة ما يُساحَل بها؛ إلى حين النداء عليهما من طرف العائدين من مغامرة التحرّي.

كانت مارتينا تنتظر الاثنين؛ في زاوية التقاء شارع (كاراباسا)؛ بشارع (آمبل) المؤدي إلى أرصفة الميناء التي ترسو عليها مراكب الترفيه؛ ولم تظل هناك وقتا طويلا يسبب مَللا؛ فقد رأت بعيدا هناك؛ في امتداد شارع (آمبل) أمجد وريم قادمين؛ ارتاح الجميع باللقاء، وتحركت بهما مارتينا صامتة؛ في شارع (كاراباسا)؛ إلى عمارة بأربعة طوابق؛ اِرتقت درجات سلم؛ وهما يتبعانها؛ إلى أن دقت على باب شقة؛ لم يسمعوا من يستجيب، والصوت الذي سمعوه أتى من أعلى؛ من وجه امرأة مُسنة؛ يطل عليهم بعلامات من الجدية، وتحمُّلٍ عبر عقود طويلة من العمر لمسؤوليات الحياة؛ قالت لهم:

- أنا صاحبة العمارة؛ على من تبحثون؟

قالت لها مارتينا؛ مُبينة قدومها السابق:

- كنت قد جئت إلى هنا، والتقيت بِ(لوسيا).

اِبتسمت العجوز، وقالت بهدوء:

- (لوسيا) هذه التي تبحثين عنها يا حبيبتي؛ تركت تلك الشقة منذ سنوات.

سألتها مارتينا بصوت أضعفه جواب المسنة:

- هل لك علم بالبيت الذي انتقلت إليه؟

أجابتها وهي تتحرك راجعة إلى داخل شقتها:

- هيا اصعدوا؛ إجابتي عن سؤالك طويلة إلى حد ما، ومن الأفضل ألا تُسمع أبعد مني، ومنكم.

وقد أشارت إليهم بالجلوس على أريكة طويلة، وقد فعلوا ذلك؛ جلست هي إلى يمينهم، وتكلمت بإجابتها؛ قائلة:

- إني لا أعلم سبب سؤالك عن (لوسيا)، ولا أريد أن أعلم، وما مجيئك إلى البحث عنها بعد هذه المدة الطويلة؛ إلا لأن الأمر مهم جدا بالنسبة إليك، وستصلني حتما؛ إذا ما طال عمري الحكاية الكاملة؛ فإليك يا حبيبتي قصة مغادرة (لوسيا) هذا المكان... كانت (لوسيا) تتكتم على السبب الحقيقي لغياب زوجها؛ كانت تجيب عندما أطالبها بمقابل الإيجار؛ بأنه في سفر عمل بإحدى بلدان شمال أوربا؛ لم تنطق باسمها أبدا، وكانت تعدُني بأنه عندما يعود؛ سيَفي بما هو مدِين به، وإن أدت هي القليل منه؛ بعملها في المطاعم، والمقاهي مُنظفةً؛ إلى أن سمعتُ في منتصف ليلة من ليالي فصل الشتاء؛ وطآت حذاء قوية الصوت، وبطيئة؛ على درجات السلم؛ كانت غريبة على مسامعي، بل أكثر من هذا أفزعتني، وأحسست بأن صاحبها لم يدخل من قبل إلى العمارة؛ إذن استنتجت بأنه جاء ليبحث عن أحد يسكن بإحدى شققها؛ قمت من جلوسي، وأشرفت عليه من هنا؛ فتبينت في الظلام قامة رجل؛ على الهامة قبعة بيضاء بَحرية؛ عليها غُرة من مِرساة وحبلها؛ مطرزة بالحرير؛ على الجذع معطف كثيف النسيج، ويكسو أطرافه كُمّا سروال متينا النسيج؛ عريضان عند كعوبه؛ كنت ظننته (سيرجيو)؛ لكن هذا القادم الغريب أطول، وأقوى منه؛ تصفحت وجهه جيدا، فعلقت ملامحه بذاكرتي؛ عرفت على التو من خلال

كل ذلك بأنه بحار؛ كانت تشغل يده اليسرى علبة من (الكرتون)؛ متوسطة الحجم؛ لم تصدر مني أي كلمة، وظللت متخفية بالعتمة؛ مصوبة أذني إليه؛ مهيئة إياهما إلى سماع أخفت نطق، أو حركة؛ دق على الباب؛ كانت المستجيبة (لوسيا)؛ قال لها مُتيقنا منها: «هل أنت المسماة (لوسيا)؟»؛ أجابت بصوت مرتعش: «نعم؛ ذاك اسمي»؛ أظهر لها ظهر العلبة؛ قائلا: «هذا اسمك على العلبة، واسم الشارع، ورقم إحدى عمارات هذا الأخير، ورقم شقة من شققها»؛ قالت وهي تحدق في الورقة اللاصقة: «نعم؛ كل ما كُتب صحيح»؛ ناولها العلبة قائلا: «أرسلها إليك رجل؛ لم أر وجهه؛ لأنه كان يرفع ياقة معطفه الأسود على خده، وفمه، وأنفه، أما عينيه؛ فواراهما بالتفاتة سريعة إلى جهته اليمنى؛ وقال لي بالحرف؛ دون أن يُضيف كلاما آخر، وهو يتعجل الانصراف عني: (إني أتوسل إليك؛ بأن تعمل كل ما في جهدك؛ لتوصيل هذه العلبة). نظرت باستغراب إلى ظهرها، فرأيت عليه كتابة باسم امرأة، وبعنوان سكناها؛ فقلت له بأنها ستصل إلى التي بَعثْت بها إليها، فكن على اطمئنان تام»، وهبط السلم بتريث؛ لم يعد يدور في باله ما حمله إلى (لوسيا)؛ كما ظهر من مشيته، وكأنه خفف عاتقه من ثقل مسؤولية العُلبة؛ تقهقرت هي إلى الداخل، وبما أنني تضررت ماديا بالتأخر في أداء مقابل الكراء، فإني نزلت إليها، وسألتها ما إذا كان زوجها؛ قد أرسل مع هذا الرجل مبلغ الإيجار، قالت بأنها فتحت العلبة؛ وجدت فيها رسالة مُرسلة

من زوجها، وإيصالا بنقود ستتسلمها من البريد في الغد، وقد دفعت لي باقي مقابل الإيجار، فلم يفتني طبعا أن أسألها ما إذا كتب في الرسالة عن أحواله هناك في بلد الهجرة، فكانت تجيب بأنه يذكر فيها بأنه بخير، وسيزور الوطن، والأسرة الصغيرة، والأقارب، والأصدقاء في أجل قريب، ولم يمض شهر حتى اختفت (لوسيا) من المدينة، وتركت القليل من الأثاث؛ غير ذي قيمة جمالية، أو مالية مهمتين؛ جعلته في خزنة في السطح؛ حتى ترجع هي تسأل عنه، أو ابنتها.

سألتها ريم عن آخر ما نطقت به:

- أين تقيم ابنتها؟

أجابت العجوز بعدم الاهتمام، وبامتعاظ:

- هربت إلى بلاد ظلت مجهولة لدى أمها؛ مع ضارب على (الگيتار)؛ يتعيش بالعزف به في الأندية الليلية.

سألها أمجد عما يمكن أن يكون طريقا إلى (سيرجيون):

- هل توصلت إلى معرفة الرجل ذي القبعة والمعطف السوداوين:

أجابت المسنة على الفور:

- بعد اختفاء (لوسيا)؛ قصدت الميناء؛ وشاهدته من بعيد، وهو في قعدة مع أمثاله من البحارة في أحد الأرصفة، وكنت تعرفت عليه من خلال وجهه، وقامته، وملابسه التي ظل يرتديها؛ لم تخطئه عيناي؛ لم أسأله في يوم ما؛ عن مكان (سيرجيو)؛ يكون يعرفه، ولا حتى المكان الذي التقاه فيه ليرجوه بتوصيل العلبة إلى (لوسيا)، ولا إذا ما كان قد قام

مرات أخرى بالالتقاء بها؛ لتسليمها شيء من زوجها، فيعلم أين تكون، وسألت عنه أحد مرممي شباك الصيد؛ قال لي بأنه يعمل بحارا بإحدى سفن الشحن؛ تسلك خطوط الإبحار إلى شمال أمريكا.

سألتها مارتينا بضعف في آمالها:

- إذا هو ما يزال يعمل بحارا، فارشدينا إليه.

قالت صاحبة العمارة:

- لا؛ لم يعد يعمل بحارا بسفينة، علمت من أحد أنه امتلك قارِب صيد من تركة والدته المتوفاة، وكنت قد رأيته بالفعل يُبحر به في الصباح الباكر؛ لينشر الحبالات في عُرض البحر؛ تنتظرونه عند رجوعه بصيده في وقت ما بين التاسعة والحادية عشرة؛ حسب الطقس، والمدة التي يتطلبها رفع الشبكة.

شكر الثلاثة مالكة الشقة، وتركوها مُتجهين إلى فندق متواضع يبيتون فيه حتى الصباح، وكانت مارتينا قد طلبت من كاتبه -متعللة بظروف صعبة- بأن لا يطلب من أمجد وريم الإدلاء بهويتيهما، فلم يلح في أي سؤال من ذلك القبيل؛ فناموا جميعا قريري العين.

الفصل الثالث عشر
أشياء شخصية

هروب القاتل بعد التخلص من جثة المقتول بكيفية فظيعة؛ إلى يابسة؛ يفصلها محيط شاسع من المياه الهائجة؛ عن تلك التي تركا فيها أسرتيهما، وهما رفيقين في رحلة طويلة، لغرض لا يحققانه إلا بمغامرة غطسات في أعماق المحيط؛ بحثا عن شيء ثمين غرق في عصر ما؛ واختفاؤه في بر جهة من جهات الكرة الأرضية؛ هل يسهل معه استكشاف مكانه؟ فقد وجد أمجد وريم ومارتينا أنفسهم في طريق طويل من البحث، والتحري، والتحقيق، واقتفاء أثر (سيرجيون)، فكان السؤال الذي يطرحه أمجد على نفسه، وعلى ريم ومارتينا؛ هو: «هل يكون بحار سفن الشحن القديم، على استعداد لمساعدتهم في الامساك بخيط؛ يوصلهم إلى طريدتهم البشرية؟».

كان ذلك الصباح من شهر ماي؛ في برشلونة؛ معتدل الطقس؛ تنشرح به النفوس؛ تنفرج من غم، وتتفتح للكلام، ولسماعه؛ قصد الثلاثة أرصفة الميناء؛ شاهدوا قوارب الصيد تعود من البحر؛ محملة بحصائل الشباك؛ سألوا أحدا من الساعين إلى أرزاقهم في الميناء؛ عن صياد كان بحارا في سفن الشحن المبحرة في المحيطات، فأشار بيده المنشغلة بشيء ما إلى رجل متقدم في السن؛ يعمل بجد على ظهر قارب صيد صغير؛ فمضى إليه الثلاثة؛ مُشرفين عليه من الرصيف؛ كان الناطق منهم أمجد؛ سأله:

– معذرة على إزعاجك وأنت مُنهمك في عملك.

قال بالتفاتة إلى الأعلى، وبابتسامة هادئة؛ بسكينة عمر طويل، وتجربة في الحياة غنية:

– لا إزعاجا لي؛ فتكلم، فإني مُصغ إليك بسِعة خاطر.

قال أمجد بدون لفّ ولا دوران:

– نحن ثلاثة؛ نريدك فيما حملته معك، وأنت بحار في إحدى سفن الشحن؛ من بلاد ما وراء المحيط؛ إلى زوجة رجل اسمها (لوسيا).

اِعتدل في وقوفه، ونظر في وجوههم جميعا، ثم قال:

– نعم؛ قمت بما رجاه مني ذلك الرجل الذي لم أعرفه قط؛ لا أمتنع في تفصيل ذلك لكم، لكن في مكان مناسب؛ يكون في مقهى؛ في فضاء جانبي منها؛ بعيد عن العيون المحدقة، والآذان المتسمعة.

قالت (مارتينا)، وقد كانت في أحد الأيام من الذاهبين إلى مقهى؛ غير بعيد عن ميناء مراكب الترفيه؛ يقع خلفه:

– في مقهى (شاطئ ماكاماكا)؛ يكون لقاؤنا بك فيه على الساعة العاشرة.

قال البحار القديم؛ مُبتسما دائما:

– سأكون في المكان نفسه، في الوقت الذي عينتيه لنا.

وانصرفت جماعة مارتينا عن الصياد، وهو منهمك في شُغله، وقضوا الوقت الذي يفصلهما عن الموعد؛ في السياحة في المدينة، وتناول غَداء شهي في مطعم فاخر، وكانت ساعة الموعد قد اقتربت، فقصدوا مقهى (شاطئ ماكاماكا)؛ حيث

وجدوا البحار ينتظرهم في أبهى حُلة؛ حليق شعر ذقنه، مشرق وجهه؛ سائحة ابتسامته على محياه؛ جالسا باستقامة محترمة؛ واضعا أمامه ظرفا؛ سميك الورق؛ مُنتفخ بمظروف بداخله.

حيوه جميعا، وجلس كل واحد منهم على كرسي؛ حُضِّر له ما مالت نفسه إلى تناوله؛ سواء كان مطهيا، أو معصورا؛ كان المتكلم الأول هو البحار؛ سألهم:

– ها أنا ذا بين أيديكم؛ فيما تريدونني أن أخبركم به؛ بما يخص العلبة الكرتونية التي أوصلتها إلى (لوسيا)؛ من رجل لا أدري؛ أهو أحد من أقاربها، أو زوجها، أو صديقها، أو من يُبادلها عاطفة.

قالت مارتينا مُحسسة إياه بخطورة الأمر:

– إننا نطلب منك أن تحكي لنا عن مجيء ذلك الرجل إليك، وتوسله لك بتوصيل العلبة إلى التي اسمها وعنوانها على ظهرها؛ دون أن نخبرك عن ماذا نتحرى؛ إلا فيما بعد، والذي يجب أن تتيقن منه؛ هو أن بعملك هذا ستتشارك مع جماعة هذين؛ في إيجاد شخص لم يتوفق أبدا في فعل شريف.

قالت ريم بأدب:

– إنك رحّبت بدعوتنا لك، ونحن نجالسك، ولا نعرف اسمك.

قال بنفسية منفرجة كثيرا:

– اِسمي (گونزاليز).

قال أمجد بسرور:

– إن حضورك شرف لنا يا سيد (كونزاليز).

قال (كونزاليز)، وهو يعيد وضعه على الكرسي؛ ليُحِس بجلسة مريحة:

– تمخضت عن قدوم ذلك الرجل إلي حكاية؛ وهي التي ستتضمن ما يجعلكم تنجحون في المهمة التي كلفتم أنفسكم القيام بها، وستجدون عندي من الأدلة المادية كانت منه؛ فإني أروي فاستمعوا إلي... كانت السفينة التي أعمل بها قد رست في ميناء مدينة (هاليفاكس)[4]؛ ولم تكن المرة الأولى؛ كانت قد أبحرت بنا من ميناء برشلونة؛ محملة بصادرات من المنتجات الزراعية؛ وقد أفرغت من شِحنتنها، ولم يبق على إيابها إلا يومين يتطلبهما صيانة محركاتها، وأجهزة الملاحة، وأنا جالس في ليلة ما قبل يوم إقلاع السفينة؛ على صندوق خشبي كبير؛ سمعتُ صوت خطوات زوج حذاء تنتعلهما قدما رجل؛ يأتي من خلفي؛ فالتفت، فإذا بي بملتفِّع بالسواد؛ كل ما يرتديه من ذلك اللون، ولظلام ذلك المكان لم أتبين وجهه، وكذلك للياقة التي يرفعها إلى حد أعلى أذنيه؛ فكانت تُخفي ذقنه، وفمه، وأنفه؛ وفي التفاته إلى يمينه؛ لم أر عينيه؛ فقط كنت قد سمعته يقول لي: « إني أتوسل إليك؛ بأن تعمل كل ما في جهدك؛ لتوصيل هذه العلبة»؛ بحركة دافعة من يده؛ وجدتني أُمسِك بها؛ أنقل ناظري بينه وبين العُلبة؛ اندفعتا في الأخير إلى ورقة ظهر العلبة؛ فقرأت اسم (لوسيا)،

[4] (هاليفاكس): عاصمة إقليم أسكتلندا الجديدة؛ من كندا؛ يقع على الساحل الجنوبي الشرقي منها؛ على المحيط الأطلنتي.

وعنوان سكن، كانت ثوان تمر؛ بعدها شاهدت الرجل يتراجع خطوات، وينطلق في سير حثيث؛ يريد مغادرة الرصيف؛ فناديت عليه بأن ينتظر حتى أعرف من يكون، وما العلاقة التي تربطه بِـ(لوسيا) هذه، وما مشكلته حتى لا ينطق باسمها، ويكشف عن نفسه؛ كان قد هرول في اتجاه باب متهاوي الأسلاك من السياج المحيط بساحة، وبمخازن الميناء؛ فتبعته مُعجِّلا قدمي بسرعة خفيفة؛ وأنا أقول له: «سيدي؛ هل أنت في ورطة؟ قل لي ما بك، فإن من طبيعتي التكتم على قضايا الناس، ولا يمكن أن أحمل هذه العلبة من شخص مجهول، لا أدري ما إذا كان فيها شأن أتورط فيه، أو عواقب أتعرض لها»، ظهر لي بأنه منذ البداية قد أصمّ أذنيه، وأطلق قدميه لجري سريع، وقد تملص زر من فتحة معطفه؛ فانتشر طرفا الرداء خلفه، فانغرز رأس سلك زائغ من شبكة الباب المضفورة؛ في الثوب الداخلي؛ فتمزق هذا مُبعثَر الأطراف؛ فتشققت الجيوب، تاركة ما تحتويه يسقط على الأرض، فلم يفطن إلى أي شيء؛ كان هاربا؛ مُختفيا عن الأنظار؛ حتى لا يظهر لأحد وجهُه، فيحاول أن يسأل من يكون ذو الملامح تلك؛ خصوصا إذا شُهر بحرفة، أو بإنجاز عظيم، أو بعمل حقير؛ تابعت سيري إلى تلك الأشياء؛ التقطتها واحدة واحدة، ورجعت إلى (الكابينة) المخصصة لي في السفينة؛ وضعتها على المائدة؛ مباشرة تحت نور المصباح؛ شملت عيناي قلم حبر، وقدّاحة، ومذكرة صغيرة الحجم؛ قبضت أصابعي أولا على القلم؛ تأملته، وبالمثل فعلت بالقدّاحة،

والمذكرة؛ لكن قبل أن أستمر في سردي هذا لا بد لأطمئن من أن تعِدونني بأن لا تتفوهوا بما نطقت به لأي أحد، لأن هناك شيء آخر؛ إذا ذاع خبره بين الناس قد يحرك في بواطن البعض نزعة خبيثة؛ فلا هو باق بين يدي، ولا أنتم جانين منه فائدة.

قال أمجد مقنعا (كونزاليز) بكلام:

- أنا، وريم؛ نستحيي مما تلقيناه من العلوم الدنيوية؛ بجميع فروعها، ونشتغل بها، ونتزود منها في أي مجال اضطررنا ولوجه؛ فدائما الصمت والسكوت من طبائع العلماء؛ كما أن السيدة مارتينا هي صاحبة القضية؛ كل ما أمسكت لسانَها عنه؛ كان في منفعتها كثيرا، وإني أعدك، فأزيد فأقول لن أخلف أبدا بوعدي.

نطقت ريم قائلة بحق:

- إني متعهدتك.

قالت مارتينا وجسدها دائما في ارتجاف:

- وأنا مثلهما يا سيد (كونزاليس)؛ أعدك بنا ألزمتنا به.

اِستمر (كونزاليس) في روايته؛ قائلا:

- ومنذ ذلك اليوم؛ وأنا أفكر في اتخاذ تلك الأشياء طريقا إلى الرجل الغريب، وقد حاولت؛ بعد كل رسو لسفينتنا على أرصفة موانئ شمال أمريكا؛ بأسئلة مُراوغة أطرحها على أصحاب متاجر؛ يكون الرجل الغريب اقتنى منها تلك الأشياء، فكانوا لا يجيبونني إلا بأنهم لا يُتاجرون فيها، ولا يعرفون من يصنعها؛ فلم أفلح في بحثي، ولم يكن لدي الوقت

للمضي في ذلك، ولا المال للتنقل في أمكنة ربما وُجِد فيها الرجل الغريب، فلم اهتد إلى أي فعل آخر أقوم به، فقررت الاحتفاظ بها بحرص شديد؛ حتى يظهر صاحبها، وكنت أقول بيني وبين نفسي بأنه سيأتي إلي بعد مدة طويلة ليستردها، إلا أن هذا لم يحدث، وقد أتيت بها لأريها لكم؛ فهي أمامي في هذا الظرف الصائن.

كان يتكلم، ويُلفت انتباههم إلى الظرف، ثم يفتحه، وهو يقول:

- إذا كان لابد من أن تتناولها أيديكم، لتدققوا النظر فيها، فاحرصوا على أن تظل بحالتها الأصلية؛ إنها تُحف بصناعتها بذلك الشكل؛ وقد رأيت ما يميزها فتصير بذلك.

أخرج تلك الأشياء، وعرضها عليهم، فزحفت يد ريم على القلم، وصارت تُديره على أوجهه بأصابعها بصمت، وكانت القداحة قد احتلت كف أمجد؛ مُحدقا فيها، وظلت المذكرة في مكانها، أما مارتينا فلم تُحرك يديها؛ تركتهما مضمومتين على فخِذيها؛ تنظر إلى ما يجري أمامها بسكوت حانق.

قال (كونزاليس)، وقد أطال نظره من قبل في القلم والقداحة؛ فعرف أجزاءهما، وبما طُعِّما به؛ فقال:

- قلم الحبر؛ مُغشى نصله، وغِمده بصفيحتين منقوشتين من الفضة الخالصة، ومُذيل في قمته بزمردة خضراء اللون، وحلقة من ذهب على الغطاء؛ تثير الانتباه بصفرتها الطبيعية الحادة، وصفيحة خزان القداحة هي كذلك منقوشة من الفضة، ومؤخرة الزِّند مُزينة بياقوتة.

قالت (مارتينا) بامتعاض شديد غير متحكم فيه:

– ما يزال الذي يمني نفسه بالانفلات من القبضة النهائية؛ يرفُل في الماس، والياقوت، والذهب، والفضة.

قال أمجد مُستنتجا مما لاحظه:

– غُشي القلم والقداحة، وطُعِّما يدويا؛ من طرف حِرفي مُبدع، ولن يكون إلا صائغا؛ بطلب من الراغب في التزيِّن بها.

قالت ريم ناطقة بما تراه مهما بالنسبة لها، ولأمجد، ولمارتينا:

– من المعتاد، أو من العرف السائد بين صناع الأشياء الدقيقة الثمينة، والصاغة؛ أن ينقشوا عليها الحرفين الأولين من اسم المصنوعة له، وتُضرب عليها بصمة الصانع؛ علامة على الأصالة.

بدأ (كونزاليز)، وأمجد، وريم في تدقيق النظر؛ في كل جزء من القلم والقداحة؛ فاكتشفوا ما حُفر عليهما؛ الأول من يسار الكتابة اللاتينية؛ هو (S)، ويليه اسم عائلي هو (Rodriguiz)؛ الحرف الأول من أول الاسم الشخصي، وعلامة تشير إلى الصانع؛ فيها حرف، ورسم لمطرقة، وإزميل؛ أداتان من أدوات صانع الحلي.

قال أمجد ناظرا دائما إلى القلم والقداحة:

– كثير هم الأشخاص الذين تبتدئ أسماؤهم الشخصية بحرف (S)، وحرف اسم الصانع، ولهم أسماء عائلية مثل (Rodriguiz)؛ إذن فلا تفيد في التقاط معلومة مضبوطة.

أبدت مارتينا تأسفا، ونظرت بعيدا؛ مُصابة بصدمة ما سمعته إلى حد ذلك الوقت؛ وتنهدت حُزنا، ولم تنطق بأي كلمة. إن الذي لم يأخذ باهتمام الجماعة في الأول هو المذكرة، لأنها من ورق، وتوحي فقط بأن بها تسجيلات يومية غير ذات بال، وقد انصرف نظر أمجد عن القلم والقداحة؛ إلى المذكرة، فجذبته إليها بجلد غلافها الطبيعي؛ فما لاحظ هو أنه معالج بإتقان؛ مصبوغ بالأحمر الغامق؛ عليه رسم رمزي مُتضرس؛ يتكون من خاتم بفَصٍّ يُطلِق لمعانا؛ مُحاط بدائرتين؛ كل واحدة منهما محاطة بأصغر منها؛ بينهما كتابة قرأها أمجد؛ ناطقا بكلمتيها:

- (حُلي الأطلنتي).

سكت قليلا ثم قال:

- هذه الجملة رأى فيها صاحب المذكرة اسما لمتجره.

وأخذ المذكرة، وصار يتصفحها، وكانت المفاجأة كبيرة؛ لما رأى على صفحاتها كتابة، وتصاميما لمصوغات؛ خُطت باليد؛ بأقلام حبر جاف؛ بثلاثة ألوان، أو أكثر، وفي الهامش وبشكل مائل؛ كُتبت أحرف، وأرقام هواتف، فلم يثر بكل هذا فضول الجالسين معه في تلك المقهى، وبدأ يُصورها صفحة صفحة بتوجيه العدسة بزاوية مستقيمة، كما انتقل إلى القلم والقداحة، فصورهما من كل جانب، ودفع بالكل برفق واحتياط إلى كونزليز؛ الذي لم يتأخر، فأدخل أشياء الرجل الغريب الشخصية في الظرف؛ ذي الأوراق السميكة.

كانت كلمة شكر هي ما تفوه بها الثلاثة؛ مُستحقَّة لِـ(كونزاليز)، وبإعلامه من طرف (مارتينا) بما سيحصدونه من أخبار حقيقية عن صاحب ما طُعِّم بالفضة، والزمرد، والياقوت، وبمكان وجوده، ولم يستسلموا لمرونة عضلة اللسان؛ لتتحرك باسم (سيرجيو)، وتصل صاعقة إلى أذني (كونزاليز).

وبرحوا مقهى (شاطئ ماكاماكا)؛ تاركين إياه يعُج بالقاصدين إليه؛ يتبعهم ضجيج هؤلاء، وأصوات الأكواب الزجاجية، والصحون، وانهماك السكاكين، والشوكة؛ على الخزف الأبيض؛ تعمل فيما قُدم فيه؛ من أكل دسِم؛ مُتنوع الغَلَّة النباتية، أو الحيوانية، وكيفيات تحضيره.

الفصل الرابع عشر
(سيرجيو) الثري

هل يُطرح سؤال مثل: بأي وسيلة ستُسافر (مارتينا) إلى كندا، لتُعاين الكيفية التي سيُعثر بها على قاتل زوجها (سيرجيو)، والهاربِ بما أثمر عن رحلة في المحيط؛ طويلة، وشاقة، فهو مجهود كبير من (ميكيل)، فيه استهلاك سنوات من عمره، وكثيرٌ من ماله؟ لا، فقد قال لها أمجد مُخففا عنها البعض من أثقال القضية، التي هي في عمقها:

- ستكونين برفقتنا في الغواصة (أنقليس 1) يا (مارتينا)؛ عُضوا من جماعتنا؛ في غوصنا؛ إلى خليج (ماين)، أو خليج (فوندي)، أو خليج (سان لوران)؛ إلى جزر، وأشباه جزر الشمال الشرقي من كندا؛ ستُشاركيننا في كل شيء؛ في نجاحنا، وإخفاقنا؛ في مغامراتنا في البحث عن (سيرجيو).

كان هذا الذي خاطبها به أمجد؛ في حد ذاته تشجيعا لِ(مارتينا) على المضي حتى النهاية، في أن ينال القاتل جزاءه، وأعاد إليها الثقة، وظهر لها المستقبل بالأهداف التي ترجوها، وقد عادت إلى سكنها، لتترك رسالة بخط يدها؛ إلى ابنها؛ بأنها ستغيب، ولا خوف عليها؛ وسترجع من سفر؛ مُحملة بالغريب من الأحداث، والعجيب من الأفعال، وبانتصار على من هو من بين المجرمين، والمنحطين، والخسيسين، والتقفها أمجد ورائد من أحد شطآن جزيرة (مالوركا)؛ دبت الغواصة البرمائية على رماله التي يزحف عليها مد ماء البحر،

ويتراجع عنها جزْرُه؛ في يوم حركت فيه الريح فروعَ الأشجار، وقماشَ الرايات، وأمالت أدخنَة مدافئ البيوت، والمعاملِ؛ مُبددة إياها في الجو، وخلت الشطآن من الناس، فلا عيون تتحقق بما تلتقطه فضولا.

شعر أفراد طاقم الغواصة بارتياح؛ لم يكن ليغزو نفس (مارتينا)، فكان بوصف آخر يخصهم؛ مُؤداه ما حصدوه في رحلاتهم؛ إلى مياه جزر (الآصور)، وإلى جزيرة (مالوركا)، وإلى ساحل لشبونة؛ من صور توثيقية، ومعلومات مهمة يتسلحون بها للوصول إلى (سيرجيو)، ولمناقشة كل ذلك، واكتشاف فيما ينفعهم، واستخراج منه الأمكنة التي كان يتواجد فيها، أو المكان الذي اتخذه مُقاما دائما له؛ بعد هذه المدة الطويلة من عقود من السنوات، وفي اجتماعهم سينطلقون من كل ذلك، وبالرجوع إلى خريطة الشمال الشرقي من كندا؛ سيضعون أصابعهم على أمكنة يُرجحونها كانت مقصدا لِـ(سيرجيو) في إخفاء شخصيته، وقد جلسوا محيطين بالطاولة؛ عيونهم على الشاشة الكبيرة؛ عارضين عليها رسالة عمق المحيط، والصورَ التي التقطوها؛ أطالوا النظر في التي أخذت لصفحات المذكرة المجلدة، وقراءة ما صُمم، وكتب عليها؛ فكان حُليّا، وأرقام هواتف، وأسماء مدن، وقال أسعد؛ مُلحا على طريقة تفكير، واستنتاج:

– لقد رأينا بأنه لا يمكن لـ(سيرجيو) الإبحار بقارب النجاة؛ انطلاقا من النقطة التي كان فيها المركب؛ قاطعا مئات الأميال؛ إلا إلى جزر شمال شرق كندا، وقد اكتشف

(ميكَيل) خريطة مرسومٌ عليها خطُّ اتجاه سَطَّره لهروبه، فلا نجاة له إذا التجأ شرقا إلى جزر (الآصور)، فقد يتعرف عليه أحد من شبه الجزيرة الأيبيرية، ولا يغامر إلى الغرب؛ إلى ساحل أمريكا الشرقي؛ لأن المسافة إليه أطول، وكندا بامتدادها إلى الحدود مع (ألاسكا)؛ تُتيح له مجالا واسعا، وبعيدا للتوغل في الشمال مُختفيا، وإذا شعر بأنه مُطارد فلا يتأخر عن ذلك، والذي زاد في تأكيد هذه النظرية هو ما رواه علينا (كونزاليز)، بأنه كان في ميناء أحد أقاليم كندا، وهي (اسكتلندا الجديدة)، وبالضبط في مدينة (هاليفاكس)، والشيء الآخر المادي هو عناوين زبنائه، وتصاميم الحلي؛ المكتوبة في مذكرته، فإلى جانب كل تصميم مصوغةٍ؛ مطلوب من الزبون؛ عنوان هاتفه، والمدينة التي يُقيم فيها.

قال أمجد قارئا لائحة بأسماء تلك المدن، وكان قد هيأها من قبل:

– المدن هي: (أوتاوا)، و(تورنتو)، و(فانكوفر)، و(كيبيك)، و(هاليفاكس)، و(مونتريال)، و(هاميلتون).

قالت رهف مُستنتجة:

– إذن فكلها مدن كندية، ويدل تعامل (سيريجون) مع البعض من سكان هذه المدن، وبهذا العدد أنه أصبح مشهورا بتجارة ما، أو حِرفة.

طرح رائد سؤالا مُتقدِّما به في الحديث:

– هل انطلاقا من كل هذا نرسم لنا خطا نسلكه لتتبع حلول (سيرجيون) بالأمكنة؟ وإن كانت مهاتفتنا لأصحاب

الهواتف، ليدلنا على الأقل واحد منهم على مكان (سيرجيون)؛ يُغنينا عن التيه في تلك الجهة من كندا المعمورة؛ دون طائل ربما.

أجاب بسام بتيقُّن مما يقول:

– نعم؛ فأول جزيرة أبحر بها وحيدا في زورق النجاة، وفي الخط الذي سنسلكه؛ هي جزيرة (الأمير إدوارد)؛ لأنها لم تتوسع فيها مدينة؛ بكثافة؛ تكون قُطبا تجاريا أو اقتصاديا، وتسودها فقط الحقول؛ بها مدينة واحدة مُتوسعة عمرانيا وهي (شارلوتتاون)؛ بها مطار برصيفين، وجامعة تحمل اسم الجزيرة.

قال أسعد مُتمسكا بتعيين الخط الذي سيتجه بهم إلى جزيرة (الأمير إدوارد):

– إن دخولنا إلى شمال شرق كندا عن طريق جزيرة (الأمير إدوارد) فيه فائدتان؛ الأولى: أن شاطئها الخالي إلى حد ما؛ مناسبة لنا لرسو الغواصة البرمائية؛ دون أن تُقتنص، والثانية: وهي الإحاطة بجميع أخبار (سيرجيون)، وقد نجح في دخول كندا.

قالت ريم وقد تأملت خريطة الجزيرة:

– الأرجح أنه اتجه إلى ساحلها الشمالي؛ عبر خليج (سان لورنس).

قال أمجد مُحددا الوجهة الأولى من رحلتهم إلى الشمال الشرقي من كندا:

– إذن فليكون خليج (سان لورنس) مجال غطس غواصتنا، وساحل شمال الجزيرة؛ مجال تحرينا عن رجل أبحر بقارب صغير

في الشمال الغربي من المحيط الأطلنتي؛ مسافة مئات من الأميال.

وأضافت رهف قائلة:

– ومن هناك نتتبع تحرك (سيرجيون)، إلى أن نصل إلى مُقامه الأخير في رحلة هروبه، واختفائه؛ موازاة مع المهاتفات؛ التي لا ندري ما إذا كنا سنُفلح فيها؛ إن البعض يمتنع عن إعطاء المعلومات الشخصية.

قال أسعد حاضًّا الجميع على التحرك بالغواصة:

– لا ندري ماذا سنُصادفه هناك، أو يعترضنا؛ قد آن الأوان للانطلاق؛ فبَرمِجوا خط سير الغواصة، لا تتركوها تطفو إلا للتعبئة الإلكترونية.

اِنسابت الغواصة في الأعماق؛ تراوغ بمجساتها الجانبية، وبتمفصل هيكلها الأرصفة القارية للجزر، التي يتراوح عمقها ما بين 100، و200 متر، والغواصات الأخرى، وغواطس المراكب الشراعية، وناقلات البترول، وناقلات البضائع العملاقة؛ فأغلب الحوادث المُدمرة لنظام سير الغواصات هو اصطدام كُشكِها العُلوي؛ بإحدى هذه الهياكل.

في ماء خليج (سان لوران)؛ كانت الغواصة تدنو من جزيرة (الأمير إدوارد)، وتنقل الكاميرات المصوبة إلى شاطئها؛ كل ما يتحرك في الماء، وفي البر؛ ومعالمَ الجزيرة السكنية، والطبيعية، من بيوت، وحقول، وأشجار، ومساحات تنمو فيها الأعشاب البرية؛ كانوا ينظرون جميعهم إلى هذا؛ وهم يُنصتون إلى أسعد وهو يقول:

– ثلاثة سيُختارون للمهمة الطويلة؛ أمجد، وريم، ورائد؛ أمجد وريم سيمضيان في تحرِّيهما، ورائد دائما في جانب منهما؛ ليحميهما من ضربة غادر؛ مُصطحبين طبعا (مارتينا).

قالت رهف بأمل يشجعهم:

– حارس المنارة، أو بحار مخضرم، أو رجل عمر الجزيرة سنوات طويلة من عمره، أو امرأة تعمل في الحقول؛ لا تغفل عيناها عن المراكب الذاهبة والآيبة في الخليج، أو جائب دائم للجزيرة يوجه منظاره المُكبر إلى عُرض البحر، من أصول الذين قدموا إليها منذ قرون؛ قد تجدون عند أحد هؤلاء حكاية وصول (سيرجيون) إلى ساحلهم.

قالت ريم آخذة بكلام رهف:

– لقد خطَّطتِ لنا يا رهف لذهابنا إلى هناك.

ولفظت الغواصة البرمائية الأربعة؛ في ساعة متأخرة من الليل على شاطئ رملي، وبحثوا عن فندق مُنعزل باتوا فيه حتى الغد في الصباح الباكر، لتبدو لهم من بعيد منارة؛ اِتجهوا إليها لكنهم لم يجدوا حارسها، فضمتهم رمال شاطئ بعيد عن العمران؛ لم يكن فيه إلا رجلا متقدما في السن، يدفع قاربا بصعوبة إلى ماء الخليج؛ في قعره شبكة صغيرة؛ قال له رائد مُستدرجا إياه إلى حديث مُوجّه:

– هل تحتاج سيدي إلى مساعدة:

توقف الشيخ عن دفع القارِب، وحاول أن يعتدل بقامته التي أحنتها سنوات العمر الطويلة، وقال:

– هي فقط هواية أشغل بها نفسي بعد أن أُحِلْتُ على المعاش.

سألته ريم هادفة إلى بث انبساط في نفس المتقاعد:

– بماذا كنت تشتغل؟

جلس المسن على حاشية قاربه، وهو يسترجع أنفاسه:

– كنت مُعلما؛ أدرس بمدارس الجزيرة الابتدائية؛ توفيت زوجتي منذ عشر سنوات، وابني الوحيد انتقل إلى مدينة (توبيرموري)؛ على بحيرة (هورون)؛ إحدى البحيرات الخمس المعروفة؛ يعمل كاتبا بأحد الفنادق.

وضحك المتقاعد بعد مدة صمت قصيرة؛ بدون قهقهة قوية، فاهتز جسده الشائخ قليلا، وقال:

– ها أنتم ترونني وحيدا، وترون إلى أي حد جزيرتنا جميلة بمناظرها وبيوتها الخشبية، وهدوئها؛ في كل هذا استئناس لي.

سكت قليلا ثم صار يُوزع نظراته بين وجوه الأربعة، وقال:

– فيكُم أنتم كاملُ سعادتي، فإني أدعوكم إلى بيتي القريب من هنا؛ أقدم لكم ماء باردا ترتوون به، وعصيرا تنتعشون به؛ ويدور حديث بيننا؛ لا ننطق فيه؛ إلا بما يُشوّقنا إليه.

سألته مارتينا بابتسامة أنثوية ظريفة:

– ما اسمك أيها السيد؟

أجاب الشيخ بابتسامة مهدودة:

– اسمي (ويليام).

نظرة خفية من الأربعة إلى بعضهم البعض؛ فكان ما جمعهم هو الخطة الأولى التي جعلهم هذا المسن يخطونها، وتقدّمُهُم

إلى منزل خشبي مطلي بألوان فاتحة؛ تسُرُّ الناظرين، دخل إليه؛ ناطقا بما يعبر على ترحاب بهم صاف، وهم وجدوا أنفسهم في بيت الأحلام؛ بأثاثه البسيط، وبأشياء مجسدة، ومنحوتة، ومشكلة بمواد خام عديدة؛ موضوعة على رُفف من خشب؛ تُنوع المنظر العام، وأصصٍ تنوعت نباتاتها، وزهورُها؛ فهي تنبت ظلِّية في هذا، أو شمسية في ذاك؛ وهناك أبصرت عيون الأربعة مكتبةً مُورنشة قديمة؛ مملوءة رفوفها بكتب مجلدة طبيعيا، ومذهبة العناوين، والزخارف، أو مغلفة ورقيا؛ وما قُدم فيه الماء والعصير؛ هو من خزف أبيض اللون؛ مزين برسومات بيوت، وقوارب شراعية، وفلاحين، وفلاحات؛ رحلت بخيالاتهم بعيدا.

سأله أمجد بادئا بما يذهبون به بعيدا في الحديث:

- هل الجزيرة هي مسقط رأسك؟

أجاب الرجل مُغتبطا بضيوفه، ومُقربا نفسه منهم:

- نعم، والشاطئ هو مكان استجمامي منذ الطفولة، ولم أغفل عن كل ما يجري فيه؛ فإني أسافر مشيا على الأقدام في طول ساحل الجزيرة.

سألته ريم دون النطق بكلام ممهد:

- تكون رأيت رجلا قدم إلى جزيرتكم من بعيد بقارب نجاة.

ضيق الشيخ عينيه، وقطب ما بين حاجبيه؛ عاصرا ذهنه؛ مُنقبا في أرشيف ذاكرته، ثم ارتخت عضلات وجهه، وتدفق الدم في وجنتيه، وقال:

– نعم؛ وقت وصوله إلى الشاطئ الرملي؛ في مساء أحد الأيام؛ شاهده مستجم كان مسترخيا على كرسي طويل، ووجهه إلى الخليج؛ فنادى علي أنا الذي كنت قد أبعدت قاربي من مد وجزر الماء، وأستعد للعودة إلى مسكني؛ فاقتربت من المنادي، ونحن نلاحظ غرابة شكل المركب، والصاري، والشراع؛ واستلقاء راكبه في القعر بعياء قاهر؛ دخلنا إلى الماء، وتعاونا على إخراجه من بين الأمواج الزاحفة بقوة؛ كانت ثياب الذي أبحر به رثة، وجسده هو أحرقته شمس المحيط، وضعُف وجهه، وأصابه هُزالٌ؛ قام على رجلين مرتجفتين؛ ساعدناه على ترك القارب، وسرنا به؛ حاملين عضديه؛ كانت إحدى الساكنات في المسرب الرملي؛ أرملة عاقر؛ تقيم وحدها في بيت صغير، تحيط بها حديقة تُفلح فيها بما يفي حاجتها، قالت بعطف: «هذا بيتي أقرب؛ أدخِلوه إليه، فإني مستعدة لمساعدته؛ حتى تعود له عافيته، وقوتُه»، وقد قمنا بما قالته لنا، ورجع كل واحد منا إلى مكانه، ونحن نعرف حذاقة تلك السيدة، وحزمها، وأنها ستخدُمه، وستعمل كل ما في جهدها إلى إعادته إلى حالته التي يكون عليها، وإلى طبيعته الإنسانية المعتادة. في وقت مبكر من الغد ذهبت إلى القارب؛ وجدت بقعره خريطة مُتضررة، وبراميل ماء فارغة؛ إلا واحدا منها ما يزال فقط رُبعُه مملوءا، وصحنا، وكوبا، وعلبَ أكل فارغة، وقشورَ فاكهة يابسة؛ فعرفت بأن المبحر به؛ كان قد تزود لرحلة بحرية طويلة؛ وكان قد ضبط خط مغامرته، وأطلق العنان للشراع؛

ليقطع الأميال البحرية، في وقت لايطول فيه إبحاره، فيُهلك عطشا، وجوعا، وعرفت من كل ذلك بأنه متدرب على الإبحار بالأشرعة، وتوجيهها بالحبال الوجهة الصحيحة؛ وموضعِها من الرياح الأربعة، وله خبرة في ارتياد البحار والمحيطات، فنظرنا إليه بإكبار، وغلبنا التروي، فلم نخبر به أي أحد حتى يستعيد قوته، ونعرف من يكون، ومن أين أبحر، ومن دفعه إلى ذلك، وأي هدف يسعى إلى قدومه إلى جزيرتنا.

استخدمت كل قوتي، وحركت القارب أبعد من المساحة التي يصلها أقصى مد شتوي؛ دفعا وجرا، إلى مابين النباتات؛ حماية له، وقصدت بيت الأرملة لأسألها عن حال المغامر؛ تفاجأت عندما قالت لي بأنه اختفى، والغالب في وقت متأخر من الليل، وما تزال بقية من قاربه؛ يظهر حطاما تغطيه الرمال جزءا منه، ونباتات الشاطئ، فإذا كان يهمكم رؤيته، فإني دليلكم إليه.

قال رائد موجها بال أصدقائه إلى ذلك:

- نعم؛ إنه لمن الضروري رؤية ولو قطعة من القارب الذي خاض به راكبُه أمواج المحيط.

وقد تصفح الأربعة ما بقي من القارب، وقد طمرت الرمال التي تزحزحها الرياح ما كان في قعره، وذكره (ويليام)، والذي أخذ ببال أمجد هو الخريطة، فسأل عنها ويليام؛ أجاب هذا بأنه احتفظ بها، وهو لا يمتنع عن إظهارها إليهم، وقد فعل؛ فنظروا إليها، ووراأوا من الضروري أن تكون معهم دليلا ماديا

على رحلة هروب (سيرجيو)، وهمس رائد في أذن أمجد قائلا:
- إذا احتاجناها بقوة القانون سنعود إلى الحصول عليها.
ومايزال (ويليام) مائلا إلى صحبة الأربعة، وسائرا بهم؛ جارًّا إياهم بأحاديث مختلفة إلى بيته مرة أخرى، أظهر له أمجد صور القلم والقداحة سائلا إياه:
- هل تعرف صائغا، أو صانعا تقليديا؛ هنا في كندا؛ يُغشِّي تحت الطلب أشياء شخصية؛ مثل هذا القلم، وهذه القداحة؛ بالفضة، ويُزينها بالذهب، ويُطعمها بالزمرّد، والياقوت.
أجاب ويليام، وهو يحاول التعرف على من شكل، ونقش، وطعم؛ ما يراه في الصورة:
- أملك منظارا وحيد العدسة قديم؛ غشى صائغ أنبوبتيه بالمعدن؛ إحداهما بالنحاس الأصفر، والأخرى بالفضة، وأدار العدسة بحلقة من النحاس الأحمر.
سكت ثوان قليلة، وتابع كلامه قائلا:
- مدينة (تورنتو) هي عاصمة الجواهريين، وهذا الأسلوب من النقش، والتطعيم معروفون به؛ سأريكم المنظار، وسترون إلى أي حد اكتسب قيمة فنية، وأصبح تحفة يُتزايد فيما يستحقه من مال.
فتح صندوقا يحتل ركنا من السكن، وأخرج منه غِمدا جلديا؛ سل منه برفق منظارا؛ تلمع الصفيحتان اللتان تُغشيانه، وعرضه عليهم؛ نظروا هم إليه؛ مُعجبة عيونهم به.
قال لهم بسعادة:

– أسيح به على طول الساحل؛ في طقوس من فصل الخريف؛ العنيفة الرياح؛ عندما تُنتزع أوراق الشجر اليابسة، وتطير في الجو مُرفرفة، ويفزع الطير؛ مُنطلقا إلى يابسة أخرى؛ أسحب بعضه من بعض؛ بحركة البحار المحنك؛ المجرب؛ المهموم لمن تكون المراكب المبحرة في اتجاهه؛ أو المارة هناك بعيدا عنه، أو بساحل صخري يتصدى لسفينته، فأرفعه إلى عيني تُقرب إليهما؛ عدسته المصقولة؛ السفن المبحرة إلى الشرق إلى العالم القديم، أو إلى الشمال؛ في بحر (لابرادور)؛ أو جزر ممر الشمال الغربي البحري.

ولكن الذي يستأثر ببال الأربعة هو الاهتداء إلى من عمل في القلم والقداحة، فسأل رائد ويليام؛ رابطا سؤاله بمنظاره المتيم به.

– هل يكون الذي صفح منظارك بالنحاس والفضة، هو من قام بالمثل في القلم والقداحة.

أجاب قائلا، وهو يقارن بين أسلوبي فنية التشكيل والنقش:

– ربما، ولا ننسى بأن الفنية عند الصاغة، وصناع الجواهر؛ عادة ما تكون مدرسة فن؛ اكتسب فيها الجميع المهارة اليدوية.

قالت ريم مُوجهة إليه طلبا:

– هل ترافقنا إلى صائغ معدن منظارك؟

قال مُستهولا الطريق:

– الطريق إلى (تورنتو) طويلة جدا؛ تتطلب ستة عشر ساعة سفر بوسيلة نقل.

لم ينطق الأربعة بأي كلمة، وتركوا ويليام يفكر فيما طُلب منه، وانتبهوا إليه جيدا؛ لما تكلم قائلا:

– الوسيلة الأسرع إلى هناك الطائرة، ولا أقصد طائرات أرصفة المطارات، وإنما الطائرات المائية، سيُقلع بنا أحد الطيارين؛ يعمل في خط تُنظم به رحلات سياحية إلى منطقة (موسكوكا)؛ ذات المناظر الطبيعية الخلابة؛ من مياه ميناء (ألبرتون)؛ فإلى هناك بسيارتي.

حطّ الطيار بجماعة (ويليام) بطائرته في بحيرة (أنتاريو)، وترك الطائرة المائية تنساب بهم على الماء إلى ميناء (تورنتو) للقوارب الشراعية، وياخوتات الترفيه، ومنه ركب الخمسة مركبة بعشر مقاعد إلى أطول شارع تجاري في المدينة، وهو (ستريت يونغ)، ترجلوا في مكان منه؛ على يسارهم محل صائغ حلي؛ دخلوه؛ اِستقبلهم صاحبه بابتسامة مُشرقة؛ بأسنان مُبيّضة، وبأناقة فرنسية، وبعِطر باريسي أخاذ، وبنظرات تألف أنماط القادمين إلى المكان؛ اتجه نظره إلى ويليام؛ فعرفه، فنطق بتحية خاصة به، ردها هو، وقال له وهو يُظهر له صورتي القلم والقداحة:

– هل هذا من فنية محلك.

حدق الصائغ في الصورتين جيدا، وقال:

– لا؛ أعرف صائغا؛ الغالب هو الذي صاغ معدن هذا؛ إن دكانه على مسافة ثلاث كيلومترات من هنا.

شكره الجميع، واستقلوا سيارة أجرة أوصلتهم إلى مقصدهم؛ وقد نظر الصائغ إلى قطعتي الصورتين طلق الوجه، وقال:

– نعم؛ أنا من غشي هذين الشيئين بالفضة، وطعمتهما بزمرد (كولومبيا)، وياقوت (سريلانكا)؛ قُمت بهذا منذ سنين.

سأله رائد بأدب:

– هل تتذكر صاحبهما.

ذهب تفكير صائغ الفضة بعيدا، ثم عاد وقال:

– لم يكن هو الذي يدخل إلى محلي؛ والذي كان ينقل إلي الطلب والتفاوض في الثمن سائقه؛ كان هو يظل في مقعده من السيارة؛ رافعا ياقة معطفه أو بذلته على وجهه، ويضع دائما نظارة سوداء على عينيه؛ ولكن لم يكن ليظل مُستجهلا لدي، فقد عرفت بطرقي الخاصة من يكون؛ إنه صاحب محل بيع الحلي والمجوهرات اسمه (مجوهرات الأطلنتي)؛ يوجد في مدينة (هاميلتون)؛ في شارعها التجاري التاريخي؛ المسمى ب(لوكستريت).

شكروه، وركبوا إلى تلك المدينة؛ وفي ذلك الشارع شدّت أنظارهم لوحة تُضيء كلمتين بضوء مُشع هما (مجوهرات الأطلنتي)، تعلو واجهة متجر؛ مضاء بالكامل، وكان المساء قد زحف على المدينة التي لا تبعد عن مدينة (ديترويت) الأمريكية إلا بعشرات الكيلومترات؛ دخلوا إليه، والذي تكلم مع عامل المتجر هو ويليام، سائلا إياه:

– هل يُخول لنا اتصال بمُشغلك؟

قال العامل بعينين مُنفلتتين من مِحجريهما؛ لا ترمشان، وبخدين لا يحمرّان بالدم المضخوخ، وبرأس لا يُحنيه حياء، ولا عاطفة:

- لم أعرف للمحل ربا له؛ شُغلتُ هنا من طرف شخص؛ لا يملك ذرة واحدة من هذا المتجر، ليس لي معرفة سابقة به، ولا يسمح لي بالتوفر على معطيات شخصية، ولا الإتصال بأحد.

لم ينطق وليام عقب كلام هذا الإنسان المُوصد، وأشار إلى رفقائه بتركه جامدا؛ وراء اللوح الجسيم كالتمثال.

ذهبوا إلى مطعم تناولوا فيه عشاء مُغذِّيا، وطاب لهم إطالة الجلوس فيه بعد أن تقدم بهم الليل؛ تكلم حينذاك رائد بعد تفكير في طريقة ما؛ قال:

- يتصل عنصر منا بأحد من أصحاب هواتف المذكرة، ويُذكره بالمصوغة التي طلب من تاجر مجوهرات -هو وسيط بالتعبير الحقيقي- تشكيلها بتصميم أخذ رأيه فيه، أو كانت عناصره مفكرا فيها من طرفه هو شخصيا؛ طالبا منه عنوانه؛ لرغبته في أن يصوغ له حِليّا كثيرة، فهي خواتم، وسلاسل، وأساور.

وذلك ما قام به أمجد، فكان رد أحدهم بأن تاجر الحلي يقيم بمدينة (كراند سودبوري)؛ في شارع (بوشنان)؛ به ثلاث مربعات سكنية؛ الأول في سيره فيه من الشرق إلى الغرب؛ في المنزل السادس على يمينه ذي المسبح الدائري، ولم يسأل المُتّصَل به من أين حصل المُهاتِف على رقم هاتفه.

قالت ريم وقد قامت من جلوسها:

- لن تمض ساعتان حتى نكون في مدينة (كرند سودبوري)؛ في شارع (بوشنان).

قال أمجد مُوجها كلامه إلى ويليام:

- بِت ليلتك في فندق، وسنلتقي غدا في شارع (ستريت يونغ)؛ فلا تتزحزح عنه.

أومأ ويليام الطيب الشخصية برأسه بالموافقة، والذي لم يسأل أحدا من جماعة أمجد عما يفعلون، ولأي سبب يسألون عن عنوان صاحب محل بيع المجوهرات.

وسافر الأربعة إلى تلك المدينة؛ وكانت الساعة تشير إلى ما بعد منتصف الليل؛ قال لهم أمجد وقد جد الموقف؛ وحان الوقت الذي انتظره الأربعة؛ قادمين من وراء المحيط الأطلنتي، وتقدموا في الشارع، ودقوا على باب البيت السادس؛ خرج إليهم رجل؛ ظهر من مظهره أنه حارس شخصي؛ سألهم:

- ماذا تريدون؟

أجابه رائد بهدوء:

- إننا نريد صاحب البيت؛ أليس تاجر حُلي؟ أخبره بأننا نريده في أمر هو الشخص المحوري فيه.

دخل الرجل، وبعد خمس دقائق خرج، وقال لهم مُفسحا لهم مدخلا عريضا:

- تفضلوا.

ودخل أمجد ورائد وريم؛ إلى بهو يتوسطه كرسي يجلس عليه رجل في أبهى لباس البيت؛ حريري النسيج؛ تنعكس الأضواء

على ثنياته؛ فتصدر بريقا؛ تتراقص به؛ أما مارتينا فقد تأخرت عنهم، وتوقفت في زاوية؛ يُخفيها ظلامها؛ إلا ساقيها.

قال الرجل الذي صقلته نِعمة، وصار رشيقا؛ يبدو أصغر من سنه؛ قليل من الشيب في فوديه؛ صارم الوجه؛ معتدل الجذع:

- أهلا بكم؛ ما الأمر الذي يهمني؟

ما كاد أمجد ينطق بكلمة يستدعيها المقام؛ حتى ارتفع صوت من مارتينا التي لم تتحكم في أثر واقعة زوجها؛ صائحة:

- سيرجيون.

قام هو على قدميه؛ وقد فوجئ بأحد مختف في الظلام ينطق باسمه، وبلُكنة إسبانية، وبصوت اعتاد سماعه من قبل، فاضطرب جسدُه، وانمحت اتجاهات تفكيره من ذهنه، وتشتت باله، وسأل بفزع:

من؟

تقدمت مارتينا ببطء، وأظهرت نفسها له؛ نزلت في نفس الوقت من السلم امرأة شادة قدها إلى الأعلى؛ شعر رأسها في تسريحة عُرْفٍ يرتفع فوق رأسها؛ يزيد كمالا في هيئتها، ثابتة الخطوات، سألت هي الأخرى قائلا:

- من تكون هذه المرأة ياسيرجيون؟

وجهت إليها مارتيتا سؤالا مُكهرِبا:

- أهذه (لوسيا)؟

تعرفت عليها لوسيا، فأُلجم لسانها فلم تجد ما تحركه به من الكلمات.

حينئذ تساءل سيرجيون؛ قائلا:

– أهذه مارتينا؛ زوجة صديقي؟

قالت هي بغيظ شديد، وبصوت متهدج:

– بل أرملة صديقك (ميگيل)؛ يا قرصانا من القرن الواحد والعشرين؛ أشد شرا.

صار جسده يرتعد من هامته إلى أصابع قدميه، وسمع منه تلعثم، ثم قال لا يستقيم له كلام:

– مارتينا؛ مؤسف هذا الذي أقوله لك، فقد أحاطت بنا عاصفة هوجاء، أمال الموج الهائل المركب على جانبه، وصار الماء يملأه، فرمى ميگيل بنفسه إلى المحيط؛ بيده طوق نجاة؛ وظل يطفو به، وقد حاولت إغاثته بمركب النجاة، إلا أن الموج علا به بعيدا، وحجبته عني عتمة الجو، وستار صفيق من مطر غزير، فلم أعد أعرف في أي اتجاه هو؛ فتأكدت بأنه غرق، ولا أمل في البحث عنه؛ إني أعوضك خسارتك فيه بالآلاف يا مارتينا، تشترين بها عقارات؛ تعيشين بمردودها في رخاء؛ هنا في كندا.

قاطعته مارتينا؛ صائحة في وجهه بقوة، وقد اشتد غضبها:

– أُسكت أيها الكذاب؛ الملفق للحكايات؛ هذا (ميگيل) مكفن في قطعة من الشراع، ومدفون في صندوق مقدمة المركب.

جحظت عينا (سيريجون)، وتوترت يداه، وقدماه؛ حتى كاد أن يُشل؛ وامتدت يده ببطء إلى جيبه، وأخرج مسدسا، وصوبه في اتجاه مارتينا، وصائحا في حارسه؛ آمرا إياه:

- أَخرِج هؤلاء الغرباء من هنا بالقوة.

كان رائد قد اندفع إلى (مارتينا)، ودفع بها إلى ركن يحميها من طلقات المسدس؛ وتراجع أمجد وريم؛ إلى ركن آخر جعلهم في مأمن من الرصاص، وعاد رائد، ووجه ضربة إلى الحارس الشخصي؛ كبته على وجهه، وصاح في أصدقائه:

- فلتفلت بكم سيقانُكم؛ ممرات في الخارج؛ في سلوكها مراوغة لهذا القرصان الذي يقتل بدون رحمة.

فكانوا جميعا خارج البيت؛ وفي تعقب سيرجيون وحارسه الشخصي لهم فضح له، فلم يظهرا لهم، وكان أمجد قد التقط بسرعة بعض صور سيرجيون، وهو يصوب مسدسه إلى مارتينا، وصورة لواجهة المنزل؛ في رخامة منها رقم من نحاس مُلمّع؛ قال لهم مُنهيا تعقب سيرجيون:

- ألا وقد وجدنا المجرم سيرجيون، وجمعنا ما يكفي من الأدلة المادية تثبت قتله لميگيل، وطمر جثته بكيفية شنيعة، وتسلطه على ما عثرا عليه من معدن نفيس، فاغتنى به، فما علينا الآن إلا أن نغادر كندا؛ هذا البلد المتنوع الطبيعة، وكثير بها ما يخلب العقول، وكان على مسؤوليها أن لا يغفلوا عن أمثال سيرجيون؛ سفاحون ملتجئون، أو يستغفلونهم، وفي وداعنا لمارتينا في ساحل جزيرة مالوركا؛ سنُبيِّن لها ما تقوم به؛ لإلقاء القبض على سيرجيون، وإذا ما كان في موجودات

المحيط الثمينة مُستحقا لها، فلا يفتقر نص الحكم إلى فقرة إجراء تنفيذ.

اِلتقوا بويليام، الذي لم يتكلم إليهم إلا بسؤال واحد فقط؛ هو من لينة أخلاقه:

– هل تحقق لكم القصد؟

أجابوا جميعا بكلمة واحدة؛ ثابتة في نطقها:

– نعم.

كان أهم شيء دار الحديث عنه بين جماعة أمجد، وويليام، ويدخل وثيقةَ حجة في ملف دعوى مارتينا؛ هو الخريطة المرسوم عليها خط إبحار (سيرجيون) إلى جزيرة (الأمير إدوارد)، وكان خطة مسبقة، تشي بنفس أصرت على نية قتل مدبرة؛ حار الأربعة بين الاكتفاء بصورة منها، أو طلب أصلها من ويليام، وانتهت المشاورة فيما بينهم؛ إلى ترك الأمر له؛ قالت له ريم مُخيرة إياه:

– تدري يا وليام إلى أي حد أن الخريطة حجة على شخص ارتكب جريمة، وإننا نخيرك بين أن تعطيها لنا دليلا أصليا؛ أو نكتفي بصورتها.

لم ينظر إليها طويلا مُفكرا فيما قالت، واتجه إلى الصندوق، وأخرج منها الخريطة، وأعطاها إليها؛ بنفس قانعة؛ مرحة، وبوجه طلق دائما؛ شكروه، ثم اتجهوا جميعا إلى شاطئ خليج (سان لوران)، وهناك تبادل الأربعة من فريق الغواصة (أنقليس 1) كلمة الوداع مع ويليام، الذي رهُفت أحاسيسه للموقف المحزن، فدمعت عيناه، وطال ضمه لأمجد ورائد،

واتسعت ابتسامته الدامعة المنبسطة لريم، ومارتينا، وظل واقفا في مكانه لا يتحرك، وهو يرى الغواصة البرمائية تبرز من عمق الماء؛ مُتحكم في قدومها، دخلها الأربعة، وتراجعت بهم غائصة في خليج (سان لوران)؛ ولم تعد تظهر لويليام الذي ظل يلوح بيديه؛ إلى ما ثبت في خياله من وجوههم، وهيكل الغواصة، وإلى الخليج؛ ثم سار على طول الشاطئ حزينا؛ ينظر مرة بعد أخرى إلى المكان الذي كان فيه بعد قليل مجتمعا مع أصدقاءه من وراء المحيط الأطلنتي؛ من العالم القديم.

الفصل الخامس عشر

الملف الصعب

ما أصعبه ملف قضية! في سُكنى (مارتينا)؛ في شارع (بوتيريا)؛ في مدينة (بالما)، في جزير (مالوركا)؛ جلست مارتينا، وأمجد، ورائد؛ وريم إلى مائدة؛ في مساء يوم من الأيام الأولى من فصل الصيف؛ وقد تركت مارتينا نافذة شرقية؛ مفتوحة؛ تدخل منها نسائم البحر الأبيض المتوسط؛ فتُلطِّف جو البهو، اِرتاح به الذين اجتمعوا لأمر مهم، ونشِطت أجسادهم به؛ فدبت حيوية في أطرافهم، وفي أدمغتهم، قال أمجد جاذبا الجميع إلى لُبِّ القضية، وتهيء ملف بالوثائق والأدلة الدامغة، وضبط أسماء الشهود، ومحاولة توجيه القضاء نفسه للوقوف وقفة عادلة إلى جانب مارتينا؛ بل عليها أن تكسب القضية مائة بالمائة:

– أنا لست دارسا للقضاء، ولا ممارسا له، ولا بيدي إجراء آخذ به حق ذات المظلمة، ولكن، ونحن قد وجدنا أنفسنا في عمق الحدث، والتقينا بالأشخاص الذي لعبوا دورا فيه، ومررنا بأزمانه، واطلعنا عن كثب بالأشياء الذي كانت تشغل أيديهم لحاجتهم إليها، وسلكنا الطرق التي سلكوها، وتتبعنا آثارهم؛ بأمل، أو بإحباط، أو بنجاح، أو بفشل، أو بترقب يُضني النفوس، فهذا يؤهلنا إلى تكوين ملف عام، من الأدلة المادية؛ لا تقبل الشك؛ أو المراوغة، أو الزيغ عن مسار القضية الصحيح، وقد نستطيع أن نوجه به المحامين، والقضاة الوجهة

التي أرادت الواقعة أن تتجه إليه في النهاية، وهي الحكم لصالح المهضومة في حقها؛ أرملة المقتول ميگيل.

قالت ريم متسائلة بهم قد يُحبط:

– إن القضية تحتاج إلى صياغة قصة، وقد تنشأ طويلة، والأغلب فيها هو أنها ستكون بالوصف الأخير.

قال رائد دافعا بالجميع على العمل على الوثائق:

– نرتب الوثائق بتواريخها كرونولوجيا، لتكون خطوات مؤرخة؛ لترتيب أحداث القصة الكاملة، يستطيع بها المطلع الإمساك بخيوطها سواء المحامي، أو القاضي، أو المحلفون.

قال أمجد واضعا منهجية:

– لا بد أن تخضع الوثائق والأدلة لِمعيارين، أولهما: ترتيبها حسب قوة دليلها؛ ثانيهما ترتيبها زمنيا؛ ليُعتمد عليها في صياغة الحدث.

قالت ريم ناطقة بأول وثيقة من ناحية قوة دليلها:

– أول وثيقة هي رسالة ميگيل إلى زوجته؛ سنة كتابتها 1994م.

قال أمجد راعيا الترتيب حسب مستوى الحجة الدامغة:

– الصور التي التقطت لرأس الفأس، وللهيكل العظمي، ولأنبوبة الرسالة.

قالت مارتينا كاشفة عن رسالة يصب مضمونها في القضية، ولكنهم لا يتوفرون عليها.

– رسالة سيرجيون لزوجته لوسيا، التي كانت مع العلبة.

قال رائد مُتكلما عن وثيقة أصلية:

ـ خريطة مسار رحلة التجاء سيرجون إلى جزيرة (الأمير إدوارد).

قال أمجد مُذكرا الجميع بأشياء أخرى:

- القلم والقداحة والمذكرة؛ نتوفر فقط على صور منها، وإن (كونزاليز) سيكون مستعدا؛ بل مرغما على الإتيان بها؛ إلى المحققين لتقديمها أدلة مادية على وجود شخص؛ أرسل رسالة إلى (لوسيا)، لا يُستبعد أنه يأمرها فيها؛ على اللحاق به في كندا، بمساعدة شخص ربما؛ لم نعرفه بعد، وبوسيلة لم نعرفها بعد كذلك، لا تنكر هذا (لوسيا) عندما تُستقدم إلى القاضي للشهادة؛ لأنها سافرت بالفعل من إسبانيا إلى كندا.

قال رائد راجعا إلى الوراء إلى بداية الحكاية:

- هناك دليل، ولكن ليس بأيدينا، وهو صعب الوصول إليه، ويحتاج نفسه إلى أدلة لا تتوفر إلا في خضم عمران بلاد كندا.

سألته ريم بميل شديد إلى معرفته:

- ما هو، أتمنى ألا يكون فقداننا له إحباطا لنا؟

أجابها رائد بسكينة:

- الماس، والياقوت، والذهب، والفضة، الذي ذُكر في جرد قام به المرحوم ميكيل.

قال أمجد مُعطيا أملا في الوصول إليه من طرف المحققين:

- لتلك القطع الثمينة بائع ومشترٍ؛ فالبائع هو سيرجيون، والمشتري يسهل التعرف عليه، ولن تضيع تلك القطع من أي يد أحد؛ كانت آخر رحلتها لها عنده.

قالت مارتينا بملامح مُكفهرة، مُتذكرة تلك الليلة التي لولا رائد لكانت فيها القتيلة الثانية بعد زوجها:

– مسدس القرصان سيرجيون، لا بد أن يُجرد منه؛ دليلا قاطعا على الإقدام على القتل، ووراءه دافع هو محور الحكاية كاملة؛ وبطلها الوحيد هو الذي أجهز على زوجي برأس فأس.

قالت ريم ماضية في استحضار أدلة أخرى:

– رأس الفأس، والهيكل العظمي، ودفنه بوضع جنيني لا يكون إلا بفاعل فاعل.

قال أمجد متسائلا:

– هل ذكرتم كل الأدلة؟ وهل ما نطقت به ألسنتكم كاف لإصدار حكم قاس على سيرجيون؟

قالت مارتينا بغم كبير:

– كل ما يملكه القرصان سيرجيون الآن؛ أدلة مادية على فعله الشنيع، فيكون السؤال هو: من أين له ذلك؟ هل ولدته أمه، وفي فمه مِلعقة من ذهب؟ كان من أسرة موعزة، لا تملك إلا قوت يومها، لذلك كانت طبيعة نفسه هي الجشع، والسطو بلا حدود، والقتل من أجل المال بدون عاطفة إنسانية.

قال أمجد دافعا بالمجتمعين إلى الأمام:

– فما الحصيلة من ترتيب الأدلة زمنيا؟

قالت ريم بادئة تاريخيا بأول دليل:

- رأس الفأس الحديدي، ثم الهيكل العظمي، ثم رسالة الأنبوبة.

واستمر هذا الذكر؛ على لسان رائد؛ قال:

- ثم رسالة سيرجيون إلى زوجته، ثم القلم، ثم القداحة، ثم المذكرة.

وزاد أمجد ناطقا بالبعض الباقي:

- ثم الخريطة، ثم المسدس.

قالت مارتينا وقد أتعبتها المعلومات، والأدلة الكثيرة التي يتطلبها ملف القضية، حتى لا يكون فيه نقص قد يُربك قاضي التحقيق:

- ومَنِ الشهود الذين يتوجب عليهم أن لا يكتموا الشهادة، وهي من صدقهم، ومروءتهم؟

الأول الذي أجاب هو أمجد ناطقا بأسماء البعض منهم:

- من فريق الغواصة؛ رائد، وريم، وبسام؛ هم الذين شاهدوا حطام السفينة وهي في الأعماق، والأمكنة منها التي كان فيها رأس الفأس، والهيكل العظمي، وأنبوبة الرسالة.

قالت ريم متذكرة من يشهد وهو على علم بأشياء كثيرة:

- العجوز؛ صاحبة عمارة الشقة التي كانت تسكن بها لوسيا.

قال رائد مضيفا شهودا آخرين:

- (كونزاليز)، و(ويليام) الذي كان قد شاهد نزول سيرجيون على شاطئ جزيرة (الأمير إدوارد).

تحركت مارتينا في جلوسها بحنق شديد:

- حارس سيرجيون الشخصي، وحتى زوجته (لوسيا)؛ فهي التي تلقت رسالة؛ دفعها فيها إلى اللحاق به، وشاهدت زوجها يُطلق الرصاص علي ليقتلني، فلا يبقى وجود للأقرب من الهالك؛ ليُطالب بالعدالة.

قال أمجد واضعا الوثائق المتوفرة للجماعة في ملف:

- هذه وثائق الملف؛ الصور التي التقطت لرأس الفأس، والهيكل العظمي، ورسالة ميگيل، وهي بخط يديه، وصور القلم والقداحة والمذكرة، والخريطة.

قالت ريم ماضية إلى مرحلة متقدمة في تهييء الملف:

- تُحرر رسالة التبليغ بالجريمة، وفي سياقها في نفس الوقت طلبٌ من العدالة الانصاف في مظلمة، وهضم حق.

قال أمجد مقدما خدمة لمارتينا:

- سأملي عليك الطلب، وأنت تكتبينه، وتُوجهينه بخط يديك إلى الجهة؛ من السلطة العمومية؛ المنوطة بها التحقيق في مثل قضيتك؛ فهي إما الشرطة القضائية، أو النيابة العامة، أو قاضي التحقيق.

ولم يدخر أمجد جهدا، فقد صاغ فقرات الرسالة، بأسلوب يستوفي المعنى، وبمضمون كامل العناصر؛ ذاكرا فيها نقطة الإحداثيات التي أغرق عندها المركب الشراعي، ليسهل على المحققين التوجه إليها؛ مُبعثٌ بنصها إلى جهة مُشار إلى اسمها، وبآخر عبارة فيها ارتياح بوجود المنصف في المظالم، واطمئنان لوجود نظام بلاد يكرس القانون وسيلة، وأخذ حق لمُعتدَى عليه.

لم يكن فراق بين مارتينا، والثلاثة في ظرف مارٍّ؛ لا أثر ما حدث فيه، فقد كانت مارتينا تُكابد الأمرّين؛ مرارة نهاية زوجها الأليمة، ومرارة فراق هؤلاء الذين صحبتهم في غواصتهم المجهزة؛ بكل ما يحتاجه الإنسان وهو في عمق المحيط؛ إلى بلاد كثيرة الجزر، والحواضر العمرانية؛ في البحث عن العدو المخادع، ولولاهم لما اكتُشفت الجريمة، ولما اقتُفي أثر المجرم.

بوقوفهم قائمين من جلوسهم؛ وقفت أمامهم دامعة العينين؛ متألمة كثيرا بما سيقع في الحال، وهو غياب هذه الوجوه عنها؛ في لحظة من أقسى ما ستعيشه من لحظات الألم في حياتها.

ودعها الثلاثة، وهم مُطمئنين إلى أنها قد توفرت على كل ما تكسب بها قضيتها، وكان لهم دور كبير فيه، وتبادلوا معها كلمات؛ التي نطقوا بها هم كانت فيها متمنيات للقاء آخر، وهي تمنت لهم الدّعة في عودتهم إلى بلاد مغرب الشمس.

بعد شهر؛ تلقى أمجد رسالة من (ويليام)؛ لم يقرأها، وفضل احتراما لأصدقائه، بأن يُسمِّعهم جملها؛ وهم في حجرة الاجتماعات؛ في بيت أسعد، فأخبر رائد بها، وطلب منه دعوة الجميع إلى اللقاء، وقد كانوا جالسين؛ ينظرون إلى أمجد، ورسالة ورقية موضوعة أمامه، قدم لاجتماعهم أسعد كما جرت به العادة، قال:

– لقد توصل الأستاذ أمجد برسالة من الأستاذ المتقاعد (ويليام)؛ أبى إلى أن يقرأها عليكم، بدون أن يطلع عليها هو أولا؛ وفاء بعهد الصداقة، والزمالة، وبما كابدناه في رحلاتنا

بغواصتنا التي نفتخر بأدائها المتفرد، أو اغتبطنا بعمل انساني قمنا به؛ فلأمجد هذه الساعة؛ يبث كلمات الرسالة في آذاننا المتسمعة له بانتباه.

شرع أمجد في قراءة الرسالة؛ فتدفقت الكلمات من فاهه؛ رافعا بها صوته: «أرسل إليكم جميعا تحيتي من بعيد؛ أتخيل تحملها الرياح الغربية كما تنعتونها في بلاد مغرب الشمس؛ لأنها تهب من غربه؛ سائقة سُحبا متشبعة؛ ينزل منها مطرا؛ يُنبت زرعكم، ويُثمر أشجاركم، ويملأ ضرع ماشيتكم، وتحية ممزوجة بدموع؛ أبعث بها خاصة إلى أمجد ورائد وريم، أتمنى لكم التوفيق؛ فيما وُفقتم به، فالقيام بأفعال نبيلة؛ هي توفيق، والذي لم تتحدث نفسه بها، فلم يُوفق. عندي خبر يريحكم؛ يُطمئنكم؛ يزيد من حماسكم؛ يُشعركم بنجاح ساحق، هو أن رجال دائرة المباحث ألقت القبض على ذلك الجواهري، أو صائغ حلي الذي كنتم تبحثون عن مكانه، والصحف هنا في كندا دأبت منذ شهر على تتبع تعقب أثر الهارب مرة أخرى، أتصور سؤالا ستنطقون به جميعا، وهو: أين صُفِّد معصما (سيرجيون)؟ ستعجبون للمكان، ولإصرار هذا الشخص في الفرار من العدالة؛ فر إلى الشمال الغربي من كندا؛ إلى إقليم (ألبرتا)؛ إلى موطن القبيلة الهندية (سيكسيكا)، تعني هذه التسمية في لغتها (الأقدام السوداء)؛ مُعطيا لشخصه اسما آخر، وادعى لأفرادها بأنه أستاذ؛ يبحث في علم الأنترولوجيا، ويحاضر فيه بجامعات ومعاهد أوروبا، وقد قدم إلى جماعتهم البشرية، وفي إطار الاحتذاء بمنهج المشاركة؛

يتطلب تواجدَه بينهم لمدة طويلة قد تصل إلى سنوات؛ يُشاركهم في جميع ما يقومون به في حياتهم اليومية، زيادة على تعلم لغتهم، واستعمالها من طرفه بشكل مكثف؛ حتى يتخاطب بها معهم بطلاقة، ويكشف أصولها، وتتيح له التعمق في معرفة مجتمعهم؛ لكن رجال الشرطة السرية تتبعوا وطآت أقدامه؛ وإن في إخباركم بهذا؛ رغبة أُعتُملت في داخلي، ولِما لا، وقد رأيت كيف تحملتم مشقة التنقل في المسافة على الأقل هنا في كندا؛ ونظرت إليكم بإكبار، لأن عزيمتكم لم تهن إطلاقا، ولم تفقدوا الأمل؛ ولتعلموا آخر الأخبار، ولتروا نتيجة كدكم. إلى اللقاء يا من سعدت بمعرفتهم، وبجلوسهم معي بعض الوقت في بيتي؛ في الجزيرة».

قال أسعد مُثنيا على ويليام:

- إنه حقا إنسان ذو أخلاق حسنة، ظل متعلقا بماضيه معكم؛ الذي سعد بأوقاته.

نطق أمجد بالأمر الذي ما يزال عتمة تغشى الأذهان:

- إذن فقد ألقي القبض على سيرجيون، واستدعاء الشهود إجراء مرتقب.

وذلك ما حدث، فقد وصل صدى التحقيق في الأشياء المادية الجامدة، وفي أفعال الأشخاص؛ إلى فريق الغواصة؛ ذلك أن رائد، وبسام، وريم أُستدعوا للشهادة، وأدوها، ولم يكتموها، وهذا من شجاعتهم، ومروءتهم، وصدقهم، وثقتهم بأنفسهم، وكان الشق الصعب الذي استطاع المحققون التصدي له؛ هو استرجاع ما ذكر في الجرد الذي كتبه ميگيل

في الرسالة؛ سواء كان بعينه، أو ما طعمت به حلي، أو ذُوِّب لتشكيل قطع منها.

بعد سنة صدر الحكم النهائي؛ بعثت (مارتينا) بمنطوقه إلى جماعة أسعد؛ وضَّح ما يستدعي التنفيذ جبرا؛ منه حبس سيرجيون في سجن، لا يرى فيه أجمل ما في الدنيا وهي الشمس؛ مدى حياته، ومنه احتفاظ المغامرين؛ سواء الذي مات، أو الذي ما يزال حيا؛ بالكنز الذي عثروا عليه تحت الماء؛ لأن السفينة التي كان بها كانت غارقة في المياه الدولية، وليس في مياه إقليمية تابعة لسيادة دولة ما؛ الذي يتوجب التصريح به؛ باستثناء إذا كان الكنز المغمور بماء البحر؛ في سفينة تحمل علم إسبانيا، أو بريطانيا، أو فرنسا، أو أمريكا؛ أما في حالة سفينة كنز القاتل والمقتول؛ فإنه لم يتم التوصل ما إذا كانت تحمل علم دولة ما، وهي تُبحر في القرن السادس عشر؛ وغُلّبت نظرية تُفيد بأنها ربما كانت لجهاديين من شمال غرب إفريقيا؛ ضلوا عن ضبط موقعها؛ في أميال متوغلة من المحيط؛ بالنسبة لساحل إفريقيا الغربي، أو من قراصنة المحيط الأطلنتي؛ والتنفيذ هو تمكين ذوي تركة (ميگيل) من حصتهم من الكنز.

فكانت مارتينا قد عبرت بكلمات؛ أوحيت لها من أعماقها المتضعضعة؛ عن العرفان بالجميل من الأعمال؛ الذي قدمه إليها أفراد طاقم غواصة (أنقليس 1).

الفصل السادس عشر
سكان الأعماق

أ أي جهة من محيطات العالم؛ لم يقم أفراد جماعة أسعد برحلة إليها بغواصتهم؟ كانت تلك الجهة التي لم تحدد بعد؛ هي موضوع اجتماعهم، بعد ثلاثة أشهر من العودة من غرب البحر الأبيض المتوسط؛ من جزيرة (مالوركا)، وكانت كافية لاستراحة يسترجعون بها قوتهم، وتتجدد بها أذهانهم، ولمراجعة ذواتهم، ولتحديد أين أصابوا، وأين أخطأوا، وماذا كان عليهم أن يفعلوه في الذي لم يصيبوا فيه هدفا بنجاح، لم يكن المكلف بتعيين جهة من مسطح ما؛ يرونها مقصدا يليق بحرصهم على اكتساب معلومات جديدة، واستكشاف أشياء لا تخطر على البال أبدا، ومواجهة أحداث جسيمة؛ إلا رائدا، فلم يتطلب منه ذلك وقتا طويلا للبحث على الخريطة، فنطق بتلك الجهة قائلا:

– إنها جنوب المحيط الأطلنتي الشاسع جدا، والمتباعدة سواحله، فإنه يمتد من ساحل أستراليا؛ إلى الشرق منه، وإلى ساحل جنوب إفريقيا؛ إلى الشمال منه، وإلى ساحل أمريكا الجنوبية؛ إلى الغرب منه، وإلى ساحل (الأنتارتيكا)؛ إلى الجنوب منه؛ ماذا يا ترى يوجد في أعماقه؛ بعيدا كثيرا عن السواحل المعمورة، والمأهولة؟

قالت رهف مُتحمسة:

– ذلك ما نودُّه جميعا؛ ودوما.

قالت ريم رابطة الحاضر بالماضي:

- في سير القدماء في المسافة، وتنقلِهم في الأمكنة؛ يصادفون العجيب في الطبيعة، واختلافٍ في كيفية عيش الجماعات البشرية، وإلا لما دوَّنوا رحلاتهم؛ لتُطالَع في عصورها، أو تطالِعُها الأجيال القادمة.

قال أسعد؛ وقد ظهر من عينيه أنه لا يريد تضييع الوقت:

- اِستعدوا للغوص بعد أسبوع من التحضير؛ في رحلة إلى مياه جنوب المحيط الأطلنتي.

وفضوا الجمع؛ وسار كل واحد إلى مرقده؛ في ليلة ذلك الاجتماع؛ وذهنه يرسم الاتجاهات، والمسالك؛ ويتخيل الأمكنة بشتى الصور الجميلة، أو المرعبة. كانت أيام الأسبوع مملوءة باهتمامات، وأشغال ذلك التهيؤ؛ الذي لا يرحمهم إذا ما نسوا شيئا له أهمية في الرحلة، أو عملا فيه صيانة للآلات، وأجهزة الغواصة، والذي اعتادوا القيام به؛ للتأكد من اكتمال كل شيء، فإنهم يدعون غواصتهم تغطس؛ ذهابا وإيابا في طول ساحل شمال إفريقيا الغربي، مُمتحنين أنفسهم، وغواصتهم.

برمجوا خط الرحلة، ونقطَ طفو الغواصة؛ للتعبئة بالطاقة الشمسية، ومحطات الاستراحة في جزر ورؤوس جغرافية؛ مثل أقصى جزيرة في جنوب جزر الخالدات، وهي (الهيرو)، ورأس (نواذيبو)؛ في جنوب المغرب، وشرق موريطانيا، وجزيرة (بوافيستا)؛ إحدى جزر الرأس الأخضر، و(رأس النخيل) في (ليبيرا)، وجزيرة (أساسيون)، وجزيرة (القديسة هيلين)؛ منفى الإمبراطور الفرنسي (نابليون بونابارت؛ 1769م -1821م)؛

بعد الإطاحة به، وجزيرة (إيناكسيسيبل)؛ ما بعد هذه الأخيرة عُينت نقطة وصول، ومنها ستكون عودتهم.

الخط الذي تمخض عن هذه الجزر والرؤوس؛ طويل الأميال البحرية، وبالرغم منه، فإن أفراد الطاقم لم يثر فيهم أي رهبة، بالعكس فهم ألفوا الغوص، كما اعتادوا قطع مسافات المحيطات، واكتسبوا نفسا طويلا بذلك، و إذا ضمهم هيكل الغواصة؛ بعد مدة من النزول إلى البر، فكأنهم لم يبرحوه، ويُطلقونه في رحلاتهم في أقصى سرعة له؛ لأنه له توجيه ذاتي؛ بأجهزته الحساسة؛ فلا خوف عليهم، وهو سائر في الأعماق، وهم منصرفون إلى شؤون أخرى، ولا يعودون إليه إلا لدقائق تفقد فقط، وقد اجتازوا به آخر جزيرة في الرحلة، وهي (إيناكسيسيبل)، وذكَّرهم رائد بما يتطلب منهم أخذ الاحتياط في التوغل في أقصى جنوب المحيط الأطلنتي؛ قائلا:

– بعد الجزيرة ليس إلا مسافة سواء كانت طويلة أو قصيرة، باعتبار سرعة الغواصة؛ تفصلنا عن ساحل القارة (الأنتارتيكا) المتجمدة.

قال أسعد راسما خط غطس آخر:

– لا نسير أبعد من الجزيرة أكثر، ونتجه أفقيا بموزاة مع خط العرض، إلى الشرق، ثم نعود منه مُتجهين إلى الغرب.

وقد كادوا أن يقتربوا شرقا من سواحل أستراليا، ولم يصادفوا أي شيء مستقِر في الأعماق، وغيروا الاتجاه إلى الغرب، وسارت بهم الغواصة؛ متجاوزة بهم جزيرة (إيناكسيسيبل)؛ بميل بحري فقط؛ عندما استمر رنين في آذانهم؛ مُعلِما إياهم

بأن جسما معدنيا لا يبعد عنهم؛ إلا بأقل من ميل بمئات الأمتار؛ إلى جهتهم من اليسار؛ مُستقر في العمق؛ لا يتحرك؛ فنخسوا ما يوجه الغواصة قريبا منه، مُخوَّلٌ للكاميرات بأن تلتقط شكله؛ فما نقل إلى الشاشة استغربوا له، واستعظموه؛ لم يروا مثله قط؛ شكل مبهر؛ هو من تصور مستقبلي؛ قد يمتد عشرات الأعوام؛ حجرات في شكل أنابيب عملاقة؛ مُقوسة الجانبين؛ مُوزعة بشكل غير منتظم؛ منها ما هو في الأسفل، ومنها ما هو في الأعلى، تصل بينها ممرات واسعة، ولها نوافذ دائرية يشع منها ضوء يملأها؛ يظهر منها بشر؛ يتحرك؛ يمضي ذاهبا؛ أو آيبا؛ يتنقل بين غُرف؛ يرتقي في سلاليم؛ منه من يرتدي الأبيض، ومنه من يلبس الأزرق، ومنه من يغطي جسده بالأخضر؛ منه رجال؛ ونساء؛ وشباب، وكهول، وشيوخ؛ ترك أفراد غواصة (أنقليس 1) كاميرتين؛ واحدة اتجهت بعدستها إلى اليمين؛ إلى الطول الذي امتدت به الحجرات بعيدا، والأخرى اتجهت إلى الشمال؛ إلى نفس الطول؛ بعدد من الحجرات؛ تستقر جميعها على أرجل ثابتة في قعر المحيط؛ قال أمجد؛ ولم يُخف عجبه، وهو الباحث في تاريخ تكنولوجية الأعماق:

– إنها مستعمرة بشرية في أعماق جنوب المحيط الأطلنتي، انطلاقا مما شاهدته فإن عددهم يحصى بمئات الأفراد.

قالت ريم متسائلة، وقد بلغت دهشتُها مما رأته إلى أقصى حد؛ أفقدتها التركيز، وجردتها من أدواتها التحليلية، وتحديد طبيعة الأشياء، وهويتها:

– لماذا هؤلاء يسكنون أعماق البحر؛ حيث ظلماته، وهل توفروا على أجهزة توليد الأكسجين؛ الذي يُبقيهم أحياء، وبالعدد الكافي، وبالقُدرة المطلوبة، ومن أي نوع من المعدن هذا الذي يتحمل ضغط المياه العميقة؟

قالت رهف متهكمة:

– هل يتزاوجون فيما بينهم، وينجبون أجيالا منهم، وهم في الأعماق؟

ضحك الجميع، وكان من نطق عقبها هو بسام؛ قال:

– لا أظن أنهم يُنتجون مواليدا؛ لأن ذلك قد يتعدى طاقة الحجرات الاستعابية؛ إلا إذا قاموا بفعل واحد.

اِلتفتت إليه ريم؛ مندفعة برغبة معرفة ما سيقوله، وسألته:

– ما هو ذلك الفعل؟

أجاب هو بدون انفعال:

– أن يُنهوا حياة عدد ممن تجاوز عمرهم سنوات تُحدّد من طرفهم؛ بعدد المواليد:

اِنفجرت رهف في وجهه بغضب؛ رادعة إياه؛ قائلة:

– ما تقوله يا بسام فظيع، ولا يقبله الضمير البشري أبدا.

وزاد بسام من غيظها؛ قائلا:

– وأن يُكوّنوا فريقا من الإناث، لا دور لهن إلا أن أرحامهن أوعية لإنتاج الأجِنّة.

قالت له؛ وقد بلغ منها الاشمئزاز أي مبلغ؛ مما سمعته منه مرة أخرى:

- كفى يا بسام؛ ألهذا الحد أصبح الإنسان صناعة لبيئة مثل هذه؟

اِعتذر لها بسام، وقال:

- هذا من تأثير ما رأيته الآن.

قال أسعد مُهدِّئا من أعصاب رهف المتوثرة، والثائرة:

- لقد شطح الخيال ببسام بعيدا يا رهف؛ التزاوج، والتوالد؛ مكونان للأسرة؛ بين أفرادها حميمية تبني الفرد، وسبيل إلى اجتماعيته، ولا بد من علاقة تربطه بالآخر؛ أهو والده؛ أهي أمه؛ أهو جده؛ أهي جدته؛ أهو أخوه؛ أهي أخته؛ أهو عمه؛ أهو خاله؟ وهكذا نرتقي إلى الأسرة الكبيرة... إلى هوية الوطن.

قال رائد عائدا بهم إلى ما يظهر لهم على الشاشة:

- ماذا ترون أن نفعل؟ فهذا ما ظهر لنا الآن، وأثار إعجابنا، واستغرابنا، واستعظامنا.

قال أمجد بصرامة العالِم؛ المتحدي، الذي يأبى أن تمر الأشياء هكذا دون أن يتعمق فيها، خصوصا إذا كانت من المستقبليات، وإلا فإنه عالِم يموت؛ يغادر الدنيا في صمت:

- لن نستقبل اتجاه مغرب الشمس؛ إلا بعد أن نعرف لأي هدف بُنيت هذه المستعمرة في أعماق الماء، وبأي مواد خام؛ حتى تتحمل ضغط المياه، ولماذا صُممت بهذا الشكل، وما هي التكنولوجية الدقيقة التي تُولد لهم الأكسجين، وكم المدة التي يمكثون فيها، وعلى ماذا يتغذون، وما يلبسون، وما هي الأمراض التي يصابون بها، وما هي طبيعة العلاقة التي

تربطهم؛ هل هم متساوون في كل شيء، أم هناك من يستأثر بأشياء معينة، ويتسيد على الآخرين، وهكذا، فكثيرة هي الأسئلة التي تُطرح في حالة هذا المبنى الفولاذي.

طرحت ريم سؤالا، وقد استبد بعقلها هذا الشكل الهائل، والذين حشروا أنفسهم بين جُدره الحديدية:

- كيف يتسنى لنا الإجابة عن هذا السؤال؟

الذي أجاب عنه هو رائد؛ قال:

- بكيفية واحدة فقط.

اِلتفت إليه الآخرون خُرْسانا؛ إلا رهف سألته قائلة:

- إذا أتتك فكرة ما تكون ناجعة، فإن خيالك خصب.

قال رائد بدون تردد:

- ببساطة؛ يتسلل أحدنا إلى الداخل؛ مُشاركا هؤلاء في كل ما يقومون به في يومهم؛ ناقلا لنا ما رآه، وما سمعه، وما فعله معهم، وما أُمِر به، وما طُلب منه، وما سيواجهه من مصاعب، ومتاعب.

قال أسعد مُستهولا ما نطق به رائد:

- ما أقيم هذا السكن، ومرافقُه المنزلية، والإدارية، في أعماق المحيط؛ إلا وهو محاط بسرية، ولا يدخله أي شخص؛ إلا ربما بشروط.

قال أمجد، وقد توصل بعد تفكير طويل؛ إلى ما يمكن أن تكون له علاقة بما يتحدثون عليه:

- إما أن يكون مكانا للتجارب العلمية؛ لكل ما يتعلق بحياة الإنسان؛ تحمُّله مثلا العيش في محيط مائي مُظلم، وما

نوع الأشياء التي يمكن أن يتغذى عليها، أو لإنتاج مواد مستقبلية، أو قلعة تحتمائية لها حاكمها المطلق؛ لها عائد مالي مما يُنتج فيها فيُستثمر.

قال رائد مدافعا عن فكرته:

- إذن كيف يمكن أن نتوصل إلى معرفة كل هذا؛ لا بد أن يتطوع أحد منا.

قالت ريم دافعة الذين لم يتكلموا برأيهم الصريح؛ إلى قبول الفكرة:

- سيحاول الذي سيدخل إلى هذا المكان أن يواجه ما يعترضه، أو يتعرض له؛ بشجاعة، وأن يفلت بذكاء مما قد يؤذيه.

خطا أسعد إلى حجرة الاجتماعات؛ خافضا رأسه إلى الأرض؛ يفكر في المستقبل؛ فيما يمكن أن يحدث؛ وصل إلى حيث جلس، واتكأت جذوع الآخرين على ظهور الكراسي، وظلوا ينظرون إليه، ثم سمعوه يقول:

- لماذا سيُؤذى الزاحف منا إلى هذه العُلب الأسطوانية؟ لا بد من تحقيق معه، وفي الأخير هو فرد من فريق علمي؛ إذن من ستحثه نفسه القوية إلى القيام بالعملية؟

ظلت وجوههم مشدودة إلى أسعد، وصار هو يوزع نظراته عليها، وهيمن سكون على المكان، اخترقه صوت؛ بكلمات بضمير المتكلم؛ كانت هي:

- أنا من سيذهب إلى هناك.

أدار خمسة منهم عيونهم؛ لتقع على بسام؛ كان رافع الرأس؛ صارم الوجه؛ ابتسامة مكتومة قاسية؛ ممتد المنكبين، مندفع الصدر، يُطل عليهم بعُنق طويل صلد.

أطلق رائد على كتفه ضربات خفيفة؛ محمِّسة؛ ناعرة إياه:

– هذا الذي ستقوم به مغامرة بأحسن تعبير، وتُعد الوحيدة بذلك المستوى في رحلات الغواصة (أنقليس 1)، فماذا ستجده هناك، ويتطلب منك الكثير؟

قال أسعد بلامح جادة:

– اِبحثوا عن زميلكم عن ثغر في هذا المكان يدخل منه، أو كيفية ما، وهيئوا له ما يُمكنه من ذلك.

قال سريعا أمجد منطلقا مما درسه في تاريخ تكنولوجية الأعماق:

– الشيء الذي لا يقبل نقاشا أو شكا؛ أن لهذا السكن القابع في الأعماق مداخل مرحلية إليه؛ إحداها مخصصة لخروج الغطاسين، ورجوعهم منه، والأخرى لرسو الغواصات؛ بأشكال وأحجام مختلفة، وانطلاقها منها، وستتأكدون من من تصوري هذا فيما بعد.

قال رائد مُحسسا الآخرين بما يتطلبه الظرف:

– لا بد من التريث في اعطاء إشارة إلى بسام بالتحرك، إلا بعد فحص قمم هذه الإقامة المعدنية، وأسفلها، وجوانبها بحثا عن مداخلها. الطريقة الوحيدة، وتتطلب منا وقتا طويلا؛ هو جعل الكاميرات تُقرب إلينا كل جزء بمساحة أقل من متر؛ تتسع لغواص، وانتظار مغادرة غواصة، أو غطاس؛ أو مجموعة

من الغواصين للمكان، ونلاحظ بانتباه شديد كيف تتم العمليتان، ودراسة إمكانية دخول بسام انطلاقا منهما، ولا يغيب عن بالكم، أن هذا البناء الجسيم؛ مزود بكاميرات؛ هي تحد لنا.

امتدت بالفريق أيام أسبوع، وهم يدققون أنظارهم –وفي مناوبة بينهم– صفائح الأسطوانات المأهولة، وينتظرون مغادرة غطاس، أو غواصة لها؛ وقد اكتشفوا ثمانية مداخل؛ أربعة منها في كلي الجانبين؛ اِثنان منها مخصصان للغطاسين، والآخران للغواصات، وكان يوم شاهدوا فيه فتح مدخل، وخروج فريق من الغطاسين منه؛ قد يصل عدد أفراده إلى أربعين فردا؛ وتفرقوا، سائرين ببطء بموازاة مع الجدر المعدنية، يُمعِنون النظر في هذه بمكبرات يدوية؛ قال أمجد بدون أن يتطلب ما شاهده وقتا طويلا للتفكر:

– إنهم يفحصون الجدارات؛ ما إذا تعرضت لتصدع، أو خدش، أو تمزق، تحت قوة ضغط مياه الأعماق؛ أو تعرضت لاصطدام، وقد يقومون بصيانتها؛ إذا ما لاحظوا شيئا من ذلك؛ وإلا سيقع حادث كارثي.

قال بسام بنفس حَرونة:

– لأندسّ بينهم؛ فأكون واحدا منهم؛ وهم عائدين إلى الداخل؛ بعد انتهاء مهمتهم.

قالت رهف مُنبهة إياهم إلى أمر آخر:

– هذا الذي يقومون به غالبا ما يكون دوريا؛ فكم المدة التي يعودون بعدها للمعاينة؟

قالت ريم بانقباض في نفسها:

– إذن لننتظر أن يظهروا بعد مدة لا ندري كم تستغرق.

قال أسعد ناطقا بأشياء أخرى:

– لا بد أن تُطابق عُدة غطس بسام؛ عدة هؤلاء؛ فأنتم قد تابعتموهم وهم يعملون، فمن أي نوع هي؟

أجاب أمجد وكان قد قام من قبل؛ التقاط اللاصقات المبينة عليها علامة الشركة، واسمها:

– العدة من ثلاث شركات عالمية؛ ما نتوفر عليه، هو من اثنتين منها، وهذا لحسن حظنا.

قال أسعد باطمئنان:

– إذن ليُعِد بسام نفسه بإحداها.

لم ينتظروا إلا يومين فقط؛ ذلك أنهم رأوا من النوافذ الدائرية؛ ذات الزجاج السميك غير العادي؛ أفرادا يُزيلون عنهم ألبستهم الموحدة التصميم واللون، وهذا الأخير أزرق غامق، ويلبسون حُلات الغوص، ويتجهون إلى غرفة التعويم، ليخرجوا منها؛ مُتفرقين؛ هابطين إلى الأساسات العملاقة؛ التي تُشكل منصة السكن المحيطي؛ عددهم أكثر من ثلاثين فردا؛ حينئذ صاح أمجد؛ مُسمعا كلمات إلى رائد وريم؛ قال:

– اِتجهوا بزميلكم بغواصة الجِراب؛ إلى نقطة تُقربه من هذه المجموعة؛ يضرب في اتجاهها بزعانفه؛ مُتسللا بين أفرادها؛ ورأيي أن يعود دون الدخول؛ حتى في فرصة مقبلة؛ جسا للنبض؛ فقد يكون من يتجسس ما إذا كان هناك دُخلاء بحسبهم.

وجد بسام نفسه بين غطاسين؛ لا يتبادلون مع بعضهم البعض إشارات الغوص، ولا يصرف أي أحد، أو أي شيء عيونهم عن التحديق في كل جزء من سنتيميتر مربع، من معدن ما يرفع السكن الضخم؛ باحثين عن أي عيب يُصيبه، فإذا تهاونوا في ذلك؛ سينهار تحت ثقل لا يُقدر وزنه أي أحد، كان يختلس النظرات إليهم؛ إلى ملامحهم؛ إلى عيونهم، إلى حركاتهم؛ إلى أجسادهم المغلفة، وهو لم تنظر إليه أي عيون، إلا غطاسا؛ كان قريبا منه؛ كان يقيس بجهاز إلكتروني سمك صباغة المعدن؛ ليرى الأمكنة التي ضعُف فيها الطلاء الواقي من الأكسدة؛ نظر إليه بعينين؛ لاحظ بسام أنهما واسعتين؛ وبشرة خدي صاحبهما ناعمة، واحتوى نظره شكل جسده؛ فما وعى به هو أنه لأنثى، رآها تقترب منه، وهي ماضية في الدنو منه؛ حتى لم يبق بينه وبينها إلا مترا؛ رفعت يديها تتواصل معه بهما بالإشارات؛ ما فهم من إحداها هو أنها قالت له بأنها أدركت بأنه غريب عن السكن، وأنه غاص من بعيد، وسترى ما الذي أتى به؛ فإذا كان سعيه نبيلا ستساعده.

اِنبهر بسام لإكتشافه السريع من طرف هذه الغطاسة، ولاحظ من حركاتها، وتحركها في اتجاهه؛ ذكاءَها، وأنها كتومة، فأشار لها بأنه عنصر من جماعة لا تهدف إلا إلى الفضيلة، وأنه لن يرافق فريقها في رجوعه، وأنه سيكون مستعدا لذلك في المرة المقبلة؛ كانت قد رفعت يديها بحركتين فقط؛ هي أنها

ستنتظره، وهو بينهم، وأنها ستصحبه إلى الداخل بدون عوائق.

وقفل بسام راجعا إلى الغواصة الصغيرة، وفي الغواصة الأم حدّث أصدقاءه بأنه التقى من بين جماعة الغطاسين على امرأة؛ وقد وعدته بأنها ستُقدم له يد المساعدة فيما قدم من أجله، وأنها ستصحبه إلى الداخل في المرة القادمة.

قال أسعد بابتسامة هم خفيفة:

– فقد يصادفك، وأنت في غم مما قد لا يتحقق لك؛ مَنْ تُقضى حوائجُك على يديه، وهذه المرأة ظهرت في طريق بسام؛ هي الممهدة له سبيل دخوله، وقد يعرف أشياء كثيرة عن طريقها.

واستعد بسام بشجاعة؛ زادت منها تلك المرأة الغاطسة؛ مُستغلا الفرصة الذهبية التي ستسنح له، ليجد نفسه بين أفراد مجتمع سكان الأعماق؛ فيعرف الكثير عنهم.

الفصل السابع عشر

اِبنة عالم

ظ ظل باسم يطرح أسئلة في نفسه؛ تخص تلك المرأة؛ مثل: من أي قارة قدمت إلى هذا السكن الفولاذي؟ ولماذا هي فرد من مجتمعه؟ هل لها غرض من ذلك، أم هي مرغمة على أن تمكث فيه؛ لدوافع شخص آخر؛ لتسخيرها للقيام بعمل ما؛ أو بنوع منه بالذات؟ وكم سنها؟ هل لها مستوى دراسي؟ هل هي فرد من أسرة؟ قال؛ وهو يختلي بنفسه؛ مُحدثا إياها «ستصلني الإجابة عن هذه الأسئلة؛ سواء ستتكلم بها هي، أو أكتشفها بنفسي».

في مساء اليوم الخامس من المدة التي مضت على وجوده بين غواصي حجرات قاع المحيط؛ نقلت له الشاشة، ولأفراد الجماعة خروج مجموعة أخرى من مراقبي خارج السكن؛ يصل عددهم إلى عشرين فردا؛ هذه المرة اتجهوا إلى المخارج المرحلية؛ التي تتحرك أبوابها هيدروليكيا في الاتجاهين المعاكسين عند فتحها، وتلتحمان مع بعضها البعض عند غلقها، فنُقِل بسام بالغواصة إلى النقطة التي سيضرب انطلاقا منها زعنفتيه؛ ليدس بنفسه بين صائني الأبواب، ولم يميز لأول وهلة ما إذا كانت من بينهم الغطاسة، وصار ينظر في أي اتجاه؛ حتى ظهرت له؛ تنساب في اتجاهه مُتظاهرة بأنها ماضية في عملها؛ حتى اقتربت منه، وتواصلت معه بالإشارات؛ فهم منها أنها جهزته للمغامرة؛ بتوفير لباس له باللون الخاص بالذين يعملون على الجُدُر الخارجية، وغرفة مبيت تجمعه مع

أحد آخر سيتعرف عليه؛ ويُخصّص له سرير بها، وقد انتهت المجموعة من المهمة، واتجه أفرادها إلى الولوج إلى الداخل، فكان بسام من الداخلين، ؛ تتقدمه المرأة؛ بخطى ثابتة، وبقد رشيق مندفع دائما إلى الأمام، وما يزال لم ير منها فقط إلا شعرها المنسدل على رقبتها، ولم تمض به طويلا في ممرات تصل بين الحجرات المتسعة جدا، والضخمة؛ وتنقسم كل واحدة منها إلى حجرات أصغر؛ اتجهت به إلى إحداها؛ دخلتها، وبسّام يتبعها؛ وأوصدت الباب؛ بحيث لا يسمعها أي أحد، وقالت لشخص مستلق على سريره:

– لم أر في هذا الذي لا نعرف من أين قدِم إلى هنا، ولأي هدف؛ إلا شخصا ذا أخلاق حسنة، واستبشرت بمعرفتنا به، وها أنت ترى أننا أضفنا إلينا فردا آخر؛ مُكوّنين جماعة ستأخذ على عاتقها ما نُخطط له.

تفوهت بهذا، وأدارت وجهها إلى الباب؛ تريد الاِنصراف؛ فنظر بسام إلى وجه فتاة؛ في سن الشباب، قدر عمرها في الخامسة والعشرين؛ صافية الأديم؛ يفترّ ثغرها عن ابتسامة خفيفة؛ وراءها مسؤولية عظيمة، سرعان ما تنكتم من حين لآخر؛ وراء ملامح صارمة؛ كأن الفتاة في عجلة من أمرها؛ إلى فعل لا تريد أن تتركه للزمن يطول به.

شكرها بسام فحسب، وهو لم يفهم طبعا؛ ما تعني بأنه أضيف عُنصرا تتكون به جماعة مُناطة بمهمة، وبات ليلته، لم يتبادل فيها كلاما مع الذي اشترك معه حجرته، وقد أدرك بأن هي التي ستُطلعه على كل شيء؛ وسيعرف من ذلك

لماذا يسرت له الدخول؛ إلى حد شعر كأنه مقيم قديم، فلم يجد أي صعوبة في ذلك، ولم يكن ينتظر أن تحقيق ذلك سيكون بهذه السهولة؛ إذن فليستعد إلى ما ستُحدِّثه به تلك المرأة؛ قال في نفسه: «سأقوم بكل ما تطلبه مني... أقول تطلبه مني؛ فإني لست هنا لأتلقى الأوامر؛ إذا لم يكن ما أعمله يزيغ عن المعقول، وعن الصواب، ولا يكون نشازا؛ ولا من الأعمال المشكوك فيها، فإذا وجدت نفسي فاعلا من قريب أو بعيد في الغير المشروع، أغادر المكان بعجلة؛ بدون نظرة أخيرة إليه».

هل هناك فضاء واسع بما فيه الكفاية؛ يُطلق فيه سكان الأعماق سيقانهم؛ تريُّضا، أو تمشِّيا، أو يجتمعون فيه إلى بعضهم البعض؛ خائضين في مواضيع مهمة، أو راوِين لنوادر، ولعجائب من الأحداث، والأشياء، أو مُنكِّتين؟ نعم؛ وهو الذي، وفي صباح اليوم التالي؛ عينت المرأة وقتا لبسام ليلتقي بها فيه؛ يكون قبل حلول المساء بساعتين، وقد ذهب إلى هناك؛ ما شاهده هو مساحة واسعة؛ يقف فيه، أو يجلس على كرسي من ينفرد بنفسه، أو اثنان من القادمين إليه، أو ثلاثة، أو أربعة، وممرات تمتد بين جزر من نباتات؛ قصيرة، أو متوسطة الطول، يسقط عليها رذاذ من ماء يُنفث من أنابيب نحاسية؛ يسير فيها المتجولون إلى دكاكين؛ تُعرض فيها أشياء كثيرة؛ للتجمّل، والتأنّق، والتحلّي، والتزيّن، والتأثيث، والانتعال؛ وإلى كابينات زجاجية؛ فيها ما تعْجب له العيون، وما تهواه الأفئدة، وما يُفتِّق العقل، وما يُضيف من معلومات

مهمة، وتُحِّرك الشغف؛ هي متاحف لوسائل الغوص قديمة، ومُجسمات من آلات وأجهزة، وأدوات؛ مُتصورة لمستقبل العيش في أعماق البحار والمحيطات؛ وصُورٍ لكائنات بحرية غريبة في الشكل؛ اِكتشفها علماء سكن الأعماق، لكن السؤال الذي تحدث به بسام إلى نفسه هو: «وما وراء هذا كله؛ هل يُسعد، أو يُطمئن، أو يُستنكر؛ أو يُشجب؟».

فأينما وُجد الإنسان؛ أُستُغِلّت الطبيعة بجور، وتعارضت المواقف، والوسائل، والأهداف، وتشابكت السبل، وتصادمت الأفكار؛ وكثرت المُحاجات، والنقاشات؛ فالانجرار إلى التعارك، والتنازل، والإقصاءات، ونظر بسام إلى جمع من الناس بتأمُّل باطني، وتفكر في الأحوال التي يكونون فيها، قال بينه وبين نفسه: «كم تختلف رغبات هؤلاء، وتتعدد، وتذهب بهم مذاهب متنافرة؛ مختلفة الاتجاهات، فمنهم الأناني، والشحيح، والجشع، ولا ذرة إنسانية في قلبه، ومن ينظر إلا إلى الأمام، ولا يلتفت إلى ما أحدثه من دمار بشري، ومنهم من لا تقبل نفسه التي طَهرت ذلك، وقد يقاوم شرور هؤلاء»، ولم يُرجعه من شرود ذهنه؛ إلا صوت امرأة داهم أذنيه؛ سمعها تقول:

- إلى أين يسرح بك خيالك؟

اِلتفت وراءه؛ ليجد نفسه وجها لوجه مع مُشجِّعته، وممهِّدة طريقه؛ قال لها:

- إنها لحظات الاِستسلام للفكر.

دعته إلى مكان بعيد عن الناس؛ به كرسيان متقابلان؛ بينهما مائدة؛ جلسا عليهما؛ قالت هي بنبرة حادة تستعجل الكلمات:

– لا أطيل الجلوس معك، وإن كان التصنت هنا من طرف رجال مُكلفون مدسوسون شَطَط، فإن الإمعان في نظرات المجتمعين، واكتشاف ما يرتسم من علامات على وجوههم؛ كاف لإعطائهم فكرة عما يتحدثون فيه، وينافي النظام العام، فيُفض جمعُهم، ويُقادون للتحقيق؛ سأحكي عليك قصة قدومي إلى هنا؛ مُختصرة إلى حد ما؛ مُبيِّنة فيها الأسباب التي دفعتني إلى ذلك، والذي أعمل كل ما في جهدي منذ ذلك الحين إلى الآن لتحقيقه؛ ولهذا بداية وهي التي أقول فيها بأن أسرة تتكون من أربعة أفراد؛ رب البيت دكتوراه في العلوم الفيزيائية؛ يُحاضر بجامعات بلده، وبأخرى في دول أجنبية؛ ما يشغله في حياته محاضراته التي يُحضرها، وتأليف كتبه، وقضائه لكل ما يحتاجه بيتُه؛ من ضروريات الحياة، وزوجته لا تعمل؛ مُتفرغة لشؤون البيت، وابنته البالغة من العمر آنذاك تسعة عشر عاما؛ طالبة بالجامعة؛ تدرس علم الكيمياء، وابن سنه خمسة عشر عاما؛ يدرس العلوم بالمرحلة الثانوية؛ تمضي بهم السنوات؛ كل في مساره؛ بهدوء، وسكينة، وتبصّر، وصبر، وصمت؛ لا مضيعة للوقت في ثرثرة، أو في خصومة، أو في لِجاج، أو في لقاءات تورط، أو اغتياب، أو تجسس، أو همز، أو لمز، وإن كان تزاور بينهم وبين آخرين؛ فهو لا يأخذ منهم وقتا طويلا، وفي مختصر منهم في الكلام، ولا هذر فيه، ولم

يُخف صاحب البيت؛ عالم الفيزياء؛ دعوة تلقاها في أحد الأعوام من مجلس ما؛ يعمل تحت توجيه ومراقبة الدولة؛ عن زوجته وابنيه، ولم يكتم عنهم ما تضمنته؛ قال لهم بأن مشروع بحث واختبار؛ لا شبيه له بالأغراض المعروفة بها مشاريع تلبية حاجيات المجتمع؛ في القطاعات المألوف الصدح بها في الإعلام؛ في الفلاحة، وفي الصناعة، وفي السياحة، وفي تطوير الإدارة؛ هو مستقبلي في الهدف منه؛ وسيلته بناء عالم تحت سطح المحيط؛ تعيش فيه جماعة من البشر؛ يُتصور لها علميا حياة متوازنة في تلبية حاجاتها، وفي تعامل أفرادها فيما بينهم؛ لا نشاز، ولا انزلاق، ولا استضعاف لبعضهم البعض، ولا قهر فيما بينهم، ودراسة ما يتمخض عن وجودهم في ذلك العالم المنعزل عن العالم الخارجي، وما يُفرِزه، والوقوف على ما يطرحه من مشاكل في كل شيء، والتغلب عليها، ومجابهتها بالتوصل إلى حلول لها؛ أو إلى طرق، ومناهج، وكيفيات، ووسائل تطويع، وتكيّف؛ حتى إذا اقتضى الأمر اتباع اختيار من أثبت قوته، وجدارته، وتحمله الملحمي للمصاعب، والتحديات التي تنتج عن سكنى الأعماق، فيُدمج في إقامة الأعماق تلك، فإن لم يستطع، فبائس مهمش، فبحال سكن تحت سطح الماء هذا، وواقعه، يحتاج إلى علماء ضليعين في العلوم الكونية؛ يُستعان بهم، بل يكونون حجر الزاوية في التصور المستقبلي له، فكان واحدا من هؤلاء وقع الاختيار عليه، كما وقع على آخرين، وقد استجاب لتلك الدعوة؛ لا يدري هل باختيارِه أم مجبرٍ عليها، والذي لم يعلم به هو،

وبالتالي كان مفتقرا لما يُعلم به زوجته، وابنيه؛ وهو في أي نقطة؛ من إحداثيتي الطول والعرض؛ من محيطات العالم؛ يقام فيه اختبار، واستكشاف عالم آخر، لا يُتخيل، ولا يَقدر آخرون على إنشائه، لأن الوقت لم يحن لهم، ولأنهم لم يتقدموا بما يكفي ليصلوا إلى تلك المرحلة المتقدمة في حضارة الإنسان، لا بد أن تُكتَسب مهارات، وتداريب، والحذاقة، والتفكير الصائب، والثقة التامة في نتائج العلم، والتجارب التي يرتكز عليها؛ فلا تصل أخبار منه إلى أسرته إلا ما هو مختصر في كلمات؛ مثل: (الصحة في عافية)، و(اشتياق إلى اللقاء)، و(عمل ميسر)، وهو عنصر؛ لا تحاسدا بينه وبين آخر، ولا يتباغض مع أحد، ولا تنافسا بينهما، ولا وشايات بأحد؛ إنه يُؤثر السلام؛ فلا خوف عنه. إلا أن رياحا هبت؛ عاصِفة بالذي اندمج به في ذلك الوسط؛ وبتفكير في أن مختبر ومعمل ماء القعر؛ لا يُختبر فيهما، ولا يُستخلص منهما إلا ما يفي بما يؤهل للحياة؛ لمدة طويلة في أعماق البحار والمحيطات، وكل مسطح مائي طبيعي، فما الذي حدث؟ في إحدى ليالي شتاء باردة؛ ممطرةٌ غيوم سمائها؛ هوجاءٌ رياحها؛ كنت جالسة إلى مكتبي؛ مُركِّزة بفكري في درس في الحاسوب، وفي ورق كتاب؛ سمعت دقا على الباب، قمت بتلقائية الاستجابة له؛ كان من فتحت له الباب رجلا كهلا؛ يضع على رأسه قبعة؛ كانت مبللة عن آخرها؛ يرتدي معطفا أزرق اللون، وسروالا أسود سميك الثوب، لم تبدُ لي ملامحُه جيدا، للظلام، والمطر الغزير، والريح المتسارعة إلى أطراف

قبعته، وياقته؛ أحسست بأنه أحد عمال البحر؛ أخرج من جيبه ورقة، أعطاها إلي، ودار إلى شارع رجوعه، فلم يكن لينتظر أن أسأله من هو، وما موضوع الورقة، ومن بعث بها إلي؛ عُدت إلى تحت مصباح حيز العمل، وبسطت الورقة، وكانت من مِزق ورق التغليف الأصفر اللون، وشرعت أقرأ ما كُتب عليها بخط ردئ، ومُضطرب الحروف، كان في اليدين اللتين خطته ارتعاش؛ لا أستطيع التعبير على ما وقع لي بعد الانتهاء من الكلمات والجمل التي اختصرت واقعا شاقا؛ مزريا؛ ولم يكن حلما، وستعرف مدى تأثير ذلك على نفسي، عندما أنطق بها عليك الآن، وقد حفَّظتْها لي مرارةُ ما ذكر؛ كان نصها هو: «في هذا اليوم العشرين؛ من شهر فبراير؛ من هذه السنة؛ أحييك ابنتي؛ يا مهجة قلبي؛ يا أحن الناس علي؛ أراك في خيالي أنك تبتهجين بأبيك، تفتخرين به؛ تتمثلين به نموذجا لك في الحياة؛ إنه غَرَف من العلوم الكونية بما جد، وسهر الليالي؛ حتى ارتقى إلى مصاف العلماء القليلين؛ المفكرين بتفرغ فيما ينفع البشرية، ويوجهها إلى الطريق الصحيح، والسليم، والحامي، والمحقق لطمأنينة النفس، وراحة الضمير؛ لهذا دُعي والدك لغرض العلم النافع، والبحث عما يحقق للبشرية ما ذكرته من قبل، وليس لأهداف أخرى، إلا أن وأمام عدم قدرة إشراف الدولة على تسيير مختبر الأعماق لإكراهات مالية، وبتوجيه منها؛ إلى الرسالة الإنسانية النبيلة؛ بيع في مزاد في قاعة؛ ومن تزايد في شرائه إلا عددا يُعدون على رؤوس الأصابع؛ من أصحاب

الأموال الكثيرة، والثراء، ولم يكن من الحاضرين إلا هم، والحاسم بين المتزايدين، وممثل الدولة، والموثقين لانتقال الملكية من المؤسسة العامة، والمالك الجديد الخاص، فكانت المصيبة الكبرى؛ فماذا تنتظرين يا وحيدتي من هذا الخط الجديد الذي سيسير فيه مكان المستقبليات ذاك، والغرض المحدد له مسبقا؟ لم يصر في حوزة غني إلا ليزداد غنى، فانقلب كل شيء، ولم يكن الظن في الأول أن يذهب بعيدا؛ كان حَسَنا بالممتلِك الجديد، ولم نع بأننا أصبحنا مُسخرين في إنجاز أشياء لا يتجلى فيها العلم النظيف، الهادف إلى الحلول الإنسانية، وإنما تطوير مواد، ومركّبات، وأجزاء بالغة الدقة، وبرامج معلوماتية ذكية، لن تفطن إلى أنها موجهة لهدفين؛ الأول أنها تدخل في تركيب أجهزة، وأدوات يُتحكم بها في تحولات الإنسان، وفي توجيهه، وفي إحداث تمفصل في تفكيره، وفي ترويضه، وفي تطويعه، وأسوء من هذا؛ في إبادة جماعات منه، والثاني أن كل الوسائل التي بدونها لا نظام حركة في كوكب الكرة الأرضية، ولا في غزو كواكب أخرى، والزحف على الفضاء الكوني؛ هي مرهونة بهذا الذي هو في منتهى الدقة؛ بل مجهرية، لا تراه العين المجردة، والذي يبحث فيه العلماء، ويُطورونه، ويخترعون تقنيته، ليس في أي مكان آخر إلا في هذا الذي يقبع في قاع المحيط؛ لا يعلم به العالم؛ أترين يا ابنتي إلى أي حد يصنع الثراء ثراء؟ لم أقبل أن أعمل في هذا النظام غير مُدركَة مراحله في أول وهلة؛ فامتنعت عن إنجاز أي بحث نظري، أو تطبيقي في المخابر، وقلت لهم بألا

مكان لي بينهم، وإذا كانت فيهم ذرة إحساس بالإنسانية أن يخلوا سبيلي، ويمهدوا لي طريقي إلى العودة إلى العالم الذي أتيت منه؛ قالوا لي بأن لن يكون لي يوم في حياتي بذلك، فالقادم، أو المستقدم إلى هنا تكون نهايته في مكان مخالف بالمرة عن الأمكنة التي يحن إليها، وتُعيده إلى حياته الأولى التي خُلق لها؛ وإلا سيشاع على سطح الماء، وعلى سطح البر العالمي، ما يجري هنا؛ فتكون الخسارة كارثية؛ فحملوني في مُصفّح؛ من موقعه -والذي يوجد ما بين خط طول 6 درجات، و67 دقيقة؛ غرب خط كرينيتش، وخط عرض 39 درجة، و59 دقيقة؛ جنوب خط الاستواء- لا أعرف إلى أين، حتى وجدت نفسي في مِحبس؛ حيطانه طبقات الأرض الجيولوجية؛ في أعلاه منفذ لهواء الداخل، وفي بابه الحديدي فتحة يؤتى إليك منها بالماء والطعام، وحاولت أن أعرف في أي مكان من الكرة الأرضية أنا مسجون، فلم أتوفر على أي وسيلة، أو أداة، فوظفت أذناي لذلك، وحاولت التقاط الأصوات الدالة على محيط المكان، فلم أظفر بأي من ذلك؛ أما عد أيامي فيه، فإنني أخذت حجرا، وبدأت أرسم لكل يوم شرطة عمودية، ولما عددتها كان مجموعها أكثر من سنتين بشهرين، بعدها بدأت أتبادل بعض الكلمات مع الذي تظهر لي يداه من الفتحة؛ مُقدما لي مستلزمات بقائي حيا؛ سألته في إحدى المرات قائلا: «في أي بلاد هذا السجن؟»، أجابني قائلا: «في طرحك لهذا السؤال وسماع أذني إليه فيهما حتفي، فلا تكرره سلامة لي، ولك»، ومرت شهور،

تشجعت بعدها في التكلم بطلب إلى راويني ومُطعِمي، ففي وقت لم أعد أسمع هسيس العالم الذي كان يأتيني من بعيد، وأظنه كان وقت الليل، رأيت ساقيه قد مرتا، ثم سمعت صوت خطوات يرجع بهما، فناديت عليه بصوت لا يذهب أبعد منه؛ استجاب لي، واقترب من الفتحة، فكانت فرصة قلت له فيها، بأنني أطلب منه أن يحمل ورقة مني إلى عالم البشر الخارجي؛ سألني بخوف: «من يضمن حياتي بعدها؟»؛ لم أجبه؛ وفزعت لسؤاله؛ سمعته يتكلم فيقول لي: «اِنتظرني في المرة القادمة»، واختفت ساقاه من أمام عيني الكبيرة، وهي الفتحة الضيقة؛ التي أنظر منها مسافة من دهليز مُعتم طيلة الوقت؛ إلى اليمين، وإلى الشِّمال؛ أتاني بورق وقلم، ورمى إلي في نفس الوقت بصحن من الألمنيوم قديم؛ مُنحلّ معدنه؛ مما يقدم فيه الأكل لسجناء آخرين؛ إذا كان هناك سجناء مثلي في ذلك المحبس؛ قائلا: «شكل لها ظرفا من هذا؛ لا يتعدى طوله عشرة سنتيمترات؛ يستدعي منك طيها وحدات من الطيات»، وانجلى من أمام عيني؛ كتبت هذه الرسالة التي تقرئينها، وانتزعت من الصخر قطعة، شظيت جوانبها بأخرى، حتى صارت حادة، فقصصت بها الألمنيون، مُشكلا حافظة معدنية؛ طويت فيها الرسالة، ودققت جوانبها عليها، وانتظرت ذا الوجه والجذع المجهولين؛ فأتى موعد مجيئه، وسلمني الماء والطعام؛ بسرعة تلقف من يدي الرسالة المصفحة، واختفت به ساقاه؛ لا أدري هل ستصل إليك، أم لا؟ تريثي في إبلاغ أمك وأخيك بهذا؛ فأنت أقوى منهم في

الشدائد، وأصلبهم في المواقف الصعبة، وكتومة لما لا ينبغي الإسرار به، ولا يصح الجهر به، وتَزِيين الأمور بميزان العقل، والتريث في اتخاذ القرارات من شيمك، وهذا اسمك، وعنوان البيت، بـ(كوالالبور)؛ عاصمة بلدنا (ماليزيا)؛ على ظهر الرسالة؛ لتصلك إليك مباشرة؛ بدون أن تضيع؛ لا أدري ما إذا سنلتقي أم لا؟». اِنتهت الرسالة هنا بخط يده، وتحت نصها كتابة أخرى بخط مختلف، قرأت كلماتها، وهي: «حامل الرسالة هو البحار الذي تغيبه السفن في البحار والمحيطات؛ ذو الفلجة في أسنانه الأمامية؛ تُزين ابتسامته الدائمة»؛ ما إن قرأت هذه السطور الأخيرة؛ حتى بت ليلتي لا يغمض لي جفن؛ منتظرة شروق الشمس، ما إن أضيئت الدنيا؛ حتى قصدت الميناء؛ وجدت البحارة يقصفون في مقاهي الأرصفة، ويُفطرون في مطاعمها، اِتجهت إلى أحد مقدمي المغليات، والوجبات؛ سألته عن بحار يركب السفن التي تخوض أمواج الفصول، ذو الفلجة من سنيه، فدلّني عليه؛ كان بين البحارة وعمال الميناء؛ أشرت إليه من بعيد؛ اختطفتني عيناه، وقام بتثاقل حكيم، وخطا نحوي ببطء، قال لي بأن المكان غير آمن لي؛ وأضاف ناطقا: «هيا تقدمي إلى الأمام»، وساقني إلى مركب صغير؛ أشار إلي بالدخول إلى كابينته، وفي هذه جلس إلى لوح رسم خطوط الإبحار، وظللت أنا واقفة؛ قال لي: «إن أسئلتك التي تدور الآن في ذهنك، وهي: من الذي سلمني الرسالة، وهي بدون حافظتها المعدنية؟ وأين؟ وهل يمكن معرفة مكان حبس والدك انطلاقا

من الإجابة عنها؟ ليس لدي ما أقوله لك إلا أن السفينة كانت سائرة بقوة؛ تمهد لنفسها، ولنا إبحارها بين الأمواج؛ كنت قابضا بعجلة توجيه دفتها؛ محافظا على اتجاهها الذي رُسِم لها على خريطة الخطوط؛ كان الانطلاق من أحد موانئ الأرجنتين، والوصول إلى (بيرت)؛ عاصمة غرب أستراليا، ورافعا إلى عيني المنظار ذي العدستين؛ من حين لآخر؛ ضابطا الرؤية إلى الأمام؛ فكثيرة هي سفن الشحن العملاقة، والسفن السياحية، والسفن الحربية تُبحر في المحيط؛ فما قرَّبه إلى ناظري هو قطعة خشبية سميكة تطفو؛ تعلو بها قمم الأمواج، وتهبط بها؛ حتى تختفي عن تتبعي لها، فحاولت أن أقرب هيكل السفينة منها؛ بحيث أمرت أحد العمال بالتقافها من بين الأمواج، وقد فعل ذلك، كان ما وضعه على سطح السفينة؛ هو تلك القطعة؛ مربوط إليها بحبل بلاستيكي وبإحكام قنينة مُربّى مغلقة بغطائها؛ في داخلها وعاء مربع من الألمنيوم؛ مدقوقة عليه جوانبه بشدة، أخرجته من الزجاجة، ورميته في جيبي؛ دون أن أظل أفحصه أمام العامل، ومن يدري؟ لعل له بالغ الأهمية بالنسبة لفرد ما أو جماعة، أو له خطورة على شخص ما، ولم أكشف المعدن عما بداخله إلا في الكابينة؛ أخرجت من صفائحه ورقة مطوية طيات كثيرة؛ أول ما التقطته عيناي هو العنوان المكتوب على الظهر، فقلت في نفسي هذا أحسن، وقرأت الصفحة المملوءة عن آخرها، فأدركت إلى أي حد أن كاتبها في بلاء من سجن؛ زُج فيه ظُلما وقهرا، فقررت أن أوصلها إلى المرسل

إليه، ليعلم آخر أخباره، ويعمل كل ما في جهده لإيجاد مخرج لهذا السجين، والذي سعيت إليه من أجل ذلك، هو أنني طلبت من مدير شركة النقل البحري، أن يكلفني بقيادة إحدى السفن؛ سالكا بها الخط الملاحي المؤدي إلى (كوالالمبور)، وقد استجاب لي، فكان وصولي إلى مينائها منذ يومين، وكان مجيئي إليك في مساء يخفيني عن العيون المتلهفة ألسنة أصحابها إلى الثرثرة على الموائد. سألته قائلة: ما هي إحداثيات النقطة التي كان اللوح طافيا فيها، أجابني قائلا: عند خط طول 21 درجة، و8 دقائق غربا، وخط عرض 39 درجة، و47 دقيقة جنوبا، سألته انطلاقا من ذلك؛ قائلة: ماهي أقرب يابسة من هذه النقطة؟ أجابني قائلا: ثلاث جزر في وسط جنوب المحيط الأطلنتي. سألته للمرة الثالثة: ألا يكون تيار بحري حمله من هذه الجزر، أجابني سريعا: قطعا سيكون هناك تيار مائي، لكن لا أدري ما إذا ابتعد به من هذه الجزر، أم لا؛ سكت ثم قال: السبيل الوحيد الذي يمكن أن تسلكينه لمعرفة مكان حبس والدك هو السكن المحيطي؛ ففيه تكون تقارير موثقة بذلك، سألته قائلة: ولكن كيف أدخل إلى هذا الذي يستقر في عمق الماء، نظر جانبا مُتذكرا شيئا، وقال: في إحداثيتي نقطة تواجده؛ كنت دائما أرى سفينة كبيرة تتوقف مدة أسبوع على سطح الماء الذي يقبع مباشرة تحتها، آتية من الشرق من موانئ أستراليا، ومن الغرب من موانئ أمريكا الجنوبية؛ أراها من وقت لآخر في هذه الموانئ؛ عندما أقود السفينة إليها، أو عائدا منها؛ ولا

أحسب إلا أنها تابعة له؛ مُسخرة من طرف إدارته لأغراض ما. أطرح عليه السؤال دائما، فأقول: ألا تكون هذه السفينة وسيلة تُمكّنني من الدخول إليه؟ أجابني بعد لحظات تفكير: أمهليني مدة أفكر فيها؛ في كيفية تنجحين بها؛ قلت له: إني مُمتنة لك، وإليك شكر من دخيلتي، وإني أنتظرك، وها أنت مطلع على الحال؛ قال ناظرا إلي بعطف؛ متأملة نفسه: ثقي بي، فإني لن أتوانى في ذلك. بعد أسبوعين تقريبا؛ أرسل إلي أحدا لم ينطق إلا بأن ذا الفلجة؛ صنديد البحار والمحيطات؛ يريدني في الحال، وبأنه الآن بمكتبه بالسفينة، فلم أمهل نفسي دقيقة واحدة، وحثثت خطواتي إليه؛ استقبلني بوجه صبوح متفائل؛ يبث السعادة والطمأنينية في النفس، ويطرد الغم، والحزن؛ أشار إلي بالجلوس على أريكة من خشب ملمع الطلاء، وقال لي؛ ودائما تُظهر ابتسامته فلجته: جمعنا جمع من قباطنة العالم، حيث طُرحت مواضيع كثيرة للنقاش حول الملاحة في أعالي البحار، وكان من الحاضرين فيه طبعا قائد سفينة سُكنى عمق المحيط، فانفردت به في وقت من أوقات الاستراحة؛ في ركن بحيث لا يسمعنا أي أحد، وتكلمت معه حولك، فقال لي موافقا: «في سفينتي الكثير من العمل، والغالب فيه هو التنظيف والصيانة، فلها شغل عندنا، وأنني الآن أرسو بميناء مدينة (بيرت) الأسترالية؛ فلتسافر إلى هناك فإني سأكون في انتظارها». بعد انفضاض اللقاء؛ بعد أسبوع؛ شكرته، وما عليكِ الآن إلى أن تُجهّزي نفسك، وتتهيئي للمهمة التي كلَّفت نفسك بها؛ أنا لدي وسيلة

سفرك إلى استراليا؛ فهي سفينتي؛ سأدير مقدمتها بعد ثلاثة أيام إلى ساحل أستراليا الغربي. عملت في السفينة صاقلة لقضبانها النحاسية، ومُلمِّعة لخشبها المُورنش، ومنظفة لمحركاتها، والذي اكتشفته أن في حضن السفينة في الطبقة الأسفل منها حوض يفتح على سطح البحر مباشرة، تعجب عندما أقول لك، بأنه مرفأ لغواصة تتسع لأربعين شخصا؛ تتراجع لها دفتان أوتوماتيكيا جانبا، فتغوص إلى عمق الماء؛ مُتجهة إلى حجرات العمق. كانت قد رست بنا السفينة في ميناء بالأرجنتين، وحدث أن اصطدم غاطسها في الليل بجسم غريب، ورجح القبطان أنه صندوق حديدي مُنفلت من إحدى سفن الشحن العملاقة، واجتمع معنا قائلا: يتطلب منا فحص قعر السفينة من الخارج، ولا يُنجِز هذه المهمة إلا غطاسين، وليس للسفينة إلا اثنين، فلابد من غواصين آخرين؛ فإما أن يكون بيننا من هو متدرب على الغطس، أو نُدرب آخرين عليه»؛ تقدمت منه وقلت له بشجاعة: «إني أرغب في التدرب على الغطس؛ كانت هذه أمنيتي منذ يفاعتي، ولكن لم تسنح لي الفرصة»، وكنت من المتدربين، وأثبت سرعة تمريني عليه، فشكل منا القبطان فريقا؛ وغصنا مدة ثلاثة أيام ونحن نفحص كل سنتسميتر مربع من الغاطس، واكتشفنا خدوشا، وتمزقات قد ينفذ منها الماء إلى القعر، فأُصلحت، ورُمِّم الفولاذ، وعادت السفينة في إبحارها التراقصي بين الشرق والغرب، وفي أحد الأيام نادى علي القبطان، وقال لي بأنني ما دمت أبنت عن جدارتي في

الغطس؛ فلي عمل في الحجرات المغمورة بماء المحيط؛ فانتقلت إلى العمل بها، وها أنذا غطاسة من فريق فحص خارجه، وصيانته. أما الذي شاركك في حجرة المبيت فهو مهندس التلحيم، وهو من كان ضمن الذين لحموا أجزاء هذه الحجرات، وهي ما تزال في بر إحدى جزر أرخبيبل (فولكلاند)؛ التي تقع إلى الجنوب الشرقي من (الأرجنتين)، ثم عُوّمت، وقُطِرت إلى هذه النقطة، وتُرِكت تستقر في العمق، ولماذا هو عنصر في جماعتنا؟ فلأن له أخت عالمة في النمذجة الهندسية، ونمذجة تغيرات المناخ؛ استقدمها معه إلى هنا ليعملا؛ لظروف عويصة كانا يعيشانها بعد وفاة والدهما وأمهما. هو استمر في مراقبة مواضع التلحيم لأنه من بين الذين عملوا فيها، وهي كُلِّفت بأبحاث في تخصصها العلمي، ولكن هي أيضا لما اكتشفت إزاغة المؤسسة عن الهدف الأول؛ اِمتنعت امتناعا عن مواصلة عملها، فسُجنت هي كذلك في مكان يجهله أخوها؛ فأمرهما بالنسبة لنا سواء، ومصدر نعرف منه المكانين هو ملفات التقارير الإلكترونية التي حُررت بفصول عقوبتهما؛ هذا الذي رويته لك عرفتَ منه ما لأجله بُنيت قطع وصفائح هذا الفولاذ في الأول؛ ثم كيف تحول إلى منشأة خاصة، وكيف تحولت أهدافها، وما مصير من امتنع عن العمل كعنصر في المنظومة العامة؛ كقطعة غيار في حركة دائرية، فمنك فعل يشُدُّ بعضدنا، ففكر في الطرق، والمنافذ، والوسائل؛ التي توصِلنا إلى مكاني المحبوسين.

نطق بسام للغطاسة بكامل استعداده للوقوف إلى جانبهما.

الفصل الثامن عشر

كلمة المرور

كانت أول خطوة قام بها بسام من جانبه؛ لتمتين العلاقة بينه وبين الغواصة ومهندس التلحيم، ويكون هناك تقارب ثقة، والذود عن بعضهما البعض؛ هي أن يعرف اسميهما، ففي المناداة بهما؛ عاطفة صداقة صلبة تجمعهم؛ فأخبراه بهما، اسمها هي (فِردوس)، وهو من بلاد الأرجنتين؛ اسمه (ماتياس)، وقال لهما هو بأنه من أحد بلدان غرب البحر الأبيض المتوسط؛ أو من بلاد مغرب الشمس، وبأن اسمه (بسام). اجتمع الثلاثة في ساعة مُتأخرة من إحدى الليالي، والجميع نيام؛ إلا القليل منهم، ولا يحظر العملاء تجمعا بين فردين أو أكثر؛ في أي ركن، واستبار غور النفوس لاستكشاف النوايا؛ يكون عن طريق النظر المُدقِّق في العيون، فكانت لهم ملامح يُبدلونها في الحين، فلم يُقتنصوا، وكان ما تبادلوا فيه الأفكار، والتفكير فيما ينجحون به؛ هو مكان السجينين؛ قال بسام العارف بمستغلقات الأنظمة الإلكترونية:

– ولا ولوج إلى الأنظمة الإلكترونية إلا بكلمات المرور، وهذه لا يحتفِظ بها إلا المكلفين باستخدامها، وعددهم قليل؛ لا يتعدى ثلاثة أفراد.

قالت (فردوس):

-إذن لا بد من الحصول على كلمات المرور، وفي أقرب وقت، فطوله لا يكون في مصلحتنا؛ بل يؤدي بنا إلى الهلاك، إذا ما اكتُشف أمرنا.

قال (ماتياس)، وكان قد فكر من قبل في طريقة، وهو يأخذ الموضوع باهتمام شديد، لأنه يعرف جيدا بأن لا أحد غيره يهتم بتحرير أخته:

– أنا من سأهتدي إلى كلمات المرور.

نظر بسام، و(فردوس) سريعا في وجه ماتياس؛ قال لهم بثقة:

– مواضع لحام تتطلب مراقبة بالحاسوب؛ طيلة يوم بنهاره وليله، وطيلة أيام الأسبوع؛ دون أن يُغفل، أو يُتغافل، أو يُستغفل عن التحديق فيه.

قالت (فردوس)، وهي ما تزال تفكر فيما نطق به (ماتياس):

– فهمت ما السبيل إلى كلمات المرور، فأنت الخبير في مدى تماسك القطع باللحام، ولا أحدا يناقشك في ذلك، وتحتاج لكلمة المرور؛ لمراقبة ما هو مصيري في الهياكل الأسطوانية، ولا بد من تزويدك بها.

قال (ماتياس) بتيقن بالطريق الذي رسمه له:

– سترون إلى أي حد سأُقنعهم، فلا مناص من وضع كاميرات في الزوايا التي تُراقِب بها أركان المواضع التي تتحمل ثقل سكن المحيط، والتي قد تكون مهددة بالانحلال، فالانهيار التام؛ إذا لم يُنبه إليها في الحين، وتُصان بسرعة.

قال له بسام مُشجعا إياه:

- فأنت يا (ماتياس) الآن هو أملنا جميعا، ولا ننتظر منك إلا أن تنجح.

قال (ماتياس) مُتابعا الحديث عن الخطة:

- إذا ما حصلت على كلمة الولوج إلى قاعدة المعطيات، وإلى الأرشيف الإلكتروني، فإني سأعبِّئ جهاز التخزين الدقيق بما يهمنا من معلومات، ووثائق مصورة لتقارير، وقرارات حول المحبوسين.

قالت فردوس مُحفِّزة ماتياس:

- إنه هدف لا تخطئه يا ماتياس، فقُم، ولا تتراجع، ولا تضطرب، وازحف بجرأة على الحجرة التي بها الحواسيب الموصودة.

وتركتهما فردوس؛ متوجهة إلى غرفتها، وهي تسأل في نفسها قائلة: «كم من الوقت يتطلبه قيام ماتياس بعمليته؟».

حرر ماتياس تقريرا بالخطر الذي قد يحدق بالذي يسكنه الإنسان، وهو في عمق الماء، وأمضاه بصفته مهندس التلحيم الذي عمل في تركيب صفائحه باللحام وهو ما يزال في البر، وكيف أشرف على قياسات قصها، وتشكيلها، وإمساك بعضها ببعض؛ بتقنية، وبشكل، وبهندسة؛ تجعله مقاوما لضغط ماء المحيط، وكان من الفريق الذين حضروا كيميائيا مخلوط مادة اللحام؛ تقاوم بشكل كبير تأثيرات مياه الأعماق، والأصباغ التي تحمي المعدن من التأكسُد، ويقاوم بها الأملاح، وذكر في التقرير الوسائل التي يكون في أمس الحاجة إليها. تلقى مجلس المؤسسة التنفيذي التقرير، ودرس

ما ورد فيه مما قد يحدث من تفكك للحجرات المعدنية؛ يتسبب لها في التلاشي قِطعا؛ والحاجة إلى فحص مراكز التماسك، ببرامج فحص اللحام، والأصبغة؛ بصور مكبرة إلى حد الغور في كثافة الأول، وكشط عينات من الثانية، ونقل تكبيرها بالميكروسكوب إلى الحواسيب للوقوف على أمد صلاحيتها، والرجوع من حين لآخر إلى أرشيف بناء السكن المعدني، وكان ما قرره أعضاء ذلك المجلس، هو إصدار توصية، بتمكين مهندس اللحام من جميع البرامج المعلوماتية ليؤدي مهامه على أحسن وجه، فيكون (ماتياس) قد اخترق نظام المنشأة المحيطية المعلوماتي، وقد حرر فعلا تقريرا بحصيلة من الأجزاء التي تتطلب تجديد طبقة لحامها، وإعادة طليها بصباغة عالية فعالية موادها الواقية، ومادام لم يقم بذلك إلا بتزويده بكلمات المرور إلى البرامج التي ساعدته، والتي استخدم إحداها في الولوج إلى وثائق تأديب الممتنعين عن أداء مهامهم التي كُلفوا بها؛ المُؤرشفة إلكترونيا، وحمّل بها جهازَ تخزين، فزف الخبر إلى صديقيه بسام وفردوس، فسُر جميعهم؛ قال لهم بسام طلق الوجه مُستبشرهما:

– لا أترككما في دوامة هم كبير، لا تخرجان منها، وهو كيف الخروج من هنا؟ ما علينا إلا أن نغادر هذا المكان الموحش بالأفعال المشبوهة؛ في فريق من غطاسي المراقبة الخارجية، والصيانة، فلا نرجع أبدا، ستعرفون كيف سيكون ذلك في حينه.

نظروا إليه بحيرة، مبهورين؛ لا تستقيم لهما أسئلة يطرحونها عليه، وليُخرجهم من الحالة التي استبدت بهما؛ طرح عليهما سؤالا؛ قال:

- ألم تسألا نفسيكما في إحدى المرات من أين قدمت؟

قالت فردوس باحثة في ذاكرتها:

- لا... لم أطرح عليك أي سؤال أعرف من إجابته من أين جئتَ.

وقال ماتياس متيقنا:

- ولا أنا.

قال بابتسامة الظافر:

- لا عليكما؛ اِستعدوا فقط للضرب بالزعانف إلى الأمام؛ مُبتعدين عن هذا المكان المصفح، وسيكون فرجُنا على أيد بيضاء.

وقد أتى اليوم المبرمج لخروج فريق الغطاسين إلى الماء؛ المغمورة فيه الحجرات المعدنية، وتوزع أفراده على كامل الهيكل؛ لا يصرفهم أي شيء، أو أي أحد على فحص الصفائح، إلا ثلاثة منهم، فإنهم انسلوا من بينهم، وانسابوا في عتمة الأعماق كثعابين الماء؛ لتتلقفهم غواصة؛ كان يقودها كل من رائد ورهف؛ قال لهما بسام مُعجِّلا إياهما على الوصول سريعا إلى الغواصة الأم:

- لا أسئلة تطرحانها بخصوص هذين الشخصين، فقد نطقا بتحيتين، فَرُدّا بمثلهما، وكفى؛ ستتعرفان عليهما فيما بعد.

لم يكن كل من ماتياس وفردوس؛ ليُحركا لسانيهما بكلمات يعبران بها بما شد عيونهما، وهو داخل الغواصة (أنقليس 1)، وبما شعرا به؛ ما ظهر على وجهيهما هو الإعجاب بالشكل الذي صُمم بها هيكلها، وبما هُيِّئت به من أجهزة جد متقدمة في تكنولوجيتها، وبما جُهِّزت به من آلات إلكترونية جد حساسة؛ كانت من أسعد إشارة ترحاب بهما؛ بأن يكونا مع أفراد الطاقم مُجتمعين بهم في القاعة الخاصة بذلك؛ كان بسام قد شرع في تقديمهما إليهم؛ وراويا لهم في نفس الوقت ما الذي أتى بهما إلى سكن المحيط، وما السبب في دعوة والد فردوس، وأخت ماتياس؛ إلى العمل به، وما حدث لهما بعد تغيير جذري في الغرض منه؛ بعد تحويله إلى مؤسسة حرة؛ مُبينا لهم ذلك بتفصيل دقيق، وقال في الأخير؛ شاعرا بابتهاج؛ بنجاحه في المهمة التي أرسلوه للقيام بها:

– هذا ما كنتم تريدون معرفته؛ عما يجري في هذه الحجرات الأسطوانية المعدنية؛ رابطة بينها ممرات، وهذا أب فردوس، وأخت ماتياس مسجونان في مكانين يجهلانهما، وهما الآن في حوزتهما جهاز معبأ بموقعهما؛ في أي جهة من العالم يوجدان؛ وهما يلتمسان منا مساعدتهما على تحرير السجينين.

قال أسعد بسكينة العلماء، وبروية في التفكير، وبتأمل عميق فيما وقع:

– سنعمل كل ما في جهدنا، وبما نتوفر عليه من إمكانيات لتحقيق ذلك الهدف، وإن لم يسعفنا ما أحضرتماه معكما، سنضطر إلى العودة إلى السكن المحيطي؛ للبحث عن أي

معلومة تقودنا إلى المسجونين، وإن تطلب منا مجابهة المتحكمين في تسييره.

أوصلوا الجهاز المعبأ بالحاسوب؛ والذي كُلِّف بالبحث عن الملفين هو بسام، وصار يبحث بالاسمين، وامتد به هذا العمل مدة من عشرات الدقائق، ولم يعثر على وثائقهما؛ نظروا إلى بعضهم البعض بذهول تام، وكانت الخيبة قد اكتسحت وجهي ماتياس وفردوس، قال أمجد مُستخلصا مما لاحظه:

– لم تكن تُعطى لمن التحقوا بذلك المكان المصفح أسماؤهم الحقيقية؛ كانوا في الغالب يُسجلون أرقاما؛ الواحد منهم بحسب القائمين عليه رقم لا غير؛ ما حاجتهم إلى أسماء لا تعبر عن الشخصية الحقيقية؛ العميقة، للمُسمّى، ولا إلى معرفة أنساب بالية؟ السؤال هو: ما هما رقمي المُغيّبين في الأرشيف الإلكتروني؟

اِحتوى حجرة الاجتماعات صمت من الجميع، وسكنت حركاتهم، وطأطأوا رؤوسهم، وذهبت بهم مسالك التفكير أبعد مما يتصوره إنسان؛ فجأة دق على آذانهم صوت؛ كانت التي نطقت هي فردوس؛ قالت، وذاكرتها ما تزال تلتقط الصور، والأقوال:

– أتذكّر فعلا اكتفوا به عند تسجيلي غطاسة عندهم، وسؤال واحد فقط وجهوه إلي.

اتجهت إليها الأنظار راغبة في سماع ما ستقوله؛ صامتون أصحابها إلا ماتياس؛ سألها سريعا؛ مُرهقا بالتفكير في الذي لا يظهر في الأخير مُكتملا:

– ما الذي استقوْهُ منك لتسجيل ما يُكوّن هويتك، وما السؤال الذي طرحوه عليك؛ أسرعي؛ فإني أكاد أن أفقد أملي في الحياة، وهو استرجاع أختي الوحيدة؛ فرد مما تبقى من الأسرة.

قالت؛ وقد عاد قليل من الدم ينطبع لونه على ملمحها، وابتسامة منهكة؛ ما تزال تجهل ما سيحدث في المستقبل القريب:

– قاسوا طولي وكتفي، وسألوني عن تاريخ ازديادي.

قال سريعا عقبها ماتياس بانفعال عاطفي:

– حتى أنا؛ نعم؛ قاسوا طولي، وعرض كتفي؛ وسألوني عن تاريخ ازديادي.

قال أمجد واثقا مما استنتجه:

– هذه مُكونات رقم طويل؛ يَخُص شخصا واحدا فقط، ولا يتداخل مع رقم آخر؛ إنه أمثل مُعطى يُبحث به عن ملفات الأشخاص سريعا في برامج البحث الإلكترونية.

قال رائد سائقا الجميع إلى الانتقال إلى المرحلة التالية:

– يبقى الذي لا بد أن تكون معطياته صحيحة؛ هو ما طول قامة، وعرض كتف، وسنة ازدياد والد فردوس، وأخت ماتياس؟

أجاب ماتياس يتعجل دوره في العملية الحاسمة:

– طول قامة أختي متر واحد وستون سنتميترا تقريبا، أما عرض كتفها فإني أقدره من طول كتف فردوس، وسنة ميلادها 1985م، فهي أكبر مني بسنتين.

قاسوا عرض كتف فردوس؛ وجدوا طوله يصل إلى 38 سنتيمرا؛ فقال ماتياس بأن طول كتف أخته يتجاوز هذا بقليل، فقدروه في 40 سنتيمترا.

قالت فردوس مُتذكرة قياسِي أبيها وسنة ازدياده:

– طول والدي يصل إلى مائة وسبعين سنتيميترا، أما عرض كتفه فإني أقدره من عرض كتف أستاذنا أسعد، فهى أقصر منه، وسنة ميلاده 1959م.

قاسوا عرض كتف الأستاذ أسعد وجدوه يصل إلى خمسين سنتيمترا، فقدروا طول عرض كتف والد فردوس في خمسة وأربعين سنتيمترا.

فحرروا بطاقتين بذلك:

– في التي تخص والد فردوس؛ كتبوا مايلي:

+ طول القامة: 170 سنتيمترا.

+ عرض الكتف: 45 سنتيمترا

+ سنة الميلاد: 1959 ميلادية

فكونوا من هذا؛ الرقم التالي: 195945170.

– في التي تخص أخت ماتياس؛ كتبوا ما يلي:

+ طول القامة: 160 سنتيمترا.

+ عرض الكتف: 40 سنتيمترا.

+ سنة الميلاد 1985 ميلادية.

فكونوا من هذا؛ الرقم التالي: 198540160.

فصار بسام يبحث إلكترونيا عن الملفين بهذين الرقمين، فلم يفلح مرة أخرى، وأطلت الرؤوس الحيرى؛ بأعناقها التي تصلبت امتدادا؛ على شاشة الحاسوب، فما تقاطرت على الصفحة هي أرقام هُويات أشخاص تتالت بترتيب رقمي، ولكن ليس بالأرقام العربية وحدها، ففي الجزء الأول منها من اليسار أرقام رومانية؛ سريعا قال لهم أسعد، وقد انتبه جيدا لذلك:

– إنهم يرقنون سنوات الميلاد بالأرقام الرومانية، وما يتلوها إلى اليمين بالأرقام العربية.

والتفت إلى رهف التي كان أمامها حاسوب صغير:

– حوِّلوا سنتي ميلاد والد فردوس، وأخت ماتياس إلى الأرقام الرومانية؛ بالبرنامج الخاص بذلك.

أدخلت سنة ميلاد أخت ماتياس وهو 1985 في حقل التحويل، فظهر رقم روماني هو: MCMLXXXV.

فكتب رائد هوية أخت ماتياس الرقمية؛ على الشكل التالي: MCMLXXXV40160.

وأدخلت رهف سنة ميلاد والد فردوس وهو 1959 في حقل التحويل، فظهر رقم روماني هو: MCMLIX.

فكتب رائد هوية أب فِردوس الرقمية؛ على الشكل التالي: MCMLIX45170.

فيكون قد توفر لديهم ما يبحثون به؛ على ما يرجون بكامل ميل في قلوبهم؛ في أن يجدوه، وقد تصدى بسام مرة أخرى

على إدخال ما ركّبوه من أجزاء من الرقمين، في حقل البحث، فكانت بطاقاتان قد ظهرتا؛ موشومتين بخطين أحمرين؛ في زاويتيهما في اليسار، لا يعنيان إلا بأن تم التشطيب على صاحبيهما؛ وليس فيهما إلا رسمين بهيئة الإنسان العامة؛ سُطر عليهما بأربعة خطوط مستقيمة؛ اثنان عموديان يشيران إلى الطول، واثنان يشيران إلى عرضي الكتفين، ورقمي الهويتين، وكُتِب في أسفلهما بالأحمر جملة؛ هي نفسها في كلي البطاقتين؛ هي: (المكان الأخير)؛ أمامها بعد نقطتين: كلمة (الإحداثيات)؛ أمام هذه بعد نقطتين أيضا الأرقام بالدرجات، والدقائق؛ وبرمزي الاتجاهين الجغرافيين بالنسبة لخطي الطول والعرض؛ أدخل بسام إحداثية والد فردوس؛ إلى حقل البحث بالخريطة الإلكترونية؛ أشار سريعا إلى جزيرة (نايتينگال)؛ في الشمال من السكن المغمور؛ بمئات الأميال البحرية، وأدخل إحداثية أخت (ماتياس)؛ تمخض عن البحث الإلكتروني جزيرة (ماريون)؛ في الجنوب من إفريقيا؛ بمئات الأميال البحرية، وهي واحدة مما تسمى بجزر (الأمير إدوارد).

قال أسعد مُنتقلا بالجميع إلى ما يتوجب العمل به:

– بعد أن اهتدينا إلى الجزيرتين اللتين فيهما السجينان؛ لا مفر من معرفة طبغرافيتهما انطلاقا من صورة الأقمار الاصطناعية، لترتسما في أذهاننا، ونعرف مُسبقا إلى أين نحن ذاهبون، وما الممرات المتاحة لنا لسلوكها، وإذا ما حاولنا التقاط ما يظهر من شكله أنه بناية محبس، والذي سيَعرض

علينا الصُّور، ويحلل لنا طبغرافيتها هو رائد الذي درس جغرافية الأرض العامة.

أظهر لهم رائد صورتي الجزيرتين في جانبين من الشاشة أولا، ثم حولهما إلى خريطتين بخطوط تساوي الارتفاعات في الجانبين الآخرين، ما أوضحه لهم هو ما نطق به قائلا:

- يُغطي الجزيرتين غطاء نباتي؛ يختلف في الكثافة بينهما، وتتوزع عليهما قمم صخرية، أو تتوسطها واحدة عالية؛ جميع شواطئها صخرية وعرة، ولم يظهر لنا انطلاقا من الصورتين على الأقل أن لهما شواطئ رملية؛ خط الساحل في جزيرة (ناتينكال) عال، وفي جزيرة (ماريون) منخفض؛ في الأولى مسارات يسلكها الإنسان، تنعدم في الثانية تقريبا، أو لا تظهر لنا بوضوح؛ تتجلى أنشطة الإنسان في وجود محطة أبحاث في (ماريون)؛ لا ندري المجال الذي يُبحث فيه، ومرسى؛ في جزيرة (ناتينكال) أشكال من بيوت لا ندري أهي مسكونة، أم لا؛ في خريطتي خطوط تساوي الارتفاع نلاحظ في جزيرة ماريون؛ أقصى ارتفاع فيها يوجد في وسطها، وأدنى ارتفاع في أراضيها المحاذية لماء المحيط، في جزيرة ناتينكال نلاحظ قمتين تقتسمان الجزيرة؛ تنحدر ارتفاعاتها إلى وسط الجزيرة، وإلى سواحلها؛ السمة الغالبة هي أنهما خاليتان من نشاط إنساني غالب، يمكن أن نقول إنهما مهجورتان إلى حد ما.

قال أمجد مُستنتجا:

– إذن فلا وجود لعدد كبير من الناس في هاتين الجزيرتين؛ أو غير مسكونتين؛ هل هذا يساعدنا في عملية تحرير السجينين؟

قالت ريم مجيبة على السؤال:

– طبعا، فمن حبسهما في هذه الجزيرة، يعرف جيدا أن لا وجود للناس بهما؛ بعدد ما؛ قد يطلع أحد منهم على ما يجري فيهما، وإذا قضى السجين نحبه فيها، لا يعلم به إلا حارس السجن، ومن يطبخ له ما يتقوت به؛ تستمر به حياة يتعجلها الضُّعف، ثم الانهيار.

قال أسعد مُطمئنا لحصاد جغرافية الجزيرتين:

– ما أطلعنا عليه رائد، وتبين لنا نحن منه الطريق الواضح؛ يدفعنا إلى الانطلاق إلى الجزيرتين بحماس؛ نبدأ أولا بتحرير أخت ماتياس؛ لأننا لا نعرف في أي وضع هي محبوسة، ويستحيل علينا إيجاد مصدر بذلك، أما والد فردوس؛ يظهر من الرسالة الطافية أنه وجد له مستأنسا له؛ يُطعمه، ويرويه دوريا، وهو حارس السجن، فهو في مستوى وضع نعلم به.

كانت لحظات صمت فيها أسعد، وهو يُعد كلمات لا رجعة فيها؛ حيث قال:

– وجهوا الغواصة إلى جزيرة (ماريون)، وليأخذ كل واحد منكم حيز تحكمه في الجهاز الموكول به، ولتكن اليقظة الطريقة الرئيسة لنجاح الرحلة.

أدخل بسام إحداثيتي جزيرة ماريون في البرمجة الإلكترونية، فأخذت الغواصة وجهتها إليها، وسرَّع أمجد المراوح الدافعة إلى

حد أن قطع المسافة لا يطول كثيرا، ومضى رائد يقرأ طقوس ما فوق سطح المحيط، الذي تُسرع تحته الغواصة، وكيف سيكون عليه طيلة شهر في الجزيرة، ويدرس ملاءمتَه لهم عندما ينزلون فيها، وكانت ريم تفحص جسدي فردوس وماتياس، تلاحظ ما إذا أصيبا بأمراض وهم في ذلك السكن المحصورة أجواؤه، وبيئته؛ أما رهف فإنها ما تزال تحدق في تفاصيل صورة الجزيرة الجوية، وخريطتها، وتقرأ ما كُتب عنها، وستمُد الجماعة بمعلومات عنها؛ تساعدهم في مهمتهم.

الفصل التاسع عشر
سجينة جزيرة (ماريون)

لم يبق بينهم وبين ساحل جزيرة ماريون الغربي إلا أقل من ميل بحري فقط، فرأى أسعد أن يكون اقترابهم منها ببطء، واستطلاع متريث فيه لما قد يجري في شواطئها، وبالأخص في مرساها الوحيد ربما، الذي يُتيح للسفن الرسو به، ودخول الإنسان إليها، ودعاهم إلى الاجتماع؛ قال لهم:

- لم يظهر على الصورة الملتقطة بواسطة الأقمار الاصطناعية بناء؛ يمكن أن نُخمن أنه السجن، وأمام هذا الإشكال؛ فإن هناك طريقة وحيدة يمكن أن نستكشف بها مكانه؛ وهي مراقبة مرسى الجزيرة، لمعرفة لأي غرض ترسو فيه السفن، أو القوارب، ولأي شُغل أو هدف ينزل فيها القادمون إليها، وهل في كل هذا علاقة بالسجن؟ فإذا كان أحد يقصد السجن أو يغادره لشأن ما، أو يحمل فرد أو فرقة إليه حاجيات له؛ فعملنا هو التتبع من بعيد، والتعقب عن قرب.

قال أمجد وقد فكر في عملية نزول إلى الجزيرة؛ فيها كيفية السيطرة على الممرات المؤدية إلى نواح عديدة منها؛ يكون في إحداها السجن:

- نُكوّن فرقتين؛ واحدة لتعقب الخطوات، والثانية تسير بموازاة الأُخرى تنبهها إلى الخطر، وتقوم بتتبع الأقدام السالكة للممرات من بعيد، وتستكشف الجهة الأُخرى من السجن.

قال أسعد مُوافقا:

- المجموعة (أ) والتي ستتكلف بتعقب النازلين إلى الجزيرة؛ تتكون من أمجد، وبسام، وريم التي لها عمل مواز وهو فحص صحة أخت ماتياس عند العثور عليها، والمجموعة (ب) الموازية، وتُغذي الأولى بالحماية، والزحف بثقة وشجاعة؛ تتكون من رائد، وماتياس، وفردوس.

قال أسعد محفزا المجموعتين على الانطلاق إلى إنجاز العملية:

- خُلُوّ الجزيرة إلا من القليل من القادمين إليها لأغراض سنعرفها؛ وانعدام أنشطة كثيفة منها يُنبئاني بأن للسجن حيطان غير مُعيقة لكم، وإن كانت له حواجز خارجية، فهي أسلاك أو قضبان مهملة، وهاوية إلى أسفل، فكل شيء يُهدده القِدم؛ بمرور السنوات، وخصوصا في مثل هذه الجزر البعيدة جدا في وسط الجنوب الغربي من المحيط الهندي، فستنجحون في تحرير السجينة؛ فتجهزوا بكل ما يلزمكم، وليكن استطلاع محيطكم وأنتم تتحركون فيه بانتباه شديد؛ قبل أن تتقدموا بالخطوات.

عملان قاما به أفراد المجموعتين، الأول هو أنهم ارتدوا ألبستهم من الثوب، لأن الغواصة البرمائية ستجد لها شاطئا مُنخفضا؛ مساحته محدودة تلفظهم عليه؛ قريبا من المرسى، وسيحملون معهم عدة الغوص؛ سيُخبئونها في مكان قريب من الشاطئ؛ إذا ما طرأ عليهم حدث، فإنهم سيغوصون في الأعماق مُبتعدين عن الجزيرة؛ حتى لا يُكتشفون، وعما يُهدد حياتهم.

كانت أجساد المجموعة (أ) منبطحة على الأرض باختفاء، رافعة فقط عيونها إلى هناك، إلى المرسى؛ لا تفلت عن تتبع حركة الآتين إليه؛ متجهين إلى داخل الجزيرة، والمغادرين له؛ كانت قلة فيهم لا يتعدى عددها العشرين؛ الذي شاهده أفرادها هو أن السفن لا تدنو من الشاطئ الصخري في الغالب، والقوارب هي التي تنفلت من بين الأمواج؛ حاملة البضائع والناس، وكان أفراد المجموعة (ب) قد توغلت إلى حد ما داخل الجزيرة، بحيث لا يغيب عنهم الاتجاه الذي ستسير فيه عناصر الأولى، وكان الذي التقطته عيون هؤلاء الأخيرين اليَقِظة، والمنتبهة جيدا في جميع الاتجاهات، هو دراجة بأربعة عجلات؛ تجر وراءها عربة حديدية قد حُمِّلت بما أُنزِل من قارب؛ برز من جانب سفينة راسية في عُرض البحر؛ يقودها شخص يرتدي لباس العمل بلون رمادي، ويقي رأسه بقبعة بنفس اللون؛ لا يُسرع بها؛ كان يُبطِّئ عجلاتها الضخمة في ممرات ضيقة؛ تغزوها الأعشاب، فتبِعوها من بعيد، وكان صوت محركها الذي يضِجّ لمسافة يُخمِد ما تُحدثه أقدامهم من وقع، وكانت عناصر المجموعة (ب)، قد رأت الدراجة القادمة، ومُتعقِّبيها، وطال مسلك سائق الدراجة؛ وبرغم ذلك قاومت المجموعتان المشي في صخر سطح بري خشن، ومُتشظ؛ مورفولوجيته جبلية؛ قال أمجد مُشجعا رفيقيه:

– هذه فرصة قد لا تتكرر؛ فالمكان الذي يتجه إليه هذا الناقل لما تحمله العربة؛ لن يكون إلا لفريق يقوم بمهمة في الجزيرة، أو يكون السجن، فتجلدوا حتى نجني الثمرة المرجوة.

وقال رائد في الجهة الأخرى لعنصري مجموعته؛ مُتعمقا في فهم ما يجري:

– هذا الذي ترونه هو حركة تنقل في الجزيرة دورية؛ تكاد أن تكون وحيدة، لعمل أساسي ومحوري يحافظ على السير العادي للجزيرة، فأبشروا؛ هي طريقنا إلى السجن.

رأت المجموعتان الرجل يُخفِّض من اندفاع الدراجة، عند مفترق ممرين؛ ينعطف إلى الذي على يمينه، ويُتابع القيادة إلى بناية لا تتكون إلا من ساحة مدارة بسور، وحجرة؛ يُزوِّد من يسكنها مما حمله، ويرجع، ويُتابع التقدم في الممر الآخر، وهكذا إلى أن انخفض به وبدراجته منحدر بين صخور مُغطاة بعشب قصير، فيكون قد انفلت من أنظار أفراد المجموعتين، فلم يتبعوه؛ مخافة أن يكون الممر المُنحدر خاضع للحراسة، وقنصِ كل من يتقدم فيه، فدارت المجموعة (أ) إلى الجهة الأخرى؛ مُلاحِظة أرضا مستوية؛ تنبت عليها نباتات كثيفة؛ مهدوا وطآت أقدامهم بينها، إلى أن أشرفوا على ساحة في الأسفل؛ انفتاحها على الفضاء يترك الضوء الطبيعي وأشعة الشمس؛ يشعان في ممر ضيق طويل تحيط به حُجرات ضيقة؛ قال رائد للآخرين بصوت مُنخفض جدا:

– هذا هو السجن، وهذه زنزاناته، وهذا المدخل المؤدي إلى هذه الأخيرة.

اِلتحقت بهم عناصر المجموعة (ب)، وتقدموا ليُشاهدوا ما ظلت عيون المجموعة (أ) تستكشف نظراتها جميع نواحي المكان؛ نادى أمجد على رائد، في حقيقة الأمر كل واحد منهما قائد لمجموعته، والمنسق بين أفرادها؛ قال له ليُحكِما خطة تبعا للظرف الآني، وطبيعة المكان:

– ما الخطة التي تراها ناجعة؟

قال أمجد؛ ذاكرا الأمر الأساسي الذي ينبغي التفكير فيه؛ قبل الإقدام على أي عملية:

– لا بد لنا أولا أن نعرف هل هناك نظام حركة في المكان، ومن هم الذين يعملون يوميا في إطاره، وتوقيته.

سكت؛ وانخفض إلى الأرض؛ والتقط حجرة مسنونة، ورسم تصميم السجن؛ بمدخل طويل؛ له باب خارجي وحيد؛ مُغلق في جميع الأوقات، محدود بزنزانتين، على جانبيه ست زنازين؛ ثلاثة زنزانات في يمينه، وأخرى في يساره، وقال مُضيفا نقطة مهمة في عملية التحرير:

– هناك سبيل وحيد للدخول إلى السجن؛ هو بابه الخارجي؛ يتطلب منا هذا معرفة أكيدة بطريقة إغلاقه، وهل هي من السهولة إبطالها...

قاطعه رائد سائلا إياه:

– وهل للزنازين أبواب؟

أجاب أمجد، بما كان يأخذ باهتمامه منذ البداية:

- نعم، وقد لاحظت أنها غير قوية القضبان بمستوى تتطلبه وظيفة المكان، وإذا عملت سواعد ثلاثة رجال؛ فإنها ستكون طيِّعة.

قال رائد باستعداد لعملية استطلاع فردية:

- سأنزل من أعلى المستطيل من السطح المفتوح إلى الداخل، وأفحص طريقة غلق الباب.

سكت لحظات وهو ينظر إلى ألبسة أمجد، وأمره قائلا:

- اِنزع قميصك... قميصي، وقميصك، وقميص ماتياس؛ حبل ألقي بنفسي به في قعر السجن.

أمسك ماتياس، وبسام، وأمجد حبل الأقمصة جيدا؛ عاد رائد مُتسلقا به السطح، وقال لأمجد:

- إنها سقاطة تتكون من قطعة حديد طويلة؛ تُحرك من الخارج بسِنّ مفتاح لإحكام الباب بالإطار على ماسكة، وتركه يُفتح بتحررها منها، والذي يكون في الداخل لا يحتاج إلا إلى يده ليُحرر الحديدة من الماسكة، وهذه تقنية أُتيحت لنا؛ فاستحوذنا عليها، نمتلكها إلى حين.

قال أمجد حاثا الجميع على التقدم للمرحلة الأولى:

- اِثنان يستطلعان نظام الحركة في داخل السجن، وفي محيطه؛ بسام لخفة جسدك الفتي، وماتياس، لقوة جسدك تدافع عن نفسك عن مرافقك.

كان ما نقل هذان إلى مجموعتيهما، هو أن السجن لا حارس له، والذي يأتي قائداً دراجة القاطرة للعربة؛ يحمل

للمساجين الماء والطعام، ثم يقفل وراءه الباب، ولا يظهر إلا في وقت قبل انتصاف النهار.

قال لهم أمجد واضعا خطة:

- ننفذ العملية في ساعة متأخرة من الليل.

وانسحبوا بعيدا عن المكان؛ مُتفرقين في جهات عديدة من السجن، وقبعوا مُخفين أنفسهم بين الأعشاب؛ مُنتظرين الوقت الموافق عليه.

كانوا مستلقين على ظهورهم، أو مضطجعين، يلُفُّهم سكون رهيب طغى على أجواء الجزيرة، لا يسمعون فيها إلا هدير محرك سفينة مُبحرة بعيدا في وسط المحيط، أو زعيق طيور مهاجرة من قارة أخرى، أو الريح وهي تهب على اليابسة المحيط بها الماء من كل جانب؛ في نظام حركة الهواء محلية؛ موسمية؛ حتى دقت ساعة الانطلاق إلى تنفيذ المرحلة الثانية؛ قال لهم أمجد؛ يختار من سيحرر السجينة:

- استعد يا ماتياس مشاركا في العملية؛ فاتحا عينيك جيدا لتُميز أختك من بين المساجين الآخرين، وقوي كتفك لتحملها في مسافة الرجوع، وأنت يا بسام؛ كن مؤازرا كفؤا، ورائد أنت القائد لمجموعة الزحف؛ سيكون الإسراع في العملية بقدر عشر دقائق في الحد الأقصى، فانطلقوا، وإن مما تبقى من عناصر المجموعتين سيتوزع في زاويتين؛ يراقب منها البعيد والقريب؛ ممن يمشي على الأرض على اثنين، ولا يسلم العالم من شرور البعض منه.

نزل الثلاثة من أعلى فتحة السطح؛ المعشوشبة جوانبها؛ بحبل القمصان المربوطة أطرافها إلى بعضها البعض، كان أول ما فعله بسام هو التوجه إلى الباب، ورفع السقاطة عن ماسكتها يدويا، وشرَّع الباب، وعاد مساعدا رفيقيه في الإجهاز على قضبان وأسلاك باب حديدية متهاوية؛ تقبع وراءها في زاوية امرأة مُنكمشة على نفسها؛ ذات شعر أشقر منفوش؛ وملامح غابرة في زمن موحش؛ تتالى سنونه إلى الوراء؛ لا يستر جسدها إلا ثوبا من نسيج قطني خشن؛ تعرف عليها ماتياس سريعا بأنها أخته؛ فما إن انصاع لهم الباب؛ حتى دخل بسرعة وحمل أخته على كتفه، ولم يسلك أي اتجاه آخر؛ إلا الذي يقوده إلى شاطئ قطع الصخر المتشظية، والحصى، فجرى أفراد المجموعتين مُتفرقين عن بعضهم البعض؛ بمسافة قريبة؛ مُمهدين لهم ممرات بأقدامهم؛ التي أطلقوها تُسرع بهم؛ في وقت سمعوا فيه أصواتا قوية، صلدة حناجر من صدرت منهم، بكلمات أمر مريعة:

- قِفوا حيث أنتم، وإلا سيُطلق عليكم الرصاص.

لم يستجيبوا، لأن أمجد صاح فيهم؛ مُمْهِزُهم من خلفهم:

- تفرقوا متباعدين فيما بينكم، ولا تُستضعفوا بالتهديد، فهو صوت آمر مُسلّط؛ عميل؛ بليد؛ معتوه.

أصيب اثنان منهم بطلقتين؛ بسام، وفردوس؛ فحمل رائد الأول على كتفيه، لأن الرصاصة شلت حركة مشيه، وأحاط أمجد جذع فردوس بيده اليمنى القوية، وأسند يدها اليسرى على كتفه، وجعلها تُحلّق؛ لا تكاد قدميها تمسان الأرض؛ إلى

جنبه، وما إن وصلوا جميعا إلى الشاطئ؛ حتى هُرع السالمون من الرصاص، والمصابان به إلى داخل الغواصة؛ التي قادتها رهف خارجة بها من الماء؛ عندما وصلتها إشارة إلكترونية من جهاز مُثبت في معصم أمجد، وما تزال الغواصة تغطس بهم بعمق تختفي به تحت سطح الماء؛ سمعوا صوت حوامة؛ ينشر الذعر في بيئة الجزيرة المسالمة، والمستسلمة لطغيان الإنسان، ويُزلزل الكائنات من غير هذا الأخير؛ فهي طيور، وحشرات، وحيوانات تدبّ، وحتى النبات؛ فجذوره تتفكك عنه الأتربة، وينهار تماسُكُها، فلا يبقى مصدر ترتوي منه، فيذبل، فينمحي من دورة البيئة، كانت قد حلقت الحوامة في طبقة الجو العليا؛ من مكان ما من الجزيرة، لتقتنصهم من ذلك العلو عيون الخفراء، ورصاصُ مسدساتهم، وبنادقِهم، ولكن الناجحين في عمليتهم؛ قد أفلتوا بأجسادهم.

وما إن احتوت الغواصة الأم صغيرتها الإلكترونية؛ حتى هُمزت المحركات، فانطلق بهم الهيكل الغاطس بسرعة فائقة، وكان أمجد ورائد قد استعدا لتشغيل التفريغ الكهربائي؛ على جسم معدني قد يغوص ليتعقبهم، أو طوربيد يُطلق من غواصة أو مركب حربي؛ على غواصتهم ليدمِّرها.

كانت ريم قد أمرت بحمل الثلاثة؛ بسام وفردوس، وأخت ماتياس إلى المصحة من الغواصة، وعلى أسرة تمريض استلقى عليها الثلاثة، وشرعت ريم في فحصهم، وتعيين الأضمِدة، والمراهم، والأدوية، التي يتعافون بها، والذي أفلتهم من القتل، هو أنهم كانوا سباقين إلى الهروب؛ في مسافة بعيدة نسبيا عن

دائرة إطلاق الرصاص، فكانت الجروح طفيفة، فشُفي الاِثنان، وبدأت أخت ماتياس تستعيد ذاكرتها، وشعورها بوجودها في مكان آخر غير السجن، وكان أول من تعرفت عليه هو أخوها، فتلقته بابتسامة شاحبة، وبضم عاطفي؛ حنت إليه منذ زمن، وكان لها فيه بلسم لنفسيتها؛ التي كانت ما تزال مُتأزمة بظروف الحبس.

كانت في رأس (أقولاس) في أقصى الجنوب من القارة الإفريقية؛ فترة استراحة، وللاستعداد لعملية التحرير الثانية؛ هدفها الآتي هو والد فردوس المحبوس في جزيرة (ناتينكال)، وفي ذلك المكان من أقصى جنوب إفريقيا؛ تنسمت أخت ماتياس هواء البر، ونظرت إلى عمق السماء؛ مُسافرة بخيالها بعيدا إلى فضاءات؛ تُروح بها عن نفسها، وأطلقت نظرها في ذلك الامتداد من غطاء نباتي يُغطي الأرض؛ قالت وقد دمعت عيناها:

- ما أرحب سطح هذه الأرض! وما أجمل النور الذي يُضيئه! وما أدفأ أجواءه! وما أسعد من يمشي عليه! تحف به الطبيعة من كل جانب؛ التي يُحيِيها ندى الصباح، ويُنمّيها مطر الشتاء.

وروض بسام، وفردوس؛ جسديهما، في فضاء ساحلي واسع، وممتد، وتحركت في مسافة طويلة سيقانهما، وأهدوا إلى بعضهم البعض زهور روابي ذلك الجزء من إفريقيا، ونسجوا من نباتاته البرية ثلاثة أكاليل؛ توّجوا بها رؤوس بسام، وأخت ماتياس، وفردوس، حتى ارتاحت نفوسهم، واطمأنت بتلك

الحلة الجميلة التي تكتسي بها الطبيعة، وشبِعت من عطرها البري، فرجعوا إلى الغواصة، وكان ما خاطبهم به أسعد؛ هو ذلك الشأن الذي ما يزال يُعيدهم؛ إلى الشعور بالمسؤولية التي ألقوها على عواتقهم؛ حيث قال:

- لا تكتمل فرحتنا إلا بعد تحرير والد فردوس، وإن هذا الوقت الذي أمضيناه اليوم في رأس (أقولاس)؛ إلا استرجاعا لأنفسنا، ولحيوية أدمغتنا، وإفراغ أذهاننا من الآثار السيئة، وبالأخص أخت ماتياس، ففي هذه السياحة بَعْثٌ لها، وقد رأيناها عنصرا بيننا؛ مُنتصرة نصرا ساحقا على أثر أيام حبسها، ولا أحسب إلا أنها الآن عضو من فريقنا العلمي؛ بعلمها في المجال المتخصصة فيه. لا عمل نفكر فيه الآن، ونُقدم عليه إلا التوجه، وبسرعة قُصوى إلى جزيرة (ناتينكال).

فتفرقوا، واتجه كل واحد من أفراد الطاقم إلى ما هو مكلف به، في تحريك الغواصة إلى عمق مياه الجنوب من المحيط الأطلنتي، ويرى الآخرون -الذين هم بتعبير آخر ضيوف- ما يقومون به؛ ليؤازروهم في ذلك، ويفكروا في مراحل عملية تخليص السجين من حبسه، ويقترحونها موضوع نقاش، فتوضع انطلاقا من ذلك خطةٌ محبوكة؛ تُقوِّي عزيمة الجميع.

الفصل العشرون

سجين جزيرة (نايتينكال)

دائما يأمر أسعد بالتريث في الدخول إلى الجزيرة التي يتوجهون إليها، وباستطلاع من مسافة ما يجري فيها؛ ما يخصها، وما تتميز به؛ بعد الاقتراب منها بأقل من ميل، وغالبا ما يظهر ذلك من إبحار السفن، أو المراكب في اتجاهها، وما تحمله إليها، أو تجلبه منها، ومن يركبها من القادمين إليها، ومن المغادرين منها. الذي تأكدوا منه من صور الأقمار الاصطناعية، هو وجود شاطئ من الحصى، وحجارة أكبر؛ في الغرب منها؛ يصلح لتُطلِق عليه الغواصة البرمائية عجلاتِها، وقد قام بها رائد، ورهف، وريم؛ بدورة استكشاف لساحل الجزيرة، ومعرفة ما إذا تبدو لهم من عُرض البحر بناءات يسكنها البشر، أو أنشطة يقومون بها؛ لم يظهر لهم أي شيء من ذلك؛ إلا مساكن مهجورة؛ دقَّق فيها رائد بمنظار العدستين المكبرتين، وقال لهم:

– يبدو من تفرق تلك المساكن، ومن هِجرانها أنها منتجع صيفي؛ يقصده سكان أقرب جزيرة إليها مأهولة؛ هي جزيرة (تريستان دا كوهنا).

رجع الثلاثة؛ ناقلين تقريرا شفويا إلى الآخرين؛ قال أمجد مُستندا إلى رسالة والد فردوس:

– انطلاقا مما ورد في الرسالة، فإن في الجزيرة على الأقل شخص، وهو مقدم الماء والطعام لأب فردوس.

قال أسعد مُنطلقا مما سمعه من الثلاثة، ومن أمجد:

– وقد يكون غيره؛ من يكون؟ سنعرف ذلك في حينه.

وما يزال يوزع عينيه بين الوجوه، وهذه أصحابها تُبادِله نظراته؛ منتظرة منه كلاما؛ سمعوه ينطق ويقول بملامح صارمة؛ بصوت رصين، وقوي؛ يعبر عن جدية الموقف:

– الأفراد الذين سيُكونون مجموعة واحدة، والذين سيستعدون للدخول إلى الجزيرة؛ هم: رائد، وماتياس، وريم؛ الطبيبة المسعفة، وفردوس لتتعرف على والدها، وبسام، ستستغلون ما تُصادفونه في صالحكم؛ أول ما عليكم أن تعرفوه هو من يسكن في الجزيرة؛ هل هي جماعة بشرية بعدد من الأفراد، أو فرد واحد، أو اثنين، وهل هناك من يحرسها؛ هل هي إدارة مُنظمة، أو مهمة فردية.

دبت الغواصة البرمائية بالخمسة؛ على الشاطئ الذي عينوه ممهَّدا لهم للتقدم إلى الداخل، وساروا في اتجاه المنتجع، ولما لم يبق بينهم وبينه إلا عشرات الخطوات؛ أرسلوا أنظارهم إلى بيوته؛ رأوها مُوصدة كلها، ويسودها سكون، لا يسمعون إلا صوت الموج، وأنين طائر القَطْرس، وهو يعشش على أرض الجزيرة؛ وكان ضباب قليل الكثافة ينتشر على كامل الجزيرة؛ قال بسام مُحددا دوره بالنسبة لهم:

– هذا الضباب في جانبنا.

تراجعوا عن المكان، وتابعوا توغلهم في الداخل؛ بين سيقان نباتات قصيرة؛ إلى أن استقامت أقدامهم على ممر ضيق، فتابعوا السير فيه؛ إلى أن اشتمت أنوفهم رائحة طبيخ؛ حملها إليهم من بعيد نسيم البحر، فتوقفوا بحذر شديد، مُلجمين

أفواههم، وقاطعين أنفاسهم، واطئين الأرض بنعالهم باحتياط، وبدأوا ينظرون في أي اتجاه؛ فجأة داهم أسماعهم صوت ضرب على أوتار گيتار، وتصفيف بالأيدي مُتناغم مع أنغام الآلة الوترية؛ قال رائد بصوت منخفض:

– من يستطيع منا استطلاع ما يجري؟

تحرك لسان بسام؛ قائلا بتأهب:

– أنا من يأتيكم بما يجري في وقت وجيز.

قال له ماتياس مندفع الصدر:

– لن نتركك تسير إلى هناك دون أحد يحمي ظهرك، فأنا سأمشي وراءك بمسافة مناسبة لنا معا.

قالت ريم بتفكير صائب:

– ونِعم الفكرة، حتى لا تضيع منا يا بسام في ظرف عصيب.

وانطلق بسام، ووراءه ماتياس؛ في الاتجاه الذي يأتي منه ضجيج موسيقى الگيتار، والتصفيق؛ بعد عشر دقائق عادا؛ قال بسام لعناصر مجموعته؛ ناقلا إليهم الصورة العامة:

– رجلان يجلسان على كرسيين خشبيين؛ مُتحلِّقيْن حول نار مُستعرة؛ موضوع عليها قدر يغلي مرقُه، وإبريق شاي، أو قهوة، وثالث واقف على رجله اليسرى، ويضع رجله اليمنى على صندوق خشبي؛ يضرب على الگيتار؛ الملاحظة الأساسية، وتدخل في غرض وجودنا؛ هي أن الضارب بالآلة الموسيقية يرتدي لباس السجن، ويداه اللتان يعزف بهما مكبلتين بقيدين، وبسلسلة.

قال رائد سريعا؛ مُقاطعا إياه، وبغضب شديد:

– هذا أحد السجناء؛ استقدمه هذان المعتوهان من داخل السجن، ليُرفِّهوا به عن أنفسهم، وليتغلَّبوا على عُزلتهم بهذه الجزيرة المهجورة، والبعيدة بآلاف الأميال عن القارات.

تابع بسام ما شاهدته عيناه؛ قائلا:

– ورأيت بندقية موضوعة على الأرض بجانب أحد الجالِسَيْن.

قالت فردوس مُنطلقة من رسالة والدها:

– هذا الضارب بالگيتار أحد السجناء، والجالس على الكرسي؛ بجانبه بندقية؛ الغالب أنه يحرس الجزيرة مسلحا بها، والآخر لن يكون إلا ذلك الذي ساعد والدي في البعث بالرسالة.

– قال ماتياس مُستنتجا:

– إذن فمعسكر العدو يتكون من هذين.

قال رائد ناطقا بالمرحلة التالية:

– سينفض الِاثنان بعد أن يتناولا ما يُطبخ في الوعاء، فيكونان قد انتهيا من حفلهما، فيعيد بعد ذلك أحدهما السجين إلى محبسه، ويمضي الآخر الحامل للسلاح ربما إلى مهمته، إذا كان مُكلفا بها من طرف جهة رسمية.

قال رائد مُتقدما بأفراد المجموعة إلى التخطيط للمرحلة التالية:

– سنظل هنا نراقبهما، وهما في حفلهما ذاك؛ حتى ينتهيا منه، ويقوما من جلوسها؛ ليتحرك كل واحد منها إلى مكان يقصده.

وجلسوا على الأرض؛ ناصِبين آذانهم؛ مُوجهين إياها؛ إلى الاتجاه الذي تصل إليهم منه أصداء حفل الاستمتاع؛ بأوتار الآلة الموسيقية، التي ترن بنغم يراقص الأفئدة المتضعضة؛ بواقع الحياة الذي لا يرحم، حتى انقطع الضرب عليها، واستمر هدوء؛ حتى عرفت منه المجموعة بأن المحتفِليْن قد انبسطت نفوسهما بما يكفي، ونُفِخت الأنغام في باطنيهما، فطردت منهما السأم، والضيق، وعادت الأحلام بالجميل، وذهب بهما الخيال مُحلقا بهما بعيدا، وحنَّت نفسيهما إلى أيام ماضية سعيدة، وتفتحت شهيتاهما إلى التهام ما طبخاه، فسمع المترصدون تحركَهما، وابتعادَ أقدامهما في ممرات ذاهبة في الاتجاه الآخر، فقام الخمسة من مكان ترقبهم لانفضاضهما، وأرسلوا عيونهم إليهما؛ فرأو أحدهما يحمل البندقية، ويسلك ممرا إلى الجهة الأخرى من الجزيرة، والآخر يسوق السجين إلى سجنه. قال رائد حاثا بسام وريم على تعقب المسلح:

– اِتبعاه؛ لتعرفا ما إذا كان يسير إلى مكان ما، وأنا وماتياس وفردوس، سنسير وراء الذي سيُعيد السجين إلى زنزانته؛ ونرجع جميعا لنلتقي هنا، وانطلاقا مما صدفناه جميعا سنُخطط للمرحلة الثالثة التالية.

تعقبت مجموعة رائد السجان ومَسُوقَه؛ إلى أن وصلا إلى مدخل محفور؛ في سفح قمة صخري له باب من قضبان نخر

الصدأ في حديدها؛ بفعل مُلوحة البحر، فتوغلا منه إلى الداخل؛ فتبعتهما مرة أخرى المجموعة، فما رآه أفرادها كان فظيعا؛ فهذه حجرات ضيقة منقورة في طبقات الصخر على جانبي الممر، ومُغلقة كل فتحة من فتحاتها بباب من صفيحة حديدية واحدة؛ بها فتحة مربعة في الأسفل؛ غير متسعة؛ لا تتسع إلا ليد ممدودة؛ يُقدم منها الماء والطعام للسجين؛ ولا يرى المحبوس أي شيء، أو أي أحد في الممر الطويل؛ المكان كله صخر، وشاهد عناصر المجموعة ما اقشعرت له أبدانهم؛ إنه الماء يتفجر من طبقات الصخر، كأنه يتدفق من ينابيع، وينساب إلى داخل الزنازين.

تراجعت المجموعة إلى الخارج، وابتعدت إلى جهة بها نباتات كثيفة عالية السيقان؛ يختفي فيها عناصرها؛ بعد قليل شاهدوا السجان يغادر السجن دون أن يُغلق الباب بقُفل، ويمضي في اتجاه الساحل، فتبعوه إلى أن دخل إلى أحد مساكن المنتجع؛ بعد قليل ظهر بسام وريم يرجعان من ممر آخر؛ يتعقبان الحامل للسلاح؛ وتوقفوا بعيدا لما اقترب من المنتجع، وسار يخطو إلى داخل أحد بيوتها. اِلتأم الاثنان بعناصر المجموعة الثلاثة؛ قال رائد لبسام وريم مخبرا إياهما بعثورهما على السجن:

– سجن منحوتة حجراته في طبقات الجزيرة الجيولوجية، مغلقة بصفائح من الحديد على المسجونين، لم ندر بعد كيف هي مغلقة، هل بأقفال لها مفاتيح؛ يستحيل فتحها بدون

هذه الأخيرة؟ أم بتقنية أخرى؛ لا ندري هل هي ميسرة لنا؛ أم لا.

قال ماتياس مُركزا انتباههم إلى أمر مهم:

- هذان العائدان إلى مسكنهما من المنتجع، لا ندري هل سيسلكان مرة أخرى الممرين المؤدين إلى الداخل، أم لا؟ لنستغل وقت تغيبهما -بالأخص السجان- مُتوجِّهين فيه إلى السجن.

قالت ريم كابحة جماحهم:

- نراقبهما أولا مرة أخرى، لنرى نظام تحركهما في أرجاء الجزيرة طيلة الأوقات الباقية من هذا اليوم، ويوم الغد، وما الأعمال الأخرى التي تجري.

وانسحبوا إلى ناحية؛ لا يغفلون منها عن مداخل المنتجع؛ لم يدم وقت طويل حتى خرج السجان يدفع عربة خشبية؛ سائرا في اتجاه السجن؛ كُلف بسام بالمشي وراءه، بعد عشرين دقيقة عاد، وقال للآخرين مُنبِّها إياهم:

- إنه عائد إلى المنتجع مُوجّها العربة؛ لا أخطئ ظني إذا قلت بأنه حمل الماء والغِذاء إلى المساجين.

جلسوا في نفس المكان، وتغذوا بما حملوه من طعام، وارتوى كل واحد منهم من ماء قنينته، بعد وقت شاهدو قرص الشمس في طريقه إلى الغروب وراء أفق المحيط، فصار يزول عنهم ملل الاِنتظار، ولما لم تحدث أية حركة في المنتجع، قال رائد ناظرا إلى ريم وماتياس نظرة آمرة:

- اِذهبا إلى السجن، وادخلاه إذا كان ذلك مُتاحا لكما، وحُوما حوله، واستكشفا ما يمكن أن يوجد في محيطه، ونحن سنظل هنا نراقب السجان والمسلح، ونحميكُما منهما إذا ما تحركا.

رجعا ناقلين ما لاقاه؛ قالت ريم ناطقة بأهم شيء:

- الباب الخارجي هو المتاح لنا، أما الأبواب الأخرى فإنها مغلقة بأقفال؛ لا أقول إلا أنها كبيرة، وتحتاج إلى مراوغة السجان وهو يفتحها، أو بحيلة أخرى.

جاء دور ماتياس فقال:

- اِكتشفت في أعلى السطح وهو صخري مُعشوشب؛ فتحات تهوية، لكل زنزانة واحدة منها؛ إلا أنها عميقة وضيقة؛ بحيث لا تتسع لهبوط وطلوع شخص.

ظلوا جميعا صامتين؛ مُتفكرين بخيبة أمل في العائق الذي وجدوا أنفسهم أمامه، ولإعادة الأمل للتفكير في طرق أخرى؛ قال رائد:

- ننتظر يوم غد؛ قد نكتشف فيه ما نستغله لتحرير المحبوس، فإذا لم يكن، فلا مناص لنا من مراوغة في داخل السجن، أو اقتحامه بالقوة، وشل حركات السجان، وتكميم فمه؛ حتى لا يصيح مُستغيثا، وتوثيق أطرافه، ثم انتزاع المفاتيح منه.

في ساعة مُبكرة من اليوم التالي؛ كانت الشمس لم تظهر أعلى الأفق، إلا أن ضوءها انتشر على الجزيرة، سمع ماتياس الذي كان في نوبة من الحراسة والمراقبة صوت حديث يدور،

وتحريك الأبواب على محاروها، فنخس المضطجعين، وهم يسرقون غفوات لعيونهم في شاكلاتهم؛ لينتبهوا إلى ما بدأ يحدث؛ أطلوا بعيونهم من أعلى حزمات النباتات، فرأوا السجان والمسلح يأخذان طريقهما إلى السجن؛ يمشيان بخطوات بطيئة في ذلك الصباح المنعش، غير مُستعجلين بشأن ما؛ قال رائد لأفراد جماعته:

– نفترق إلى مجموعتين؛ أنا وبسام وفردوس نتقدم إلى الأمام، وماتياس، وريم، يتأخران عنا بمسافة؛ يستطيعان منها حماية ظهورنا، وقد ينحرفا موازاة معنا، لا ندري ما إذا هناك شخص أو أشخاص يعملون في الجزيرة.

كانوا قد أغمضوا عيونهم في الليلة الماضية؛ مُقطِّعين نومهم للحيطة؛ إلا من أتت نوبته في الحراسة والمراقبة؛ إلا أحدا منهم لم ينم، وهو الذي أبطأ سيره من المجموعة الأمامية، وانضم إلى الاثنين الذين في الخلف، داسا شيئا ما في جيب ماتياس؛ انتبه هذا للحركة، وتلمس حبلا خشِنا، قالت له فردوس لافتة انتباهه إليه:

– إنه حبل تكون في أمس الحاجة إليه، في المواجهة الأخيرة.

وابتسمت له؛ مُظهرة له فطنتها، ودهاءها؛ شاحِنةً إياه بهما، ثم حثت خطواتها إلى الأمام.

إن فردوس هي التي لم تستسلم لارتخاء جفونها، ولغفوة قد تؤدي بها إلى نوم عميق، وظلت طيلة الليل تجمع أوراقا

يابسة، وطويلة؛ إبرية الشكل؛ ضفرت منها حبلا بقدر توتيره باليدين.

كان ذلك باب السجن الخارجي قد بدا للمجموعتين، وكان الذي دخل إليه هو السجان، أما المسلح فقد ظل واقفا ينتظر، وما هي إلى عشر دقائق حتى خرج عشرة مساجين، بلباس بتصميم واحد؛ أسود اللون، وعلى رؤوسهم قبعات بنفس اللون؛ على معاصمهم الأصفاد، وفي كعوبهم سلاسل تطول فقط لخطوة محدودة؛ صاح فيهم الحامل للبندقية بقوة؛ بحيث ترتج لصيحته عظام أقفاصهم؛ آمرا إياهم:

– هيا امشوا سريعا، فإن العمل يتطلب وقتا طويلا، وإلا لن تتريق حناجركم الماء في أول هذا اليوم، وأمنع اللقمة أن تجد طريقها إلى أمعائكم؛ ستظل هذه تشكو منكم طيلة النهار.

فحاولوا الهرولة بأقدامهم المثقلة بالحديد، ومروا أمام الجماعة التي كمنت غير بعيد، وانبثت نظراتهم في الصف؛ أحس رائد بيد تتعلق بردائه، ثم ترتخي؛ فشعر بجسد يتهاوى إلى الأرض؛ كان لفِردوس؛ لقد ضعُف ساقاها، فأسرعت إليها ريم بمنديل مبلل بالماء؛ بردتها به؛ فتحت فردوس عيناها، وقالت:

– لقد رأيت أبي؛ إنه الرابع في الصف، لقد هزُل جسدُه، وشاخت هيئته.

قالت لها ريم بصرامة:

– تجلدي يا فردوس جيدا؛ فإننا لسنا في وضع نبث فيه لبعضنا البعض عواطفنا، وشكاوينا، وتضرعاتنا، ومآسينا،

ونضعف أمام مواقف مُؤثرة، فنحتاج إلى إسعافات؛ نفتقر إليها الآن.

ساعدها رائد على الوقوف على رجليها، وعادت عيون الجميع إلى تدقيق النظر في والد فردوس، تمييزا لقامته من بين قامات الآخرين، وملامحه من ملامحهم، وطبيعة سيره؛ فارتسم في أذهانهم، وتحمسوا لتحريره مهما كانت الحواجز، والموانع، والصعوبات. دُفِع بهم أولا إلى شاطئ الحصى والأحجار الكبيرة؛ ينظفونها من النفايات البلاستيكية، والصناديق المبتلة قطعها بماء البحر، والمتلاشية عن بعضها البعض، والحبال المقطعة، والشباك المنحلة عقدها وعيونها، وقارورات الجِعة والخمور؛ المكسر زجاجها؛ يملأون بكل هذا عربات يديوية يدفعونها إلى أوعية لدائنية كبيرة؛ يرمون فيها ما جمعته أيديهم؛ مصفودة أرسُغها؛ يُنتظر أن تنقل تلك الأوعية إلى مكان مخصص لها، ثم بعد ذلك سِيقوا إلى شاطئ آخر قمته عالية؛ أكثر ما فيه حجارة كبيرة؛ يحملونها كذلك في عربات يدوية؛ إلى أمام السجن؛ حيث ابتُدئ في بناء سور يتقدم بابه الخارجي؛ قال رائد واضعا خطة يُهيمنون بها على المكان، ويقومون بعمليات موزعة:

– سنتفرق في جهات المكان؛ تشكل نقط هجوم؛ أنت يا بسام ستسير إلى خلف ذلك المرتفع؛ يخفيك عن حامل السلاح؛ الذي لا تفلت أي جهة من عينيه، تكون عمليتك من خلفه؛ اِنزع منه البندقية، وهِدَّ بها كتفيه بكل ما لديك من قوة، لتشل أطرافه، واختف بها؛ مبتعدا؛ أنت يا ماتياس،

ستقوم بنفس العملية؛ من خلف السجان؛ اِبطحه أرضا، ووثق يديه إلى الخلف بقميصك أو بشيء آخر؛ لا أدري، وأنا سأحمل والد فردوس على كتفي؛ سالكا به ممرا واحدا لا غير؛ المؤدي إلى الشاطئ الذي ستظهر عليه الغواصة البرمائية؛ من عمق الماء، وريم وفردوس في أثري، لا يكون ما تفعلونه لتفلتوا بأجسادكم وأرواحكم إلا أرجلكم، فارموا بها إلا الأمام؛ تحملكم سريعا.

سار بسام بعيدا؛ دائرا وراء قمة أرض تتوجها نباتات ذات سيقان متوسطة الطول؛ بحيث كان حامل البندقية يحتل مركز دائرة نظره، ومشى ماتياس؛ خلف قمة نصفها جرف من أجراف الشاطئ؛ بعده يقف السجان؛ كان هذا غائبا عما يجري أمامه؛ راحلا بعيدا؛ في تخيلات؛ دس ماتياس يده في جيبه؛ مُخرجا منه الحبل المضفور بأوراق النباتات الجافة؛ أطاله بيديه؛ ووتره ثلاث مرات بقوة؛ فأحس بفتله المحكم، وثبت في مساحة وقوفه مُستعدا. شاهد الجميع بسام يفاجئ حامل السلاح من الخلف، ينتزع منه البندقية بقوة، وبحركة سريعة، وينزل بها على كتفه؛ فينهار الحارس على الأرض، ويعاوده بسام بضربات على أطرافه العليا والسفلى؛ حتى أفقده القدرة على الوقوف، وأطلق ساقيه إلى الجري بعيدا؛ مُختفيا وراء ما تضرس من وسط الجزيرة؛ في نفس الوقت هجم ماتياس على السجان من وراء ظهره، وبطحه على الأرض؛ بحيث تعفر وجهه بالتراب، وسف ذراته بأنفه، وفمه الفاغر؛ وأدار يديه إلى الخلف، وعقد عليهما أطراف الحبل بقوة إلى حد أن

السجان صدرت منه صيحة ألم بالغة، فاستسلم مُرخيا جسده على الأرض، وأسرع ماتياس في الممر الذي ذهب فيه رائد مثقل عاتقه؛ فعاونه على ذلك بعد مسافة؛ تعِب فيها كتف رائد؛ وصلوا إلى الشاطئ؛ كانت الغواصة في انتظارهم الذي استدعاها هي إشارة من الجهاز المحمول؛ التحق بهم بسام، وهو يقول لهم بلُهاث لا ينقطع من فرط الجري السريع:

– رميت بالبندقية في خميلة؛ بعد أن مسحتها بكاملها؛ حتى لا تبقى بصماتي مطبوعة عليها؛ فليبحثوا عنها بجهاز طنّان، أو جهاز كشف المعادن؛ يتطلب منهم ذلك أياما.

مُدِّد جسد والد فردوس على سرير الفحص؛ وشرعت ريم بسماعتها تتصنت ما في أجزاء من جذعه الذي ضعُف بالحبس لمدة قهرية، وهو ينظر إليهم مندهشا؛ لا ينطق بأي كلمة، كان أسعد قد أمر ابنته بالابتعاد عنه؛ بحيث لا يتفاجأ بوجودها؛ حتى يسترجع قوة ذاكرته، وتوازن نفسيته، وصحة جسده؛ وعينت له ريم سوائل مداوية، ووصت له بغِذاء متوازن؛ بعد يومين شاهده ستة أفراد؛ جالسا مع أسعد وأمجد وهو يشكرُهما كثيرا على تخليصه من ذلك السجن الرهيب. في لحظة تقدمت فردوس من أبيها؛ أحس باقترابها منه، فالتفت إليها؛ اتسعت عيناه بانبهار، وبشدة المفاجأة، ونطق بجملة واحدة؛ مُتسائلا:

– أهذه ابنتي فردوس؟

عانقته، وهو ضمها إلى صدره المهدود؛ بحنان أُبوة حُرمت هي منها مدة طويلة؛ وتهللت وجوه الآخرين، وسعِدت

نفوسهم، ورجعت إليهم رغباتهم في التنعم بالأوقات الجميلة، وبالانطلاق إلى فضاءات واسعة؛ مفتوحة على السماء، وفي الاستمتاع بشموس الفصول، والأقمار التي تُضئ الليالي، والشواطئ المرحِّبة دائما بالأمواج. قال أسعد بسعادة جني ثمار العمل الذي يُنجز بصبر، وروية، وتعقل، وذكاء، وتخطيط:

– ترون جميعا بأن لعاملين حصيلة محققة قطعا؛ هما: أولا التؤازر، واتجاه جميع ما يقوم به عناصر جماعة إلى هدف واحد لا غير، ثانيا: التخطيط المحكم، والرصين؛ انطلاقا من معلومات، وبيانات، وأرقام؛ موثوق بها.

كان ما يزال يوزع نظراته بينهم، وكان يدرك بأن وقت نطقه بالوجهة التي ستأخذها الغواصة؛ بعد عمليتي تحرير السجينين؛ قد حانت، قال:

– ما وصل إليه اهتمامنا جميعا؛ هو أن يأخذ ماتياس أخته، وفردوس وأبوها اتجاههم إلى الديار، ففي بيت من الأرجنتين؛ ذكريات جميلة؛ وجو يُتخيل أنه ما يزال يعبق بعطري الوالدين، وفي سكن من (ماليزيا) فردان من الأسرة ينتظران عودة الإبنة، والأخت الحريصة على كل مايهمها، والأب العطوف؛ المُدرك جيدا لمتطلبات أسرته؛ الساعي إلى إنجاح الابنين في الحياة، فما على أفراد الطاقم إلا أن يُوجهوا مقدمة الغواصة أولا إلى الغرب إلى أمريكا الجنوبية، إلى الأرجنتين؛ نودع من هما من هذا البلد، ثم إلى الشرق؛ إلى

بحر (أندمان)؛ إلى خليج (مالقا)؛ ومن هذا إلى شاطئ من ماليزيا آمن لنا؛ نودع من هما من هذه البلاد.

في كلي الاتجاهين الجغرافيين؛ كان فراق مُفعم بمشاعر الفرح، وفي آن لوعة فيه، للقاء بين العائدين إلى الأرض التي رأت ميلاداتهم، وبين أفراد جماعة أسعد؛ قد يُتاح في يوم الأيام، أو لا تُمكّنِهم منه ظروف البُعد الجغرافي، والانشغالات بالمُجبِر من الواقع؛ ما تشبعت به أذهانهم هو أن خُلق التفاني في فعل جميل؛ يُسعد النفوس؛ خصوصا إذا كانت مكلومة بوقائع تُؤلم، لا ينزوي في بواطن الناس؛ بل يأتي ظرف يَبرز فيه، ويدفع بالإنسان إلى الإسراع بالقيام به، ليجني ثمرته الجميع.

****

كان الساحل من شمال إفريقيا يستقبل العائدين؛ بشعور غامر بالفوز في جميع ما قاموا به من أجل الآخرين، وبسعادتهم بما اكتسبوه من تجربة طويلة في الخوض في أعماق البحار والمحيطات، والسفر بعيدا إلى جهات من العالم، وبالكفاءة الميكانيكية، والإلكترونية التي أثبتتها الغواصة (أنقليس 1)، ولا يتقاعسون عن القيام برحلات أخرى؛ يكتشفون فيها الغريب من الأشياء، والكثير من الناس؛ يلتقون بهم، ويمُدون لهم يد المساعدة؛ في الأهداف النبيلة، والعديد من الأحداث غير المألوفة.

تمّت

بتمارة؛ في خريف 1447هـ؛ الموافق لـ2025م.

الفهرس

الفصل	العنوان	الصفحة
1	تكنولوجية غواصة (أنْقَلِيس 1)	7
2	المسالك البحرية	33
3	الكائن البحري المنقرض	45
4	الخزف المسموم	59
5	اِستخبار تنظيم	85
6	مزرعة اللؤلؤ الأسود	95
7	صاحب المُسترزع	111
8	اِختفاء الطبيبة	133
9	العلم الأصفر	149
10	معركة الغطاسين	159
11	رسالة من قعر المحيط	173
12	إلى جزيرة (مالوركا)	195
13	أشياء شخصية	215

14	(سيرجيو) الثري	225
15	الملف الصعب	247
16	سكان الأعماق	257
17	اِبنة عالم	271
18	كلمة المرور	289
19	سجينة جزيرة (ماريون)	303
20	سجين جزيرة (نايتينكال)	315